قطوف الأفكار
لما لسورة الكهف
من أخبار

تفسير مجمع
من أمهات كتب التفسير

جمع وإعداد
الفقيرة إلى عفو ربها
مفيدة محمد زكي البكر

تفضل بمراجعته

د. أبو البراء أسامة الأحمدي
د. فرحان عبد العزيز الطائي
د. خالد محمود الجهني
أ. مصطفى حنفي القصاص

تدقيق لغوي وكمبيوتر
د.أمنية علي عبد الرزاق

قطوف الأفكار
لما لسورة الكهف
من أخبار

تفسير مجمع
من أمهات كتب التفسير

جمع وإعداد
الفقيرة إلى عفو ربها
مفيدة محمد زكي البكر

تفضل بمراجعته
د. أبو البراء أسامة بن الأحمدي
د. فرحان عبد العزيز الطائي
د. خالد محمود الجهني
أ. مصطفى حنفي محمد القصاص

تدقيق لغوي وكمبيوتر
د. أمنية علي عبد الرزاق

إهداء

إلى من لست إلا حصاد غرسها..

إلى من روتني بعطفها وحنانها ودعائها..

أمي الغالية

إلى من فارقنا ونحن صغار..

وافتقدناه في صغرنا وحين صرنا كبارا..

أبي الغالي

إلى من كان عوني - بعد الله - في دراساتي..

إلى شريكي في حياتي وأهدافي وطموحاتي..

زوجي الحبيب

إلى فلذات كبدي وقرة عيني في حياتي..

إلى من رجوت أن يكونوا ذخري غدا بعد مماتي..

ابني وابنتيّ

إلى شيوخي الأفاضل وأساتذتي الأجلاء

أسأل الله أن ينفع بهذا العمل المتواضع وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم

مقدمة د. أبي البراء أسامة الأحمدي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا، قَيِّمًا؛ والصَّلاةُ والسَّلامُ على المبعُوث للثقلين رحمة وهدى؛ وبعد

فإن سورة الكهف اشتملت على قصص عجيبة، ترسّخ عقيدة التوحيد، وتبطل كل زيف في تحريف المضلّلين، وتبطل مزاعم المشركين.

وقصة أهل الكهف تثبت الدعاةَ إلى الله، وتؤكد على قوة المؤمنين أصحاب الروح القوية الثابتة المرتبطة بخالقها الواحد الأحد، كما تؤكد أن الحياة هي الفرار إلى الله وحده بدين خالص نقيٍّ من الضلال والشرك؛ فتية هربوا بدينهم من ضلال قومهم فأماتهم الله زمنا طويلا ثم بعثهم بقدرته ليروا قدرة خالقهم في تمكين دينه في الأرض، وليكونوا عبرةً لأجيال عديدة، ثم يثبت قصتهم في القرآن الكريم لتكون أمة محمد صلى الله عليه وسلم شاهدة على طغاتها ودعاتها.

وإن السورة تؤكد على أن العمل الصالح علامة على الإيمان الكامن في بين جنبات المسلم، والعمل الصالح تشترط فيه النية الصالحة، والإخلاص لله، وأن يكون صوابا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبفهم سلف الأمة الصالحين.

وتبقى الروح قوية مجاهدة طالما أنها مرتبطة بالله الواحد الأحد، ترجو رحمته وتخشى عذابه، متمسكة بهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو الأسوة الحسنة، وتسير على نهج سبيل السلف في كل متفق فيه ومختلف.

ودائما أتطلع لاجتهاد الأخت الفاضلة النحريرة/ مفيدة بنت محمد زكي البكر، لأتزود من همتها العالية في التحصيل والبحث، والحفظ والفهم.

وهـذا التفسـير لسـورة الكهـف أعلـم كـم بـذلت فيـه مـن مجهـود رائـع أســأل الله العظــيم رب العــرش العظــيم أن يجعلــه عمــلا خالصــا صــوابا ويرفعها به في الفردوس الأعلى.

وصــلى الله علــى ســيدنا محمــد النبــي وآل بيتــه وصــحابته ومــن ســار على نهجهم إلى يوم الدين، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

د. أسامة الأحمدي

الشيخ أبو البراء أسامة بن الأحمدي منصور



مقدمة د. فرحان عبد العزيز الطائي

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون.

والحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمةٍ من نعمهِ إلا بنعمة منه، ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته. الذي هو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه.

أحمده حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، وأستعينه استعانة من لا حول ولا قوة إلا به.

وأستهديه بهداه الذي لا يضل من أنعم به عليه. وأستغفره لما أزلفت وأخرت، استغفار من يقر بعبوديته، ويعلم أنه لا يغفر ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، ورضي الله عن صحابته الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد: فإن من توفيق الله للعبد أن ييسره لخدمة كتابه وأن يستعمله فيما يرتضي، وأن يجعل قلبه معلقا بالقرآن وخدمته تلاوة وتفسيرا وبيانا.

والحمد لله على المنة بما مَنَّ به على أختنا الفاضلة (مفيدة محمد زكي أم أيمن)، بما يسر لها من الكتابة في تفسير سورة الكهف الموسوم (قطوف الأفكار لما لسورة الكهف من أخبار)، وقد جمعت فيه جمعا طيبا من قطوف التفاسير، وفلذات أكبادها، وحوت فيه لطائف هذه السورة التي ترتبط مع كل مسلم في كل جمعة.

نسـأل الله لهـا التوفيـق والسـداد، سـائلين المـولى أن يمـدها بـالعمر المديـد لتتحفنـا بمـا يمـن الله عليهـا مـن تفسـير القـرآن فخيـركم مـن طـال عمره وحسن عمله.

د. فرحان عبد عزيز الطائي

باحث في علوم التفسير والقرآن

مقدمة د. خالد الجهني



تقديم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي واسلم علىٰ سيد المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فإني وقفت علىٰ كتاب «قطوف الأفكار لما لسورة الكهف من أخبار» للأخت الفاضلة: مفيدة محمد زكي البكر حفظها الله، فوجدته مليئًا بالفوائد التفسيرية، والهدايات والفوائد التربوية، والنكات البلاغية، كل ذلك بأسلوب سهل.

فأسأل الله أن يرزقها بذلك فضله الكريم، والفوز بثواب من علَّم دين الله عَزَّوَجَلَّ المذكور في قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[1]، فأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وأنصح إخواني وأخواتي بقراءته، والاستفادة منه؛ فإن من علامات الخيرية أن يحبب الله لعبده تعلم شرعه؛ كما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[2].

هذا وصلِّ اللهم، وسلم، وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وكتب

خالد بن محمود الجهني

٦ شعبان ١٤٤٢هجريا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٣)، عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، عن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مقدمة أ. مصطفى حنفي القصَّاص

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على من بعثه الله هاديا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبعد:

فإن تلاوة القرآن الكريم وتدبره من أجلّ القربات وأعظمها عند الله تعالى، ومن صور تدبر القرآن الكريم فهم معانيه والاطلاع على تفسيره، فعلمُ التفسير من أشرف العلوم وأجلّها

وأعظمها بركة، وأحسنها أثراً، وأوسعها معرفة، وحاجة الأمّة إليه ماسّة في كلّ زمان ومكان وذلك لافتقارهم إلى بيان ما أنزل الله في كتابه من الهدى، وجواب ما أشكل عليهم فهمه وخفي عليهم علمه.

وقد شرّف الله أهلَ التفسير ورفع قَدْرَهم، وأعلى شأنهم إذْ جعلَهم مرجعاً لعباده في فَهْمِ كلامه وبيانِ مراده، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً .
ومعرفةُ طالبِ العلمِ بفضلِ علمِ التفسيرِ وجلالةِ قَدْرِه وعلوّ شأنه مما يعينه على تعلّمه بجدّ واجتهاد، وأخذه بقوّةِ عزيمةٍ وإقبالِ نفسٍ .

ومن فضل الله عز وجل وتوفيقه على الأخت الفاضلة الأستاذة أم أيمن مفيدة محمد زكي البكر حفظها الله وبارك في علمها وعملها أن وفقها لتلقي القراءات القرآنية وسعة الاطلاع والبحث في علوم القرآن حتى جمعت بين الرواية والدراية.

وقد وفقها الله عز وجل لهذا العمل العظيم الذي جمعت فيه تفسير سورة الكهف من أمهات كتب التفسير، وقد وضعت له عنوان (إهداء الأحباب تفسير سورة الكهف من الكتاب) فخرج في أبهى حلة وأروع طلة وأضاف لمكتبة التفسير وعلوم القرآن بحثا جديدا قيما يفيد المتخصص والمبتدئ في هذا العلم.

والمشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها، وأنها من السور التي نزلت جملة ، وقد روي ذلك أيضاً عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

وعدد آياتها (١١٠) عشر ومائة آية. وسبب تسميتها بسورة (الكهف) لما تضمنته من حديث عن أصحاب الكهف، الذين فروا بدينهم من ظلم مَلِكهم .

وجاء في فضل سورة الكهف جملة من الأحاديث نذكر منها ما يلي :

ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: (كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بشَطَنين -الشَّطَن: الحبل- فتغشته سحابة، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال : تلك السكينة تنزلت بالقرآن) .

وما رواه مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال) . (وفي رواية أبي داود) : عُصِمَ من فتنة الدجال . (وفي رواية الترمذي) : من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال .(وفي رواية النسائي في "المنتقى من عمل اليوم والليلة) "من قرأ عشر آيات من الكهف عُصم من فتنة الدجال .

وعند مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال، إلى أن قال : فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف . (وفي رواية أبي داود) : فإنها جواركم من فتنته .

وتضمنت سورة الكهف أربعة قصص يربطها محور واحد وهو الفتن الأربعة في الحياة :

فتنة الدين (قصة أهل الكهف)، فتنة المال (صاحب الجنتين)، فتنة العلم (موسى والخضر)، فتنة السلطة (ذو القرنين).

وهذه الفتن شديدة على الناس والمحرك الرئيسي لها هو الشيطان الذي يزين هذه الفتن ولذا جاءت الآية الكريمة :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) آية ٥٠ .

وقد شرفني الله بمراجعة الكتاب والاطلاع عليه كاملا، وسررت بذلك كثيرا لما حواه من فوائد تعد إضافة قيمة لمكتبة علم التفسير وعلوم القرآن التي تعود بالنفع على المشتغلين بهذا العلم، فجزاها الله خيرا على ما بذلت من جهد ملموس في هذا العمل العظيم، وأسأل الله عز وجل أن يثقل به موازين أعمالها يوم العرض عليه ويوفقها لما يحبه ويرضاه.

كتبه بقلمه الفقير على عفو ربه/ مصطفى بن حنفي القصاص

المقرئ والمجاز بالقراءات الأربعة عشر

مقرئ القراءات العشر بجامعة الشارقة سابقا

ومدرس التجويد والقراءات بمشروع البر لتحفيظ القرآن الكريم بدبي

وعضو شعبة الإقراء بمؤسسة القرآن الكريم والسنة النبوية بالشارقة

الاثنين ٢١ صفر ١٤٣٨ هـ / دبي - الإمارات العربية المتحدة

الختم



التوقيع



مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، فجعله أمنًا لمن تمسك به، وبرهانًا لمن تكلم به، وشاهدًا لمن خاصم عنه، وفهمًا لمن عقل، ولبًا لمن تدبر، وآية لمن توسم، وتبصرةً لمن عزم، وعبرة لمن اتعظ، ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجنة لمن صبر. ونورًا لمن استضاء به، نور به القلوب وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب فأتعبت بلاغته البلغاء وأعجزت فصاحته الفصحاء وأسكتت حكمته الحكماء وأذهلت روعته الخطباء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي أنزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا القائل سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، والصلاة على من جعله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت وطهرهم تطهيرا.

انطلاقًا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث؛ صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له"، حاولت مع جهلي أن أقرأ العديد من التفاسير لأجمع هذا الكتيب المتواضع، وأشهد الله أنني تهيبت كثيرا أن أدخل هذا المحراب المهيب الجليل، وأن أغوص في هذا البحر الزاخر الذي لا ساحل له، وأن أطوف في هذا البستان اليانع الماتع لأتلقط منه أزهار العلم والنور.

استخرت الله سبحانه وتعالى واستعنت به جل وعلا وواصلت الليل بالنهار وأنا أتنقل في بطون الكتب والمجلدات لعلمائنا الأجلاء ولأئمتنا الفضلاء ولسادتنا النجباء فلا أدعي أنني اجتهدت وكتبت شيئا من عندي بل إنما أنا جامعة لهذه الزهور فقط مرددة قول القائل:

أسير خلف ركب القوم ذا عرج.... مؤملا جبر ما لاقيت من عوج
فإن لحقت بهم بعدما سبقوا فكم.... لرب السما في الناس من فرج

وإن ظللت بقفر الأرض منقطعا.... فما على أعرج في ذاك من حرج
فالقرءان هو الحجة البالغة والدلالة الدامغة والعصمة الواقية والنعمة الباقية وهو شفاء الصدور والحكم العدل فيما أحكم وتشابه من الأمور.

ولأن شرف كل علم بشرف موضوعه، وموضوع علم التفسير هو كلام الملك القدير، فهو من أعلى العلوم قدرا وأغلاها مهرا وأسماها معنًى وأعظمها مبنًى وأجلاها بيانًا وأحلاها لسانًا وأقومها قيلًا وأصحها دليلًا وأوضحها سبيلًا. فهو شمس ضحاها وبدر دجاها، فهو معدن كل حكمة ومنبع كل فضيلة وأصل الأصول وطريق الوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة بصحبة الحبيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمنهج هو تفسير القرءان بالقرءان فما أجملهُ القرءان في موضع فسرهُ وبينه في موضع آخر، وما أطلقه في موضع قيده في موضع آخر. فإن لم نجد للآية تفسيرًا في القرءان فبسنة النبي العدنان الذي أنزل الله عليه القرءان، صلى الله عليه وسلم، وإلا فبأقوال الصحابة رضوان الله عليهم الذين هم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله لأنهم عاشوا معه نزول القرءان. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت، أن ربي وهب لي قلبًا عَقولًا ولسانًا سَؤولًا". وقال أيضا: "والله ما من آية في كتاب الله نزلت إلا وأنا أعلم أين نزلت ومتى نزلت وفيما نزلت، ولو أعلم أحدا من أصحاب رسول الله هو أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطايا -أي الإبل- لأتيته". وهذا من تواضعه رضي الله عنه.

وَمِن الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ لِمَنْ تَدَبَّرَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ: أن خَيْرَ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ - فِي الأعْمَالِ وَالأقْوَالِ وَالِاعْتِقَادِ وَغَيْرِهَا مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ - أن خَيْرَهَا الْقَرْنُ الأوَّلُ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ. وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ الْخَلَفِ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ: مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَإِيمَانٍ وَعَقْلٍ وَدِينٍ وَبَيَانٍ وَعِبَادَةٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْبَيَانِ لِكُلِّ مُشْكِلٍ. هَذَا لَا يَدْفَعُهُ إلَّا مَنْ كَابَرَ الْمَعْلُومَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ

الْإِسْلَامِ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ". أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: أَبَرُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا وَأَقَلُّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمْ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ فَاعْرِفُوا لَهُمْ حَقَّهُمْ وَتَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ".

وأبرأ إلى الله – تعالى - من كل ما يخالف هديهم، سواءً في حياتي، أو بعد موتي جزاهم الله عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، سائلة المولى – عز وجلّ - أن يبصّرني بالحق والصواب قولًا وعملًا، وأن يجعل علمي وعملي خالصًا ابتغاءَ مرضاته وابتغاء وجهه سبحانه، لا رياء فيه ولا سمعة، وأن ينفعني به ووالديّ، ومشايخي وكل من اطلع عليه وانتفع به، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

هذا وأدعو طلاب العلم لتدبر كتاب الله وفهم معانيه والعمل بأحكامه والتخلق بأخلاقه وألا ينسوني ووالديَّ ومشايخي من صالح دعواتهم.

ولا يسعني إلا أن أدعو فأقول: جزى الله عنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما هو أهله، وجزى عنا أصحابه الكرام ما هم أهله، وجزى عنا والدينا، وأساتذتنا، ومشايخنا، ومن علمنا، ومن له حق علينا ما هم أهله.

وأثاب الله شيوخي الأفاضل، الشيخ أبو البراء أسامة الأحمدي، والشيخ مصطفى حنفي محمد القصاص، على ما بذلوه من جهد في مراجعة الكتاب، كما وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم وكان عونا لي في إخراج هذا الكتيب وأخص بالذكر الأخت الفاضلة د. أمنية علي. وفق الله المسلمين للعناية بالقرآن والسنة علمًا وعملًا. وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذا الكتيب المتواضع الإسلام والمسلمين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مفيدة محمد زكي أحمد البكري
خادمة
القرآن الكريم والسنة

مدخل

إن علم التفسير هو علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. والحاجة إلى دراسة هذا العلم حاجة ماسة وهو أعظم العلوم وأجلّها قاطبةً. فقد أنزل الله القرآن الكريم ليكون منهجًا للحياة ودستورًا للمسلمين في معاشهم ومعادهم من حين أنزله الله تعالى حتى يرثُ الله الأرض وما عليها، فهو الفلاح والنجاح، وهو شفاءُ لما في الصدور.

ولا بد لنا من قراءة القرآن ومدارسته وتدبر معانيه والاجتماع على ذلك والعمل بما جاء في القرآن الكريم، وذلك بأن نحل حلاله ونحرم حرامه ونقف عند حدوده. ولا يمكن ذلك إلا بمدارسته وتعلم تفسيره ومعرفة معانيه وألفاظه وأسباب نزوله ومعرفة الناسخ والمنسوخ منه.

وقد قال الحافظ ابن كثير في مقدمته: "إن خير ما يُفسر به القرآن بالقرآن". أي أن أفضل التفسير للقرآن يكون بالقرآن نفسه، ثم بالسنة المُطهرة ﴿الحديث الشريف﴾ لأن القرآن جاء مجملًا والسنة مفصلة لما جاء به القرآن الكريم. فإن لم يوجد فبأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وإن من علامة فوز العبد ونجاته وسعادته أن يرتبط بكتاب الله جل وعلا فالله جل وعلا يقول في كتابه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، والارتباط بكتاب الله سبحانه وتعالى تلاوةً وتدارسًا وحفظًا وفهمًا دليلٌ على سعادة العبد وفلاحه. قال الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32].

وقد جعل الله عز وجل تلاوة القرآن والعمل به وفهمه تجارةً رابحةً لا تبور قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29].

فالحمد لله الذي هدانا للقرآن والحمد لله الذي وفقنا للاشتغال به، فإن الاشتغال بالقرآن من أعظم المنن، وهو كرامةٌ من الله عز وجل للعبد.

سورة الكهف سورةٌ عظيمة وجليلة، كان اختياري لها دون غيرها من السور لأسباب:

- السبب الأول: لكثرة قراءة الناس لها، ذلك أن سورة الكهف تقريبًا يقرأها كثيرٌ من الناس أسبوعيًا يوم الجمعة، فهم بحاجةٍ إلى فهم معانيها وتدبر آياتها.

- السبب الثاني: لأن محور السورة عن الفتن وسبب النجاة من الفتن وأعز ما يملك الإنسان بين جنبيه هو الإيمان بالله جل وعلا، ما السبل الواقية من التعرض للفتن؟ وكيف يتعامل الإنسان مع الفتن؟ وما المخرج السليم في التعامل مع الفتن، لا سيما نحن في زمن كثرت فيه التقلبات؛ فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على الحق.

- السبب الثالث: ما حوته هذه السورة الحديث عن القرآن الكريم وبينت هذه السورة في افتتاحها الحديث عن القرآن وفي اختتامها الحديث عن القرآن وفي أثنائها الحديث عن القرآن فما علاقة القرآن بالفتن؟ وكيف يكون المسلم أن يتعامل مع القرآن الكريم؟ وما هو حجم تأثير القرآن في قلوب تاليه ومستمعيه ومتدبريه.

أسماء السورة:

وردَ لهذه السورةِ اسمانِ:

1- سورةُ الكَهفِ:

سُمِّيَت سورةَ الكهفِ لاشتمالِها على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ بتَفصيلِها [1].

1- يُنظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي 297/1.

فعن النَّوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ﴿ذَكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ...﴾، وفيه أن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "فمَن أدْرَكه منكم، فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكهفِ" [2].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضيَ اللهُ عنه، أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ" [3].

واختُلِفَ فيه، فقال بعضُ الرواة: «مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ»، وقال بعضُهم: «مِن آخرِها»، وكلاهما في الصحيحِ، لكنَّ الترجيحَ لِمن قال: «من أوَّلِ سورة الكهفِ»؛ لأن في «صحيح مسلم» من حديث النوَّاسِ بنِ سِمعانَ في قصَّةِ الدجَّالِ: "فإذا رأيتُموه، فاقرَؤوا عليه فواتِحَ سورةِ الكهفِ"، ولم يُختَلَفْ في ذلك، وهذا يدلُّ على أن مَن روى العشرَ مِن أوَّلِ السورة حَفِظَ الحديثَ، ومن روى من آخِرِها لم يحفَظْه. [4]

وهذا الاسم هو الاسم المشهور عن هذه السورة في المصاحف وفي كتب التفسير وفي كتب السنة. ولفظة الكهف جاءت في هذه السورة على طريقين:

- الطريق الأول: جاءت بلفظ "الكهف"، وهذا في أربعة مواضع من هذه السورة.
- والطريق الثاني: جاءت بلفظ "كهفهم" بالإضافة إلى ضمير الغائب وهذا وقع مرتين.

2- سورةُ أصحابِ الكَهفِ: فعن النَّوَّاسِ بن سِمْعانَ رضي الله عنه، قال: "ذكَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ.." وفيه قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "فمَن رآه منكم، فليَقرأْ فواتِحَ سُورةِ أصحابِ الكَهفِ" [5].

2- أخرجه مسلم 2937

3- أخرجه مسلم 809.

4- يُنظر: جلاء الأفهام 324/1، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني 2/ 124، و6/ 314.

5- أخرجه الترمذي 2240، والنسائي في السنن الكبرى 10783. قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2240. والحديث أصله في مسلم 2937 دون لفظة «أصحاب».

وفي تسمية "أصحاب الكهف" تنويه على شرف أولئك القوم وتخليد لذكرهم وتكريم لهم وتفخيم أمرهم.

فضائل السورة وخصائصها:

1- أن قِراءةَ سُورةِ الكَهفِ سَبَبٌ لِنُزولِ السَّكينةِ: فعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: "قرأ رجلٌ الكَهفَ وفي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فجعَلَت تَنفِرُ، فسَلَّمَ، فإذا ضبابةٌ أو سَحابةٌ غَشِيَته، فذكَرَه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: اقرأْ فلانُ، فإنَّها السكينةُ نَزَلت للقُرآنِ، أو تنزَّلَت للقُرآنِ" [6].

2- حِفظُ عَشرِ آياتٍ مِن سورةِ الكهفِ عِصمةٌ مِن الدجَّالِ: فعن النوَّاسِ بنِ سِمْعانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: "ذَكَر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدجَّالَ ذاتَ غَداةٍ..."، وفيه أن رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "فمَن أدْرَكه منكم، فليَقْرأْ عليه فواتحَ سورةِ الكَهفِ" [7].

3- وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "مَن حَفِظَ عَشرَ آياتٍ مِن أوَّلِ سُورةِ الكَهفِ، عُصِمَ مِن الدجَّالِ" [8]. وسببُ قراءةِ عشرِ آياتٍ مِن أوَّل سورةِ الكهفِ على الدجَّالِ، وكونِها عصمةً منه، فيه أوجهٌ:

- منها: ما في قصةِ أصحابِ الكهفِ مِن العَجَبِ والآياتِ، فمَن عَلِمَها لا يَستغرِبُ أمرَ الدَّجالِ، ولا يُفتَنُ به.
- ومنها: أن قولَه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: 2] يُهَوِّن بأسَ الدجالِ.
- وقولَه: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أن لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿2﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 2-3] يُهَوِّنُ الصبرَ على فتنِ الدجالِ بما يُظهِرُ مِن نعيمِه وعذابِه.

6- رواه البخاري 3614، ومسلم 795.
7- تقدم تخريجه.
8- تقدم تخريجه.

- وقولَه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4] وقولَه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:5] يذمُّ فيهما مَن يدَّعي لله ولدًا، ولا مثلَ له، فكيف يدَّعي الإلهيةَ مَن هو مثلٌ للخلقِ. فقد تضمَّنت الآياتُ ما يصرفُ فتنةَ الدجَّالِ، إلى قولِه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ...﴾ [الكهف: 10] فهؤلاء قومٌ ابتُلُوا فصَبَروا وسأَلوا صلاحَ أمورِهم فأُصْلِحت، وهذا تعليمٌ لكلِّ مَدعوٍّ إلى الشِّركِ.
- ومنها: أنَّه قد يكونُ هذا من خصائصِ اللهِ لمن حَفِظ ذلك [9].

4- أنها من السُّورِ العَتيقةِ، ومن قديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ، فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: "سورةُ بني إسرائيل والكهف، ومريم وطه والأنبياء: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِن تِلادي ما أخذْتُه وتعلَّمْتُه بمكةَ" [10].
العِتاق الأُوَل: أي السُّوَر التي أُنزِلت أوَّلًا بمكةَ [11].
من تِلادي: أي مِن أوَّل.

5- أنَّها كُلَّها مُحكَمةٌ: وقد نُقل الإجماعُ على أنَّه ليس فيها مَنسوخٌ لكنْ خالف السُّدِّي وقال: إن فيها آية واحدةً منسوخةً، وهي قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 18]، قال: نسخَها قولُه تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30].
ونَسَبه ابنُ حزمٍ إلى قتادةَ أيضًا. قال أبو الحسنِ السخاوي: والذي قاله باطلٌ، والمرادُ التهديدُ لا التخييرُ، ولو فُرِضَ ما قاله لم يكُنْ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30] مُعارِضًا له [12].
فسورة الكهف هي سورة أمان من أعظم الفتن، وهي في نفس الوقت سورة سكينة عند كل فتنة.

بيان المكي والمدني:

9- يُنظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض 177/3، شرح النووي على مسلم 93/6.
10- ينظر: النهاية لابن الأثير 194/1.
11- يُنظر: النهاية لابن الأثير 179/3.
12- جمال القراء وكمال الإقراء، ص 430.

سورة الكهف سورة مكية، وهذا بإجماع المفسرين من غير خلاف نعلمه، إلا أنه قد روي عن ابن عباس وقتادة أن منها آية مدنية وهي قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].
وممن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبقاعي.[13]

وقيل: مِن أوَّلِها إلى قولِه تعالى: صَعِيدًا جُرُزًا مدنيٌّ.

وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..﴾ إلى آخِرِ السُّورَةِ [107- 110] مدنيٌّ، وباقي السورةِ مكيٌّ[14].

والمَكِّي ما نزل قبل الهجرة، والمدنيُّ ما نزَل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة مثل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فقد نزلت بعرفة عام حجة الوداع. في هذه السورة تصحيح للعقيدة، وللمنهج، وتصحيح للقيم والمفاهيم الخاطئة بميزان هذه العقيدة.

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها، ففي البدء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿1﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿2﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿3﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿4﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 1-5].

مقاصد السورة:

مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ: الهدايةُ إلى العقيدةِ الصحيحةِ، وإلى السلوكِ القويمِ، وإلى الخلقِ الكريمِ، وإلى التفكيرِ السليمِ الذي يهدى إلى السعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ[15].

13- يُنظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي 297/1، مصاعد النظر للبقاعي 240/2.
14- يُنظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 61/1.

فمقصود السورة هو الأمان من كل فتنة، أن يتنزل على قارئها ومتدبرها والعامل بموجبها سكينة يأمن معها من الانسياق وراء أي فتنة. فسورة الكهف هي كهف من يقرأها من الفتن، أمان مما يخشى في كل زمن وخصوصا في زمن الفتن. ولذا كان من ديدن أهل العلم في السلف والخلف أن يقرؤوها في كل جمعة، لأن هذا الأمان يحتاج أن يُجدّد طورًا بعد طور فيدخل الإنسان في كهف هذه السورة ليطلب من الله عزّ وجلّ أن يؤمنه من شر كل فتنة، فإذا تكررت الفتن تكرر الأمان، وكلما ازدادت الفتنة ازداد أمانُه الذي يطلبه من ربه.

ولذلك، كان مما تواتر عن أهل العلم أنهم يكررون سورة الكهف لكن لم يثبت في ذلك حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثبت عن الإمام الشافعي وعن أحمد وعن جماعة من أكابر أئمة أهل الحديث أنهم كانوا يقرؤونها ويحثون على قراءتها في يوم الجمعة لا لأجل أن ذلك ثابت مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فالدليل على قراءتها في يوم الجمعة أنه ثابت عن الأكابر من أئمة أهل العلم، ثبت عن أبي سعيد الخدري وهو عند المحققين من أهل العلم في حكم المرفوع، وأما تقييدها بيوم الجمعة فلم يثبت ذلك لا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة وإنما جاء عن الأكابر من أهل العلم.

موضوعات السورة:

مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:

1- ذِكْرُ حَمدِ الله تعالى على إنزالِه الكتابَ على عَبدِه، ووصفُ هذا الكتابِ بأنَّه قيِّمٌ لا عوجَ فيه، جاء للتبشيرِ والإنذارِ.
2- بيانُ أن ما على ظهرِ الأرضِ هو زينةٌ لها، جعَله الله اختبارًا وابتلاءً.

15- التفسير الوسيط للطنطاوي 8/ 463.

3- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ.
4- ذِكرُ فِتنةِ المالِ بذِكرِ خَبَرِ قِصَّةِ صاحِبِ الجنَّتَينِ.
5- ضَربُ المَثَلِ للحياةِ الدُّنيا بما يدُلُّ على فَنائِها وذَهابِ زُخرُفِها.
6- ذِكرُ شَيءٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ.
7- بيانُ عَداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِه، وفِسقِه عن أمرِ رَبِّه.
8- بيانُ سُنَّةِ اللهِ في إهلاكِ الظَّالمينَ، ورحمةِ اللهِ وإمهالِه للمُذنبينَ إلى أجَلٍ مَعلومٍ.
9- قِصَّةُ موسى عليه السَّلامُ مع العبدِ الصَّالحِ.
10- قِصَّةُ ذي القَرنَينِ.
11- إبطالُ الشِّركِ ووعيدُ أهلِه، وبيانُ ما أعدَّ الله للمؤمنينَ.
12- التَّمثيلُ لِسَعةِ عِلمِ الله تعالى، وبيانُ أن القرآنَ وَحيٌ مِن الله تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم.

يغلب على هذه السورة القصص وضرب الأمثال فذكر الله تعالى فيها أربع قصص:

- قصة أهل الكهف -الفتية.
- قصة صاحب الجنتين. ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس.
- قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر.
- قصة ذي القرنين.

وجميع هذه القصص يربطها محور واحد: أنها تجمع الفتن الأربع في الحياة:

- الفتنة الأولى: هي فتنة الدين متمثلة في قصة الفتية الذين فروا بدينهم.
- الفتنة الثانية: هي فتنة المال متمثلة في قصة صاحب الجنتين.
- الفتنة الثالثة: هي فتنة العلم متمثلة في قصة موسى عليه السلام والخضر.
- الفتنة الرابعة: هي فتنة السلطة متمثلة في قصة ذي القرنين.

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]. وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي.

عدد آياتها:

قال الإمام الداني رحمه الله في عد آيات هذه السورة إن العلماء اختلفوا في عد آيات هذه السورة، فبعضهم عدها بأنها مئة وخمسة، وبعضهم عدها مئة وستة، وبعضهم عدها مئة وعشرة وهو عد الكوفيين الذي كتبت عليه المصاحف الآن مئة وعشرة، وبعضهم عدها مئة وإحدى عشرة آية. وخلافهم يدور في إحدى عشرة آية.

التناسب بينها وبين السورة التي قبلها ﴿سورة الإسراء﴾:

سورة الكهف جاءت بعد سورة الإسراء في الترتيب، وبين السورتين ترابط وثيق يتمثل ذلك في:

1- أن سورة الإسراء افتتحت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].
سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك، لا في الذات، ولا في الأفعال، ولا في الصفات. وسورة الكهف افتتحت بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].
والحمد لله دائمًا هو الشعار الذي أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير الكلمات: "سبحان الله والحمد لله". ودائمًا نقول: سبحان الله وبحمده، فهناك علاقة وطيدة وترابط بين التسبيح والتحميد، لأن الله قرن أمر التسبيح بالتحميد في نفس الوقت، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر: 55].

2- سورة الإسراء اختتمت بالحمد لله وتنزيه الله عزّ وجل عن اتخاذه ولدا، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: 111].
وافتتحت سورة الكهف بإنذار الذين اتخذوا لله ولدا، قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾

[الكهف: 1]

﴿**الْحَمد**﴾ يشترك معه في المعنى العام: ثناء وشُكْر ومدح، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت في المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به، كأن يُسدي إنسان جميلًا لشخص واحد، فيشكره عليه. أما الحمد فيكون على نعمة عامة للجميع، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر، أما المدح فقد يُمدح ما لا يعطي شيئًا، كأن يمدح أحد شكلا جميلا لمجرد أنه أعجبه، الْحَمْدُ هو وصفُ المحمود بالكمال محبة وتعظيمًا، وبقولنا محبةً وتعظيمًا خرج المدح لأن المدح لا يستلزم المحبة والتعظيم. وكلمة الحمد تعني النعم، لأن الإنسان يحمد على النعمة، فكلمة الحمد وحدها تشير إلى أن الإنسان محاط بنعم لا تعد ولا تحصى، يعجز المرء عن إحصائها، فضلًا عن شكرها. والحمد بالألف واللام دالة على الحصر، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله، الحمد المستوعب لكل شيء.

﴿**لِلَّهِ**﴾ هذا اسمٌ عَلَمٌ على الله مُختَصٌّ به لا يوصف به غيره، وهو عَلَمٌ على الذات المقدَّسة تبارك وتعالى.

و﴿الحمد لله﴾ استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن:

1- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

2- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1].

3- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].

4- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: 1].

5- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَّاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ أن اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1].

ولكن لكُلِّ حَمْد في كل سورة حيثية خاصة، فالحمد في الأولى لأن الله ربُّ العالمين، وربٌّ يعني الخالق والمتولي للتربية، خلق من عدم، وتولّى تربية عباده، فهو رَبٌّ لكل العالمين. وفي الثانية: نحمده سبحانه الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، فخلق السماوات والأرض نعمة الإيجاد وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نِعَمه، والظلمات والنور مِنَ نعم الله، وهما متكاملان لا متضادان، فَلِلْظُّلمة مهمة، كما أن للنور مهمة، الظلمة للسكون والراحة، والنور للسعي والحركة، فالحياة لا تستقيم في ظلام دائم، كما أنها لا تستقيم في نور دائم. وفي السورة الثالثة والتي نحن بصددها أراد الحق سبحانه أن يُوضّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربيةً مادية فقط، بل هناك تربيةٌ أعلى من المادة، تربية روحية، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخَلْق الإنسان، خلق ليعرف القيم والرب والدين، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1]. فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذي يجمع كل القيم وإنزال الكتاب شيء يحمد الله عليه. الكتاب نعمة الإرشاد. فخلق السماوات والأرض نعمة الإيجاد، والكتاب نعمة الإرشاد، وربما لا تقل نعمة الإرشاد عن نعمة الإيجاد، وما قيمة وجودنا من دون هدى؟ وما قيمة الهدى من دون وجودنا؟ شيئان متكاملان الإيجاد والهدى.

وقد ذكر الإمام الشافعي رحمه الله أن الله عزّ وجلّ لا يبتدئ سورة من القرآن "بالحمد لله" إلا إذا كان ذلك من أجل تعظيم الله، وتعظيمه هنا بحمده جلّ وعلا، فكل سورة ابتدأت بالحمد فهي من سور تعظيم قدر الله. وتعظيم قدر الله في هذه السور يجيء على وجهين:

1- إما بذكر نعمته سبحانه وتعالى المحسوسة، أو بذكر نعمته المعنوية. إما يكون بنعمة تتعلق بالخلق بالطعام والشراب، بالصحة والعافية ونحو ذلك.

2- وإما تتعلق بالهداية والوحي والعلم ونحو ذلك. وسورة الفاتحة جمعت بين هذين النوعين. وسورة الأنعام اختصت بذكر النعم الحسية في مطلعها. وسورة الكهف اختصت بذكر النعم المعنوية: نعمة الهداية وتنزيل الوحي بهذا الكتاب العظيم. ومن عادة القرآن والسنة أنه إذا اجتمع تسبيح وحمد أن التسبيح يتقدم على الحمد وهذا هو المناسب، كما تقول "سبحان الله والحمد لله" ما تقول الحمد لله سبحان الله، فإن هذا لا يناسب حتى من جهة المعنى وهو بخلاف النصوص لأن التسبيح: التنزيه، والحمد: اعتراف بالكمال ومدحٌ للمحمود فتنزّهه قبل أن تعترف بكماله وتثني عليه. ولذلك تقدمت سورة الكهف بالحمد لله لأنها سورة ثناء في مطلعها، وجاء قبلها في النصف الأول في آخره من القرآن سورة الإسراء والتي هي سورة تسبيح، فخُتم النصف الأول من القرآن بالتسبيح وافتُتح النصف الثاني من القرآن بالحمد وهذا هو المناسب في تسبيح الله عزّ وجلّ وحمده وثنائه جلّ وعلا، فجاءت سورة سبحان متقدمة، وجاءت سورة الحمد تالية، ولذلك نلاحظ أن سورة الإسراء في ختامها ختمت بالحمد، فهي بُدئت بالتسبيح وختمت بالحمد أيضًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111]. ثم تكرر الحمد في مطلع سورة الكهف. يحمد الله سبحانه وتعالى نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها فهو المحمود على كل حال وله الحمد في الأولى والآخرة.

قال تعالى مفتتحًا هذه السورةَ بالثناءِ على نفسِه: الحَمدُ لله الذي أنزل على عَبدِه ورَسولِه مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ [16]. وقولُه تعالى ﴿الْحَمْدُ﴾: هو وصفُ

16- يُنظر: تفسير ابن جرير 140/15، تفسير البغوي 172/3، تفسير السعدي ص: 469.

المحمودِ بالكمالِ محبةً وتعظيمًا. وقال السعدي: الْحَمْدُ لِلَّهِ هو الثناءُ عليه بصفاتِه، التي هي كلُّها صفاتُ كمالٍ، وبنعمِه الظاهرةِ والباطنةِ، الدينيةِ والدنيويةِ، وأجلُّ نِعَمِه على الإطلاقِ إنزالُه الكتابَ العظيمَ على عبدِه ورسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم [17]، وأن القرآن الكريم أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿**على عبده**﴾ يعني مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم وَصَفَهُ تعالى بالعبودية لأنه أعبَدُ البَشَر لله، والعبودية أفضل لقب يلقب به إنسان، أشرف الألقاب التي يلقب به الإنسان لقب عبد الله ولذلك لقب رسوله وخليله محمدا صلى الله عليه وسلم بلقب العبودية في أشرف المقامات:

- لقبه به في مقام التنزيل فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1].

- ولقبه به في مقام الدعوة فقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19].

- ولقَّبه به في مقام التحدي وحالِ الدفاعِ عنهُ صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ أن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

- ولقبه به في مقام الإسراء فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

- وفي حديث الشفاعة كل نبيٍ يرد أهل الموقف إلى من بعده، يردهم آدم إلى نوح، ويردهم نوح إلى إبراهيم، ويردهم إبراهيم إلى موسى ويردهم موسى إلى عيسى، فإذا أتوا عيسى وسألوه الشفاعة قال: لست لها لست لها ولكن اذهبوا إلى محمدٍ، عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

17- ينظر: تفسير السعدي ص: 469. ويُنظر: نظم الدرر للبقاعي 2/12.

﴿الكتاب﴾ أي القرآن الكريم، هو الدستور، هو الغنى الذي لا فقر بعده ولا غنىً دونه.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿1﴾ قَيِّمًا﴾ وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم مستقيم، لم يَجعَلْ فيه أيَّ نَوعٍ مِن المَيلِ والزَّيغِ عن الحَقّ، والتَّناقُضِ والاختِلافِ، والخللِ في ألفاظِه ومَعانيه، فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ. قال العلماء: يجِبُ الوقوفُ على قَولِه: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا؛ لأنك لو وَصَلْتَ لصار في الكلامِ تناقُضٌ، إذ يُوهِمُ أن المعنى لم يكُنْ له عِوَجٌ قَيِّمٌ. 18

ما من كتاب ألّفه بشر إلا وفيه خلل، ونقص، وزيادة، وإيجاز مخل، واضطراب، وتناقض خفي، ومبالغة، إلا كتاب الله عز وجل. مضى على نزول هذا القرآن الكريم أكثر من ألفٍ وأربعمائةِ عام، ومع ذلك لم يظهر في العالم كله حقيقة علمية تبطل بعض آياته، أو تعطل أحكامه، لأنه من عند الحكيم الخبير، كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: 28]. وقال عزَّ وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. وقال سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115].

﴿عِوَجًا. قَيِّمًا﴾ جمع بين الوصفين عوجًا وقيمًا مع العلم أن لهما نفس المعنى أي أنه جعله كتابا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ ولا ميل، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة. و ﴿قيِّمًا﴾ حال من قوله: ﴿الكتاب﴾، يعني: حالَ كونه قَيِّمًا. لماذا لم نجعلها صفة لأن الكتابَ منصوبٌ وَقَيِّمًا منصوب؟ فالجواب: أن قيمًا نَكِرة والكتاب معرفة ولا يمكن أن توصف المعرفة بالنَّكِرَة، ومعنى ﴿قيمًا﴾ أي: مستقيمًا غاية الاستقامة، وهنا ذَكَرَ نَفْيَ العيبِ أولًا ثم إثباتَ الكمال ثانيًا، وهكذا ينبغي أن

18- يُنظر: تفسير ابن جرير 141/15، 142، تفسير ابن عطية 494/3، 495، تفسير ابن كثير 135/5، نظم الدرر للبقاعي 3/12، تفسير السعدي ص: 469، أضواء البيان للشنقيطي 192/3. المكتفى في الوقف والابتدا لأبي عمرو الداني ص: 124، إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري 756/2.

نخلّي المكان من الأذى ثم نضع الكمال، ولهذا يقال: "التخلية قبل التحلية"، يعني قبل أن نُحلِّي الشيء نخلِي المكان عمَّا ينافي التحلي ثم نُحَلِّيه.

﴿قَيِّمًا﴾ أي قيمًا على مصالح الناس، ما من صغيرة، ولا كبيرة إلا أحصاها الله عز وجل في الكتاب. فالأمور التي نحن بحاجة إليها عالجها القرآن، الأمور الأساسية في حياتنا، موضوع الزواج، وموضوع الطلاق، والميراث، وتطهير النفس، وإقبالها على الله عز وجل، العبادات، والأحكام، والأوامر، والنواهي، والوعد، والوعيد، هذا كله على أحسن ما يرام في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]. وقيل: معناه لم يجعله مخلوقًا. وروي عن ابن عباس في قوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28] أي: غير مخلوق. ومن معاني القَيِّم: المهيمن على ما دونه. فالقرآن إذن لا عِوَج فيه، وهو أيضًا مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: 43]، أي: المهيمن على الأديان السابقة.

لماذا جمع الله بين نفي العوج وبين القيم مع إنهما نفس المعنى؟

قال العلماء إن الشيء إذا نظرنا إليه نظنه مستقيما، ولكن لو دققنا النظر لوجدنا فيه بعض العوج لأن الاستقامة والعِوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لنا مدى العِوَج أو الاستقامة، وهذه الظاهرة نراها في الطرق المستوية المرصوفة، والتي نراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تمامًا ومستوية، فإذا ما نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب، لذلك أكّد الاستقامة بقوله: "قَيِّمًا" بعد نفي العوج أن هذا الكتاب مهما دققنا فيه النظر فلم نجد العوج. فهو من أوله إلى آخره مستقيم لا عوج فيه والاستقامة ظاهرة في كل حرف وفي كل لفظ وفي كل خبر لأنه كلام رب العالمين عز وجل وليس كلام البشر المخلوقين. وقيل المراد هنا بالعِوج هو العوج المعنوي أي أن الله عزّ وجلّ ينفي أي عوج في دلالته، في هدايته، في أحكامه، في قصصه فليس فيه أدنى عوج وإنما هو مستقيم. ثم وصف الله عزّ وجلّ هذا الكتاب بقوله "قَيِّمًا" فالوصف الأول هو من قبيل التخلية والوصف الثاني هو من قبيل التحلية فليس الوصفان هنا مكررين، كلا، وإنما الأول يختلف عن الثاني. الأول كمال في الذات، والثاني

كمال في نفع الغير؛ فالأول قاصر والثاني مُتَعَدٍّ. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يمتدح إلى عباده به.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿2﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾
[الكهف: 2-3]

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أنزَلَ على عَبْدِه الكِتابَ المَوصوفَ بهذه الصِّفاتِ المَذكورةِ؛ أردَفَه ببَيانِ ما لأجْلِه أنزَلَه [19]، وهذه هي العِلّة في الإنزال، بيَّن الله تعالى الحكمة من إنزال القرآن في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: 2]. وظيفة هذا الكتاب أنه نذيرٌ وبشيرٌ. كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ [الأنعام: 19].

الضمير في قوله: **﴿لينذر﴾** يحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿عبده﴾ ويحتملُ أن يكون عائدًا على ﴿الكتاب﴾ وكلاهما صحيح، فالكتاب نَزل على الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل أن يُنذِر به، والكتاب نفسُه مُنذِر، ينذر الناس. والإنذار: هو الإخبار بما يُخَوِّف، التخويف بشَرٍّ قادم، والمنْذَر هنا هم الكفار، لأنه لا يُنذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالًا للملَكَة العربية وللذِّهْن أن يعملَ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شيء هكذا على طرف الثُّمام، أي قريبًا سهل التناول.

﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ والبأس هو العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ [الأعراف: 4]، يعني عذابنا. أي عاجل عقوبته في الدنيا وعذابا أليما في الآخرة. وضَخّم العذاب بأنه شديد، ليس ذلك وفقط بل ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي من قِبَلِ الله عز وجل. والعذاب يتناسب مع المعذِّب وقوته، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحدٍ به، ولا مهربَ لأحد منه.

19- يُنظر: تفسير الرازي 423/21.

﴿**وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ التبشير: الإخبار بما يسر، والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل، وهنا نجد أنه حُذِف المَفعول في قوله: ﴿لِيُنْذِر﴾ وذكر المفعول في قوله: ﴿وَيُبَشِّر﴾، ذكر المبشَّر ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب، والبشارة هنا بالأجر الحسن، لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه. كيف نقدر المفعول ب "ينذر"؟ الجواب: نُقدِّرُه في مقابل من يُبَشَّر وهم المؤمنون فيكون تقديره "الكافرين"، وهذه فائدة من فوائد علم التفسير: أن الشيء يُعرَف بذكر قبيله المقابل له، ومنه قوله تعالى: ﴿فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]. "ثبات" يعني "متفرقين" والدليل ذكر المقابل له "أو انفروا جميعًا".

﴿**الْمُؤْمِنِين**﴾ الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب الإيمان به لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّهِ".

﴿**الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**﴾: يفيد أنه لا بدَّ مع الإيمان من العمل الصالح، فلا يكفي الإيمان وحده بل لا بد من عمل صالح، ولهذا قيل لبعض السلف: "أليس مِفتاحُ الجنَّة لا إله إلَّا الله؟" يعني فمن أتى به فُتح له! قال: بلى، ولكن هل يفتحُ المفتاحُ بلا أسنان؟

﴿الذين يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يعملون الأعمال الصالحات. ما هي شروط العمل الصالح أو متى يكون العمل صالحا؟

1- النية الصالحة، فعن أمير المؤمنين ـ أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" [20].

2- الإخلاص لله بأن تكون أعمالنا وأقوالنا خالصة لله عز وجل لا نبتغي بها إلا وجه الله والدار الآخرة. وضد الإخلاص الشرك.

20- متفق عليه.

3- الاتباع لشريعة الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وموافقتنا لهديه في أعمالنا، فكل عمل نقوم به يجب أن يكون تابعًا لهدي رسولنا الكريم، نتبع ما أمرنا به ونجتنب ما نهانا عنه ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. والاتباع ضد الابتداع، إذن البدعة لا تقبل لأنها ليست موافقة للشرع، بل هي ضلالة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" [21]، فمن عمل عملًا على وفق الشريعة ظاهرًا لكن القلب فيه رياء فإنه لا يقبل لفقد الإخلاص، ومن عمل عملًا خالصًا على غير وفق الشريعة فإنه لا يقبل، إذن لا بد من الإخلاص لله، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلَّا لم يكن العمل صالحًا. قال العلماء: ينبغي على كل من عزم على عمل أن يسأل نفسه قبل العمل سؤالين: لما؟ كيف؟ لما نعمل هذا العمل؟؟ الجواب: لله عز وجل. وكيف؟ الجواب: على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته واجتناب ما نهى عنه.

4- أن يكون العامل مؤمنًا.

ثم بيَّن تعالى ما يُبَشَّر به المؤمنون فقال: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أن لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿2﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 2-3].

﴿**أجرًا**﴾ أي ثوابًا، وسمى الله عز وجل ثواب الأعمال أجرًا لأنها في مقابل العمل، وهذا من عدله جلَّ وعلا أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائعَ أجرًا حتى يطمئن الإنسان لضمان هذا الثواب، لأنه معروف أن الأجير إذا قام بعمله فإنه يستحق الأجر.

﴿**حسنًا**﴾: أي الجنة دار الخلد، وثواب الجنة لا يعادله ثواب. ومعنى الآية: وأنزَلَ اللهُ القُرآنَ على نَبيِّه لِيُبَشِّرَ المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه وبِكُلِّ ما يَجِبُ عليهم الإيمان به، وقد صَدَّقوا إيمانَهم بقِيامِهم بالأعمالِ الصَّالِحةِ؛ يُبَشِّرُهم بأنَّ لهم ثَوابًا عَظيمًا جَميلًا، وهو الجنةُ [22].

21- متفق عليه واللفظ لمسلم.
22- يُنظر: تفسير ابن جرير 146/15، تفسير ابن كثير 135/5، تفسير السعدي ص: 470، أضواء البيان للشنقيطي 197/3.

﴿**ماكثين**﴾: أي: والحالُ أنَّهم باقُونَ في الأجرِ الحَسَنِ الذي أعَدَّه اللهُ لهم، بلا زَوالٍ ولا انقِطاعٍ، مقيمين فيه أبدًا، في ثوابهم عند الله وهو الجنة، خالدين فيه أبدا، فلا مرض ولا موت ولا جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، كل شيء كامل من جميع الوجوه. وكان لا بُدّ أن يوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم، وأنهم ماكثون فيه أبدًا، لأن هناك فرقًا بين أجر الناس للناس في الدنيا، وأجر المنعِم سبحانه في الآخرة، لقد أَلِفَ الناس الأجر على أنه جُعِل على عمل، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك. أما أَجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا، فالله تعالى عادل لا يظلم، يعطيك بسخاء لأنه المنصِف المتفضّل، وإنِ انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة، لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل، إما أن تتركه، وإما أن يتركك. ولنعلم أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الجنَّة والنار مخلوقتان الآن، لأن الله ذكر في الجنة "أُعِدَّتْ" وفي النار "أُعِدَّتْ".

وثانيًا: أنهما مؤبدتان لا تفنَيان لا هما ولا من فيهما. وقد جاء هذا في القرآن الكريم، فآيات التأبيد بالنسبة لأصحاب اليمين كثيرة، أما بالنسبة لأصحاب الشمال فقد ذُكر التأبيد في آيات ثلاث: في سورة النساء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿168﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: 168–169]. في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿64﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:64-65]. في سورة الجن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: 23].

ولما كان المكث لا يقتضي التأبيد قال "أبدًا" وهو ظرف دال على زمن غير متناه ونصب ماكثين على الحال من قوله: "أن لهم أجرًا حسنًا" في هذه الحال في حال مكثهم في ذلك الأجر. وذكر الضمير في قوله: "فيه" لأنه راجع إلى الأجر وهو مذكر، وإن كان المراد بالأجر الجنة، خالدين فيه بلا انقطاع، لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: 48]. يقيمون في هذا النعيم لا يفارقونه أبدًا، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وهذا الخلود في الجنة، وهذا الدوام والبقاء هو الذي يسعد أهل الجنة بنعيمها، وطول المكث، وعدم الخروج، لأن الإنسان في الدنيا إذا أنعم الله عليه ووسع عليه في الرزق، وبسط له فيه لا يطمئن، ولا يفرح به الفرح الشديد لأنه

يعلم أن هذا النعيم سيزول، وإنه سيفنى ويموت، فصاحب النعيم في الدنيا في قلق وخوف من الموت وزوال النعيم. أما أهل الجنة، فإنهم إذا دخلوها نودوا مبشرين بالخلود. ورد في الصحيحين وعند أحمد في المسند من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يؤتى بالموت على صورة كبش أملح، فيوضع على سور بين الجنة والنار، ونودي يا أهل الجنة، فيشرئبون ينظرون، ويا أهل النار، فيشرئبون ينظرون، قال: أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، إنه الموت. فيذبح هذا الكبش الذي يمثل الموت، وينادى يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت" [23].

وفي الحديث عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله وأبي سعيد الخدري عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، ناداهم مناد يا أهل الجنة، أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وأن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وأن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا" [24].

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4]

﴿وَيُنذِرَ﴾: مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ﴾، والمعطوفُ يغايِرُ المَعطوفَ عليه، فالأوَّلُ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن استَحَقَّ العذابَ، والثَّاني خاصٌّ بمن أثبَتَ للهِ ولَدًا، وعادةُ القرآنِ جارِيةٌ بأنَّه إذا ذَكَرَ قَضيَّةً كُلِّيَّةً عَطَفَ عليها بعضَ جُزئيَّاتِها، تَنبيهًا على كَونِه أعظَمَ جُزئيَّاتِ ذلك الكُلِّيِّ. فيكون الإنذار هنا غير

23- الراوي: أبو سعيد الخدري - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم :4730 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.
24- الراوي: أبو سعيد الخدري وأبو هريرة - المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم - 8164 :خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الإنذار الأول، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولدًا، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام، كالإيضاح لما أبهم في الآية السابقة، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذابًا يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى، وينذر بعذاب الله الذين قالوا اتخذ الله ولدا وهم اليهود حين قالوا عزير ابن الله، والعزير ليس بنبي ولكنه رجل صالح. والنصارى حين قالوا المسيح ابن الله والمشركون حين قالوا الملائكة بنات الله حيث كانوا يعبدون الملائكة، وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا... وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: 88–92].

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5]

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما للقائِلينَ بذلك أيُّ شَيءٍ مِن العِلمِ بأنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ لنَفسِه ولَدًا، ولا لآبائِهم الجاهِلينَ مِن قَبلِهم الذين قالوا بمِثلِ قَولِهم، فأخبر أولًا أنَّه مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ والقَولُ على اللهِ بلا عِلمٍ: لا شَكَّ في مَنعِه وبُطلانِه، أي ما كان عندهم علم بهذا الكلام، أي بالولد أو بالقول الذي افتروه. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي بهذا القول، ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾، هذه المقولة التي كذبوها على الله من أين أَتَوْا بها؟ الحقيقة أنهم ادعَوْها ولا علمَ لهم بها، والعلم إما ذاتي، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، فإذا انتفى العلم ما بقي إلَّا الجهل.

﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ لا هم ولا آبائهم أي أسلافهم الذين قالوا مثل قولهم، ليس لهم في ذلك علم، ليسَ هناك إلا أوهام ظنوها حقائق وهي ليست علومًا، كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: 157]. وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿69﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: 69-70]. ثم أخبر ثانيًا أنَّه قولٌ قبيحٌ شَنيعٌ، فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5] أسلوب تعجب وتبشيع لما قالوا عن الله تبارك وتعالى بأن له ولد وهم ليس لهم سند ولا دليل وكبرت هنا لاستعظام أمرهم.

﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً**﴾ كلمةً: تمييز والفاعل محذوف والتقدير "كبرت مقالتهم كلمةً". تخرج من أفواههم: أي عَظُمت شناعتها واشتدت عقوبتها وتناهتْ في الإثم، لأنهم تناولوا مسألة فظيعة عظيمة والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا.. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: 88–92] [25]. والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ بأنها كلمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿99﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99-100]. فسمَّى قولهم هذا ﴿كَلِمَةً﴾. ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 64] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة.

﴿**تخرج من أفواههم**﴾ أي: أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلًا، ولو أنهم كتموها في نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا في عداد المؤمنين، بدليل أنه جاءهُ ناسٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسولَ اللهِ، نجدُ في أنفسِنا الشيءَ نعظِّم أن نتكلَّم به – أو الكلامَ به – ما نحبُّ أن لنا، وأنا تكلمْنا به، قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريحُ الإيمانِ [26].

نستفيد من قوله تعالى: ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أن هؤلاء يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم لا يستيقنون أن لله ولدًا، لأن أي عاقل لا يمكن أن يقول إن لله ولدًا، فكيف يمكن أن يكون لله ولدٌ، وهذا الولد من البشر نراه مثلنا يأكل ويشرب ويلبس، ويلحقه الجوع والعطش والحر والبرد، كيف يكون ولدٌ لله تعالى؟ هذا غير ممكن. ثمَّ ذكَر ثالثًا مرتبَتَه مِن القُبحِ، وهو الكَذِبُ المنافي للصِّدقِ، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾. "إن" بمعنى "ما" ومن علامات "إن" النافية أن يقع بعدها "إلّا"، مثل: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 23]، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

25- يُنظر: تفسير ابن جرير 147/15، تفسير ابن كثير 136/5، أضواء البيان للشنقيطي 198/3، قال ابن جرير: فِلجَهْلِهم باللهِ وعَظَمتِه قالوا ذلك. تفسير ابن جرير 147/15.
26- الراوي: أبو هريرة - المحدث: الألباني - أخرجه مسلم 132، وأبو داود 5111 واللفظ له، وأحمد 9145، والنسائي في "السنن الكبرى" 10500 خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿إن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي أن كلامهم باطل وكله أكاذيب لا يستند على دليل. والكذب: هو الخبر المخالف للواقع، والصدق: هو الخبر المطابق للواقع. ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم لِيُخفِّف عنه ما يلاقي من متاعب وعناد وسَفَه في سبيل الدعوة، فيقول تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

[الكهف: 6]

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، فلعلَّك يا مُحَمَّدُ قاتِلٌ نَفسَك ومُهلِكُها، لشِدَّةِ الحزنِ بعدَ تَولِّيهم وإعراضِهم عنك، أن لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ الذي أنزلتُه عليكَ، أي تجهد نفسك في دعوة قومك إجهادًا يُهلكها. يقال: بَخَعَ فلانٌ نفسَه يَبْخَعُهَا بَخْعًا وبُخُوعًا [27].

﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي باتباع آثارهم، لعلَّهم يرجعون بعد عدم إجابتهم وإعراضهم.

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي أن لم يؤمنوا بهذا القرآن. بسبب عدم إيمانهم. وفي الآية إشفاق على رسول الله؛ لأنه حَمّل نفسه في سبيل هداية قومه ما لم يحمله الله، وألزم نفسه بما ما لم يلزمه به، فقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو قومه فيُعرضوا ويتولَّوْا عنه فيُشيّع آثارهم بالأسف والحزن، فكأن رسول الله بحبه لقومه وحِرْصه على هدايتهم يكاد يُهلك نفسه أَسَفًا.

﴿أَسَفًا﴾ فإنّ أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: فلعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث غضبًا. وقال آخرون: جَزَعًا. وقال آخرون: الأسف: الحزن العميق، ومنه قَوْلُ يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]. وقوله تعالى عن موسى لما رجع إلى قومه غاضبًا من عبادتهم العجل: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

27- يُنظر: تفسير ابن جرير 149/15، 151، تفسير الزمخشري 703/2، 704، تفسير ابن كثير 137/5، تفسير الشوكاني 320/3، تفسير السعدي ص: 470.

[طه: 86]. ﴿أَسَفًا﴾ مفعول لأجله، العامل فيه: ﴿بَاخِعٌ﴾. المعنى أنه لعلك باخعٌ نفسك من الأسف إذا لم يؤمنوا بهذا والله يقول له: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8]. ولا يصِبْك الحزن والهم لأن الله تبارك وتعالى عليم بما يصنعون. فسلّاه الله وبيّن له أنه ليس عليه من عدم استجابتهم من شيء، وإنما عليه البلاغ، ولم يُكلّفه من أمر الدعوة ما لا يطيق. ففي الآية مظهر من مظاهر رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم. فمهمة الرسول البلاغ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40]، وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ. وأما الهداية فبيد الله تعالى. يقول الله جل شأنه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ خبرٌ مِن الله تعالى أنَّه حمِد نفسَه، وفي ضمنِه إرشادُ العبادِ ليحمَدوه على إرسالِ الرسولِ إليهم، وإنزالِ الكتابِ عليهم.

2- قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا. قَيِّمًا﴾ ذكَرَ نَفيَ العَيبِ أوَّلًا، فقال: "وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا" ثمَّ إثباتَ الكَمالِ ثانيًا، فقال: قَيِّمًا، "فالتَّخليةُ قَبلَ التَّحليةِ"، يعني: قبل أن تُحَلِّيَ الشَّيءَ أخْلِ المَكانَ عَمَّا يُنافي التحَلِّيَ، ثُمَّ حَلِّه.[28]

3- قولُه تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا بدَّ مع الإيمان مِن العَمَلِ الصَّالحِ، فلا يَكفي الإيمان وَحْدَه، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِحٍ؛ ولهذا قيلَ لبَعضِ السَّلَفِ: أليس مِفتاحُ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟ يعني: فمَن أتى بها فُتِحَ له، قال: بلى، ولكِنْ هل يَفتحُ المِفتاحُ بلا أسنانٍ؟! [29]

4- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ بَيَّنَت المرادَ به آيات أُخَرُ، فدلَّت على أن العَمَلَ لا يكونُ صالِحًا إلَّا بثلاثةِ أُمورٍ:

28- يُنظر: تفسير السعدي ص: 469.
29- الأثرُ علَّقه البخاريُّ في صحيحه عن وهبِ بنِ منبِّهٍ في كتاب الجنائز، الباب الأول قبل حديث رقم 1237.

الأوَّلُ: أن يكونَ مُطابِقًا لِما جاء بـه النَّبـيُّ صـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّم؛ فكُـلُّ عَمَـلٍ مُخالِفٍ لِما جاء به صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فليس بصـالحٍ، بـل هـو باطِـلٌ؛ قـال تعـالى: ﴿وَمَـا آتَـاكُمُ الرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ﴾ [الحشـر: 7]، وقـال: ﴿مَـن يُطِـعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآيات.

الثَّاني: أن يكونَ العامِلُ مُخلِصًا في عملِه لله فيما بينَـه وبـينَ اللهِ، قـال تعـالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ﴾ [البينـة: 5]، وقـال: ﴿قُـلْ إِنِّـي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الـدِّينَ ﴿11﴾ وَأُمِـرْتُ لِأَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ الْمُسْـلِمِينَ ﴿12﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّـي عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِـيمٍ ﴿13﴾ قُـلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿14﴾ فَاعْبُدُوا مَـا شِـئْتُم مِّـن دُونِـهِ﴾ [الزمـر: 11-15]، إلـى غيرِ ذلك مِنَ الآيات.

الثَّالِثُ: أن يكـونَ العمـلُ مَبنيًّـا علـى أسـاسِ الإيمـان والعَقيـدةِ الصَّـحيحةِ لأن العملَ كالسَّقفِ، والعَقيدةَ كالأساسِ. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَـرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: 97]، فجعل الإيمان قَيدًا في ذلك.[30]

5- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَـى آثَـارِهِمْ إِن لَّـمْ يُؤْمِنُـوا بِهَـذَا الْحَـدِيثِ أَسَفًا﴾ في هذه الآية ونَحوِها عِبـرةٌ فـإنَّ المـأمورَ بـدُعاءِ الخَلـقِ إلـى اللهِ عليـه التَّبليغُ والسَّعيُ بكُلِّ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى الهداية، وسَدِّ طُرُقِ الضَّـلالِ والغَوايـة، بغاية ما يُمكِنُه، مع التوكُّلِ على اللهِ في ذلك، فـإن اهتَـدَوا فبهـا ونِعْمَـتْ، وإلَّا فلا يَحزَنْ ولا يأسَفْ؛ فإنَّ ذلك مُضعِفٌ للنَّفسِ، هادِمٌ للقُوَى، ليس فيـه فائِـدةٌ، بل يَمضِي على فِعْلِه الذي كُلِّفَ به وتَوَجَّه إليه، وما عدا ذلك فهو خارِجٌ عـن قُدرتِه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ اللهُ لـه: ﴿إِنَّـكَ لَا تَهْدِي مَـنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: 56]، وموسى عليه السَّلامُ يقولُ: ﴿رَبِّ إِنِّـي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: 25] الآية ، فمَن عداهم مِن بابِ أَولـى وأَحـرى؛ قـال

30- ينظر: أضواء البيان للشنقيطي 196/3.

تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿21﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21-22]. [31]

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ارتباطُ هذه الآيةِ بما قبْلَها هو على سَبيلِ التَّسليةِ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لأنه تعالى أخبَرَ أنَّه خلَقَ ما على الأرضِ من الزِّينةِ للابتلاءِ والاختبارِ، أيُّ النَّاسِ أحسَنُ عملًا، فليسوا على نمَطٍ واحدٍ في الاستقامةِ واتِّباعِ الرُّسلِ، بل لا بُدَّ أن يكونَ فيهم مَن هو أحسَنُ عمَلًا، ومَن هو أسوَأُ عملًا، فلا تغتَمَّ وتحزَنْ على مَن فُضِّلْتَ عليه بأنَّه يكونُ أسوَأَ عملًا، ومع كونِهم يكْفُرون بي لا أقطَعُ عنهم موادَّ هذه النِّعمِ الَّتي خلقْتُها. [32]

وأيضًا فهي تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ على إعراضِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ أمهَلَهم وأعطاهم زِينةَ الدُّنيا، لعَلَّهم يَشكُرونَه، وأنَّهم بَطِروا النِّعمةَ، فإنَّ اللهَ يَسلُبُ عنهم النِّعمةَ فتَصيرُ بلادُهم قاحِلةً، ولهذا اتِّصالٌ بقَولِه تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ [الكهف: 2]. [33]

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: يبين الله هنا حكمة الخلق وحكمة الإيجاد فيقول إنا جَعَلْنا ما على وَجهِ الأرضِ من الحيواناتِ والنباتِ والجمادِ زِينةً لها، فجعَلَ اللهُ تعالى الدنيا مُستطابةً في ذَوقِها، مُستَحسَنةً في مَنظَرِها وزُخرُفِها وجعلها

31- ينظر: تفسير السعدي ص 470.
32- ينظر: تفسير أبي حيان 139/7.
33- يُنظر: تفسير ابن عاشور 256/15.

دارًا فانية مزينة بزينة زائلة. قال الواحدي: قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ بما عليها مِن الماءِ والنباتِ والأشجارِ، والمعادنِ مِن الذهبِ والفضةِ وأنواعِ الجواهرِ، ويدخلُ في هذا كلِّه ما على الأرضِ مِن ذي الرُّوحِ والجمادِ [34]. وقيل: سَواءٌ أكانت هذه الزينةُ فيما خلَقه الله عزَّ وجلَّ وأوجَده، أم مما صنَعه الآدميُّ. وقيَّد بعضُ المفسِّرينَ قولَه تعالى: ﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ بما يصلُحُ أن يكونَ زينةً لها، ومنهم: الزمخشري، وابنُ جزي، والشوكاني[35]. وممن اختار العمومَ: القرطبيُّ، فقال: والزِّينةُ كلُّ ما على وجهِ الأرضِ، فهو عمومٌ؛ لأنه دالٌّ على بارِئِه... والقولُ بالعمومِ أولَى، وأنَّ كلَّ ما على الأرضِ فيه زِينَةٌ مِنْ جِهَةِ خَلْقِه وصُنْعِه وإحْكامِه [36]. كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]. وقال عزَّ وجل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 8].

﴿**إنا جعلنا**﴾ أي صَيَّرنا، وجعل تأتي بمعنى: خلق وبمعنى صيَّر. ﴿**جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا**﴾ هنا جعل بمعنى صَيَّر فالمفعول الأول "ما" والمفعول الثاني "زينة"، كل ما على الأرض هو زينة، والزينة هي الزخرف الذي يبرق أمام الأعين فيغريها، ثم ينـدثر ويتلاشى، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45] وهي دار اختبار وابتلاء وامتحان ليمتحن الناس فيها لا دار قرار. وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أن رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "أخوَفُ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ اللهُ لكم مِن زَهرةِ الدُّنيا، قالوا: وما زَهرةُ الدُّنيا يا رسولَ اللهِ؟ قال: بَرَكاتُ الأرضِ" [37]. وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، عن

34- الوسيط 136/3.
35- يُنظر: تفسير الزمخشري 704/2، تفسير ابن جزي 459/1، تفسير الشوكاني 320/3.
36- تفسير القرطبي 354/10. ويُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 203/3.
37- رواه البخاري 6427، ومسلم 1052 واللفظ له.

النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إنَّ الدُّنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ،[38] وإنَّ اللهَ مُستَخلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛ فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ" [39].

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾: ثمَّ بيَّن الله تعالى الحكمةَ في خلقِ الأرضِ وزينتِها، فقال ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي نختبرهم. البلاء يعني: الاختبار والامتحان. وليس المصيبة كما يظن البعض، لأن المصيبة تكون على مَنْ يخفِق في الاختبار، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بأمرهم وما سيحدث منهم مُسْبقًا، ولكن لنعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع. إذن معنى ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي: بلاء شهادة منهم على أنفسهم، هل يتعلقون بهذه الزينة أم يتعلقون بالخالق؟ الناس ينقسمون إلى قسمين؛ منهم من يتعلق بالزينة ومنهم من يتعلق بالخالق. قال تعالى مبينًا هذا الأمر: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿75﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ أن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175–176]. إذن جعل الله الزينة لاختبار العباد، سَواءٌ أكانت هذه الزينة فيما خلقه الله عز وجل وأوجده، أم مما صنعه الآدمي، فالقصور الفخمة المزخرفة زينة ولا شك، ولكنها من صنع الآدمي، والأرض بجبالها وأنهارها ونباتها، وإذا أنزل الله الماء عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، هذه زينة من عند الله تعالى. إذن حكمة الله في إيجاد الخلق وفي خلق الكون إنما ليمتحن الناس ويميز الخبيث من الطيب ولنعلم أن هذه الدنيا فانية وزائلة ومنقضية وذاهبة لا محالة.

﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الضمير يعود للخلق، ولنتأمل قوله تعالى: "أَحْسَنُ عَمَلًا" ولم يقل: "أكثر عملًا" لأن العبرة بالأحسن لا بالأكثر، لِنَختَبِرَ

38- حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفَها بالخَضِرَة؛ لأن العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخضْرَواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: المعلم بفوائد مسلم للمازري 33/2، مرقاة المفاتيح للقاري 2044/5.

39- رواه مسلم 2742.

النَّاسَ: أيُّهم أصلَحُ عَمَلًا أي: أخلَصُه لله، وأصوَبُه مِن جِهةِ مُوافَقتِه للشَّرعِ وأزهدُ في زينةِ الدُّنيا [40].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14]. وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]. وقال عزَّ وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]. وعلى هذا لو صلى الإنسان أربع ركعات لكنْ على يقين ضعيف أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية فأيهما أحسن؟ الثاني بلا شك أحسن وأفضل، لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصًا ومتابعة. في بعض العبادات، الأفضل التخفيف كركعتي الفجر مثلًا، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها في قراءة القرآن وفي الركوع والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 8]

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾: أي: وإنَّا لمُصَيِّرونَ ما على وَجهِ الأرضِ مِن زِينتِها تُرابًا مُستَويًا خاليًا، يابسًا لا نباتَ فيه، ولا ماءَ ولا بِناءَ.

﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: الصعيد هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض، لا نباتَ فيها ولا شجر. والجرز هي الأرض السوداء الجرداء التي لا زرع فيها ولا ماء، خالية من النبات، وقد يكون بها نبات، إلا أن الجراد أكله أو جاءته جائحة أهلكتْه، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: 27]. يقول الله تعالى إن

40- يُنظر: تفسير البغوي 172/3، تفسير الخازن 153/3، تفسير ابن عادل 428/12، تفسير السعدي ص: 471.

مصير هذه الدنيا من بعد الزينة هي الخراب والدمار وكل شيء هالك. هذه الأرض بزينتها، بقصورها وأشجارها ونباتها، سوف يجعلها الله تعالى ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي خاليًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105]، أي نسفًا عظيمًا ولهذا جاء مُنَكَّرًا، قال تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿106﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 106-107]. وبلحظة: كن فيكون! إذن هذه الأرض زائلة، هي ستصير كأن لم تكن كما قال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: 24].

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ فيها مُؤكِّدان، "إنَّ" و"اللام"، ثم إنها جاءت بالجملة الاسمية الدالة على القدرة المستمرة، إذا قامت القيامة أين القصور؟ لا قصور، لا جبال، لا أشجار، الأرض كأنها حجر واحد أملس، ما فيها نبات ولا بناء ولا أشجار ولا غير ذلك، سيحولها الله تعالى "جُرُزًا" خالية من زينتها التي كانت عليها. يقال: أَجْرَزَ القومُ إذا صارت أرضهم جُرُزا، وجَرَزوا هم أرضَهُم: إذا أكلوا نباتها كله [41]. قال المفسِّرون: وهذا يكونُ يومَ القيامة؛ يجعَلُ اللهُ الأرضَ مُستَويةً لا نباتَ فيها ولا ماءَ. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن الله يهلك كل شيء ويبيد الأرض وستعود الأرض صعيدا جرزا قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها. هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت. وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه، فإنه يتناول منها ما يستعين به على ما خلق له وانتهز الفرصة في عمره، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه

41- يُنظر: تفسير ابن جرير 153/15، تفسير ابن كثير 137/5، تفسير القاسمي 7/7، تفسير السعدي ص: 471، تفسير ابن عاشور 258/15، أضواء البيان للشنقيطي 203/3.

وتنفيذ أوامره وإحسان العمل فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين. وقال صلى الله عليه وسلم: "من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قدر له"[42]. وهنا يحثنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بأن نجعل الآخرة أكبر همنا وأن نحرص عليها وذلك لا يمنعنا من التمتع بطيبات الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32].

﴿أم حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

[الكهف: 9]

في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله تعالى عن قصه أصحاب الكهف، وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي.

﴿أَمْ﴾ منقطعة، بمعنى "بل" حرف من حروف العطف، ويفيد الإضراب عَمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16].

42- أخرجه الترمذي من رواية أنس رضي الله عنه وصححه الألباني.

﴿حَسِبْتَ﴾ بمعنى ظننتَ، هنا أتى ب "أم" المنقطعة التي تتضمن الاستفهام من أجل شد النَّفس إلى الاستماع إلى القصة لأنها حقيقة عَجب، أي: أظنَنْتَ يا مُحمَّدُ أن أصحابَ الكَهفِ والكِتابِ[43] كانوا مِن آياتنا العَجيبةِ؟ لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير. تعد هذه القصة دليلًا على الكرامات، الأنبياء يأتون بالمعجزات، أما الأولياء فيأتون بالكرامات، وبما أن أهل الكهف ليسوا أنبياء فهم مؤمنون، فهذا الذي جرى بحقهم نوع من أنواع الكرامات. والعلماء قالوا: الكرامات على نوعين: نوع فيها خرق لما ألفه الناس، ونوع ليس فيه خرق لما ألفه الناس، أما أن يبقى الإنسان حيًا ثلاثمئة عام! فهذا خرق لمألوف العادات، إذن هذه كرامة لهم، أن يحفظ الله أجسامهم من التلف، ومن التفسخ، فهذه كرامة لهم، وأما الكرامات التي ليس فيها خرق للعادات، فهي كرامة العلم والحكمة.

43- ممَّن اختار أن المرادَ بالرقيمِ: الكتابُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، يُنظر: تفسير ابن جرير 161/15، تفسير ابن كثير 139/5، تفسير السعدي ص: 471، تفسير ابن عاشور 260/15، أضواء البيان للشنقيطي 206/3، وأيضا ابنُ عباسٍ في رواية عنه، وسعيدُ بنُ جُبير، وابنُ زيدٍ. يُنظر: تفسير ابن جرير 159/15. قال ابنُ عاشور: الرَّقيمُ: كتابٌ كان معَ أصحابِ الكهفِ في كهفِهم. قيل: كَتَبوا فيه ما كانوا يدينونَ به من التوحيدِ، وقيل: هو كتابُ دينِهم؛ دينٍ كان قبلَ عيسى عليه السلامُ. وقيل: هو دينُ عيسَى. وقيل: كَتَبوا فيه الباعِثَ الذي بعَثَهم على الالتجاءِ إلى الكهفِ فِرارًا مِن كُفرِ قَومِهم. تفسير ابن عاشور 260/15. وقال الشنقيطي: أظهَرُ الأقوالِ عندي بحسَبِ اللغةِ العربيَّةِ وبَعضِ آيات القرآنِ: أن الرقيمَ معناه: المرقومُ، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» من: رقَمْتُ الكتابَ: إذا كتبْتَه، ومنه قوله تعالى: كِتَابٌ مَرْقُومٌ [المطففين: 9] سواءٌ قُلنا إن الرقيمَ كتابٌ كان عندهم فيه شَرعُهم الذي تمسَّكوا به، أو لوحٌ مِن ذهَبٍ كُتِبَت فيه أسماؤُهم وأنسابُهم وقِصَّتُهم وسبَبُ خُروجِهم، أو صخرةٌ نُقِشَت فيها أسماؤهم. والعلمُ عند الله تعالى. والظاهِرُ أن أصحابَ الكَهفِ والرَّقيمِ: طائفةٌ واحِدةٌ أضيفَت إلى شيئينِ أحَدُهما معطوفٌ على الآخرِ. أضواء البيان 206/3. وقيل: الرقيمُ: اسمُ الجبلِ الَّذي فيه كهفُهم، عن ابنُ عباسٍ في رواية عنه، والحسنُ، وعطيةُ في رواية عنه. يُنظر: تفسير ابن جرير 159/15، وقيل: الرقيمُ: اسمُ الوادي الذي فيه الكهفُ، عن ابنُ عباس في رواية عنه، وعطيةُ في رواية عنه، وقتادةُ، والضحاكُ. يُنظر: تفسير ابن جرير 158/15، وقال كعبٌ: هو اسمُ القريةِ التي خرَجوا منها. يُنظر: تفسير ابن جرير 158/15.

﴿**الكهف**﴾: هو الغار الواسع أو الفجوة في الجبل. ويقال النقب الواسع في الجبل يسمى كهفا، وان كان ضيقا يسمى غارًا [44].

﴿**والرقيم**﴾: بمعنى المرقوم، أي المكتوب، لأنه كتب في حجر على هذا الكهف قصتُهم من أولها إلى آخرها. وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف. وأصح ما جاء في تفسير الرقيم أنها لوحة معدنية أو حجر من الرخام كتب عليه أسماء أصحاب الكهف [45].

﴿**كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ أي أصحاب الكهف والرقيم كانوا محل تعجب واستغراب من آيات الله الكونية؟ يخاطب الله جل وعلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، "أم حسبت" أي يا محمد أن أصحاب الكهف أمرهم عجبٌ بالنسبة لآياتنا من اختلاف الليل والنهار وخلق السماوات والأرض وغيرها من الآيات الكونية الدالة على عظمة الله تعالى، ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا. قال ابن عباس: الذي آتيتك من العلم والسنّة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. أصحاب الكهف سبعةٌ معهم كلب كرهوا ما عليه أهل بلدهم من الشرك فخرجوا متَّجهين إلى الله يريدون أن ينجوا بأنفسهم مما كان عليه أهل بلدهم، فلجأوا إلى هذا الغار، وكان من حسن حظهم أن هذا الغار له باب لا يتَّجه للمشرق ولا للمغرب، سبحان الله! توفيق، لأنه لو اتجه إلى المشرق لأكلتهم الشمس عند الشروق، ولو اتجه إلى المغرب لأكلتهم عند الغروب. كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17].

44- يُنظر: مقاييس اللغة لابن فارس 144/5، المفردات للراغب ص: 727، تفسير الشوكاني 322/3.

45- يُنظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص: 263، تفسير ابن جرير 324/10، غريب القرآن للسجستاني ص: 239، مقاييس اللغة لابن فارس 425/2، البسيط للواحدي 535/13، التبيان لابن الهائم ص: 271.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبلَها:

لَمَّا صَغَّر اللهُ تعالى أمْرَهم بالنِّسبةِ إلى جَليلِ آياته، وعَظيمِ بيِّناتِه، وغَريبِ مَصنوعاتِه؛ لَخَّصَ قِصَّتَهم التي عَدُّوها عَجَبًا، وتَرَكوا الاستِبصارَ على وحدانيَّةِ الواحِدِ القَهَّارِ، بما هو العجَبُ العَجيبُ، والنَّبأُ الغَريبُ،[46] فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الْكَهْفِ﴾، قصة أصحاب الكهف تعرض نموذجا للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة، وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة، فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن. وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات، ملخصها: أن قريشا بعثت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره، فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبيٌ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّلٌ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من خبرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوَّافٍ طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره؟ وسلوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو

46- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 17/12.

نبيٌّ فاتبعوه، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا، ثم سألوه عما قالته لهم يهود، وقد كان عليه الصلاة والسلام لم يقرأ الكتب، قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سأجيبكم غدا بما سألتم عنه" ولم يستثن، أي لم يقل إن شاء الله، فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها، لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أَحْزَن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف، وقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ يخبرنا الله تعالى عن هؤلاء الفتية أنهم فروا بدينهم من قومهم فلجأوا إلى غار في جبل ليتخفوا فيه من قومهم. "إذ أوى" متعلق بمحذوف تقديره: "اذكر إذ أوى الفتية". "أَوَى" من المأوى، وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه. "الفتيةُ" جمع فتى، وهو الشاب في مُقْتبل العمر الكامل القوة والعزيمة، والشباب هم مَعْقِدُ الآمالِ في حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب. ﴿إِذْ أَوَى الفِتيةُ إلى الكهفِ﴾ أي لجأوا إلى الكهف فارين من قومهم مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون، خوفًا أن يصيبهم ما أصاب قومهم من الشرك والكفر بالبعث، فرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أيِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة، لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات، بل يعلمون أن لهم ربًا سيتولى أمرهم لذلك تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43]،

تضرَّعوا إليه قائلين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، لجأوا إلى الله.

﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي أعطنا من عندك، أي هب لنا رحمة من عندك، أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة، فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله، وهذا كقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه حين قال له أبو بكر: عَلِّمْنِي دُعاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي، قَالَ: "قُلِ اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم"[47].

﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾: وأعِدَّ لنا أسبابًا وأحوالًا تكونُ عاقِبَتُها حُصولَ ما خَوَّلْتَنا مِن الثَّباتِ على الحَقِّ، والنَّجاةِ من المُشرِكينَ، وحُصُولَ العِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ به، فيكونُ أمرُ دِينِنا ودُنيانا صالِحًا مُوافِقًا للصواب[48]. اجعل لنا ويَسِّر لنا طريقًا سديدًا للخير وللحق، وتهيئة الشيء أن يُعد ليكون صالحًا للعمل به.

﴿مِنْ أمرِنا رَشَدًا﴾: الرشد: ضد الغَيّ، أي اجعل شأننا موافقًا للصواب وقدر لنا من أمرنا رشدا واجعل لنا من عاقبتنا رشدا، كما جاء في الحديث الشريف: "وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا"[49].
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله ويقول: "اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة"[50].

47- متفق عليه.
48- يُنظر: تفسير ابن جرير 161/15، 162، تفسير ابن كثير 139/5، تفسير السعدي ص: 471، تفسير ابن عاشور 266/15.
49- صحيح الأدب المفرد للألباني.
50- رواه مسلم. الراوي: عمر بن الخطاب. المحدث: ابن حجر العسقلاني. المصدر: تخريج مشكاة المصابيح. الجزء أو الصفحة: 32/3.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11]

﴿**فضربنا على آذانهم**﴾ أي: فألقَيْنا عليهم نَوْمًا ثَقيلًا عَميقًا لسِنينَ ذواتِ عَدَدٍ كثيرٍ وغطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجي، والضرب على آذانهم هو الرحمة التي دعوا الله بها وطلبوها، وقد اختار الله سبحانه الضرب على آذانهم؛ لأن حاسة السمع هي أول الحواس عملًا في الإنسان، وهي أول آلة إدراك تُؤدّي مهمتها في الطفل، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]. هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان، فلو وضع أحدنا أصبعه أمام عين الطفل المولود لرآه لا يرمش، لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام، أما لو صرخ في أُذنه فإنه ينتبه فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته، وكذلك فالأذن تمتاز أيضًا بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم، وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف، وهو فَجْوة في جبل في صحراء وهي عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم، لذلك عطّل حاسة السمع عندهم، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة نومة عميقة سنين عددا بحيث لا يسمعون.[51] والنوم نوعان: نوم خفيف: وهذا لا يمنع السماع، ولهذا إذا نمنا فأول ما يأتينا النوم نسمع مَن حولنا. ونوم عميق: إذا نمنا النوم العميق لا نسمع مَن حولنا.

﴿**سِنِينَ عَدَدًا**﴾ أي معدودة، وسيأتي بيانها في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25] وفسرها

51- يُنظر: تفسير ابن جرير 176/15، تفسير القرطبي 363/10، تفسير ابن كثير 139/5، تفسير السعدي ص: 471، تفسير ابن عاشور 268/15، أضواء البيان للشنقيطي 207/3.

الشعراوي رحمه الله قائلا: معنى عددًا أي: سنين كثيرة، لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي ثمَّ أيقَظْناهم مِن نَوْمِهم الطويل - بعدَ مُضِيِّ تلك السِّنينَ الكَثيرةِ - لنعلمَ علمًا يَظهرُ الحقيقةُ للناس [52]، أيُّ الفَريقَينِ المُختَلِفَينِ في مِقدارِ نَومِهم في الكَهفِ، قيل: هما فَريقانِ مِن أصحابِ الكَهفِ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الشنقيطي [53]. ويحتملُ أن الحِزبَينِ مِن أهلِ زمانِهم، فاختلفوا فيهم مَنْ أضبَطُ وأتقَنُ في حِسابِ تلك المُدَّةِ [54]، وسمى الله الاستيقاظ من النوم بعثًا لأن النوم وفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى

52- قال الشِّنقيطي: معنى لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أي: نعلمَ ذلك عِلمًا يُظهِرُ الحقيقةَ للنَّاسِ، فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبلَ ذلك دونَ خَلْقِه. أضواء البيان 210/3. ويُنظر: تفسير ابن جزي 460/1.

53- يُنظر: أضواء البيان 208/3.

54- يُنظر: تفسير الزمخشري 705/2، نظم الدرر للبقاعي 12/19- 20. قال ابن عاشور: فالوجهُ: أن المرادَ بالحزبيْنِ حِزبانِ مِنَ النَّاسِ؛ أهلِ بَلَدِهم اخْتَلَفَتْ أقوالُهم في مُدَّةِ لُبْثِهم بعدَ أن علموا انبعاثَهم مِنْ نومَتِهم، أحدُ الفريقينِ مصيبٌ والآخَرُ مخطِئٌ، واللَّهُ يعلمُ المصيبَ منهم والمخْطِئَ، فهما فريقانِ في جانِبَيْ صوابٍ وخطأٍ كما دلَّ عليه قولُه: أَحْصَى. تفسير ابن عاشور 269/15. وقيل: المرادُ بالحزبينِ: أصحابُ الكهفِ، والحزبُ الثاني هم أهلُ المدينةِ الذين بُعِثَ الفتيةُ على عهدِهم. وهذا الذي استَظْهَره القرطبي، ونسَب القولَ به إلى جمهورِ المفسِّرينَ، واختاره ابنُ جزي. يُنظر: تفسير القرطبي 364/10، تفسير ابن جزي 460/1.

أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42]. فالنوم وفاة.

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ والمراد بالحزبين هنا: يعني الطائفتين أو الفريقين من الناس الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم، لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديرًا صائبًا.

﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ يعني أبلغ إحصاءً، وليست فعلًا ماضيًا بل اسم تفضيل فصار المعنى: أي الحزبين أضبط لما لبثوا أمدًا، والأمد: هو المدة وعدد السنين أي: المدة التي لبثوها؛ لأنهم تنازعوا أمرهم فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. وقال آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ثم الناس من بعدهم اختلفوا كم لبثوا. وعلى أرجح التفسير والله تعالى أعلم أن الفتية أنفسهم لما بعثهم الله تعالى من نومهم انقسموا إلى حزبين على أنفسهم، وسألوا بعضهم كم لبثتم فأجابوا بعضهم البعض: لا فائدة من معرفة كم لبثتم ففوضوا أمرهم إلى الله والله أعلم كم لبثتم.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿أم حَسِبْتَ أن أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آياتنَا عَجَبًا﴾ فيه لفتٌ للعقولِ عن الاشتغالِ بعجائبِ القصصِ إلى أن الأوْلَى الاتِّعاظُ بما فيها مِن العبرِ والأسبابِ وآثارِها ولذلك ابْتُدِئَ ذكرُ أحوالِهم بقولِه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فأعْلَمَ النَّاسَ بثباتِ إيمانِهم باللَّهِ ورَجائِهم فيه، وبقولِه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.. الآياتِ، الدَّالِّ على أنَّهم أبْطَلوا الشِّرْكَ، وسَفَّهوا أهلَه؛ تعريضًا بأنَّ حقَّ السَّامِعينَ أن يَقْتَدوا بهُداهم [55].

2- قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، هذه الآية صَريحةٌ في الفِرارِ بالدِّينِ، وهِجرةِ الأهلِ والبَنينَ، والقَراباتِ والأصدقاءِ، والأوطانِ

55- يُنظر: تفسير ابن عاشور 259/5.

والأموالِ، خَوفَ الفِتنةِ وما يَلْقاه الإنسان مِن المِحنةِ، وقد خرج النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فارًّا بدِينِه وكذلك أصحابُه، وجلس في الغارِ. وقد نَصَّ اللهُ تعالى على ذلك في سورةِ التَّوبة، وهَجَروا أوطانَهم، وتَرَكوا أرْضَهم وديارَهم، وأهاليَهم وأولادَهم، وقَراباتِهم وإخوانَهم، رجاءَ السَّلامةِ بالدِّينِ، والنَّجاةِ مِن فِتنةِ الكافرينَ [56].

3- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، جَمَعوا بين السَّعيِ والفرارِ مِن الفِتنةِ إلى محَلٍّ يُمكِنُ الاستِخفاءُ فيه، وبين تَضَرُّعِهم وسُؤالِهم لله تَيسيرَ أُمورِهم، وعَدَمِ اتِّكالِهم على أنُفسِهم وعلى الخَلقِ، فلذلك استجابَ اللهُ دُعاءَهم، وقَيَّضَ لهم ما لم يَكُنْ في حِسابِهم [57].

4- قَولُ الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ فيه دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بالكَراماتِ فإنَّ بقاءَهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ بلا آفةٍ هو مِنْ أعظمِ الخوارقِ [58].

5- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ سَمَّى سُبحانَه وتعالى الاستِيقاظَ مِن النَّومِ بَعثًا لأن النَّومَ وَفاةٌ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42]، فالنَّومُ وَفاةٌ.

6- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ المقصودُ من هذه القِصَّةِ إثباتُ البعثِ بعدَ الموتِ؛ فكان في ذِكْرِ لفظِ ﴿البَعثِ﴾ تَنبيهٌ على أن في هذه الإفاقةِ دليلًا على إمكانِ البَعثِ وكيفيَّتِه.

56- يُنظر: تفسير القرطبي 360/10.
57- يُنظر: تفسير السعدي ص: 471.
58- ينظر: تفسير الرازي 430/21 لوامع الأنوار البهية للسفاريني 394/2.

بعدَ أن أجمَل الله تعالى الكلامَ عن أصحابِ الكهفِ أخَذ يُفصِّلُ قصتَهم، فقال تعالى:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]

أي: نحن يا مُحَمَّدُ، لا غيرُنا، نَروي لك خبَرَ أصحابِ الكَهفِ بالصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ، واليَقينِ الذي لا شَكَّ فيه.

﴿نحْنُ﴾ من ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى المراد بها التعظيم، إذا قال الله تعالى عن نفسه: نحن، بضمير الجمع ففي هذا إشارة إلى أن هذا الفعل الذي فعله الله عز وجل كل أسمائه داخلة فيه. ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: 14]. إذا كان الحديث عن ذاته، جاء ضمير المفرد، وإذا كان الحديث عن أفعاله، جاء ضمير الجمع. وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع لأنها من قصَّ الأثر أي: تتبَّعه. وقصُّ الله عز وجل أكمل القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن علم، وصدق. صادر بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله، إلَّا من أضل الله قلبه وقال: هذا أساطير الأولين، وبأحسن إرادة لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل، كما قال في آية أخرى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]. فكلام الله تبارك وتعالى متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة، أربعة أشياء.

﴿نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾: النبأ هو الخبر العظيم أي خبرهم. بِالْحَقِّ أي بالصدق المطابق للواقع.

﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**﴾: أي أن أصحابَ الكَهفِ شَبابٌ آمنُوا باللهِ حقًّا [59] فوحَّدُوه ولم يُشرِكُوا به شَيئًا، شباب ولكن عندهم قوة العزيمة وقوة البدن وقوة الإيمان، أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما عليه قومهم، وعادة يكون الشباب أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين عتوا[60]، ولهذا نجد أن أكثر الذين كانوا مستجيبين لله ورسوله كانوا شبابا.

كأنَّ قصة أصحاب أهل الكهف جاءت لتخفف الأعباء عن المؤمنين الأوائل، جاءت لتسليهم، ولتزيح عنهم الحزن، وكان الفتية يعيشون قبل أن يغادروا بلدهم إلى الكهف في فترة تشبه الفترة التي عاشها المؤمنون، لقد عاشَ الفتية المؤمنون البيئة، والأوضاع، والقسوة، والمِحَن، والمصائب، والمضايقات نفسها، ولا تصوير أبلغ من تصوير القرآن الكريم.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26]. هكذا كان المؤمنون في بداية عهدهم، في مكة المكرمة، وكتب السيرة تفيض بقصص الظلم، والقسوة، والتعذيب، والتنكيل، وتحكي من أخبارِ محنة سيدنا بلال، وعمار، وخباب، ومصعب وسمية، الشيء الكثير. إذن: كأنَّ هذه القصة جاءت بلسمًا شافيًا لهؤلاء المؤمنين الأوائل الذين لاقوا ما لاقوا، وتحملوا ما تحملوا، وكان صبرهم دليلًا قاطعًا على عِظَمِ إيمانِهم. إنه شَبهٌ تام بين الممتحنين في مكة، وبين الممتحنين من أصحاب الكهف، ولِذا قصَّ الله عز وجل في هذه الفترة الرهيبة التي يستولي فيها اليأس، والتشاؤم، وتزيغ الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، قصة يوسف مع

59- قال ابن كثير: ذُكِرَ أنَّهم كانوا على دينِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام، والله أعلم. والظَّاهِرُ أنَّهم كانوا قبل مِلَّةِ النصرانيَّة بالكليَّةِ؛ فإنَّهم لو كانوا على دينِ النصرانيَّة لما اعتنى أحبارُ اليهود بحِفظِ خَبرِهم وأمْرِهم؛ لِمُباينتِهم لهم. تفسير ابن كثير 140/5.

60- يُنظر: تفسير ابن جرير 178/15، 179، تفسير السعدي ص: 471، تفسير ابن عاشور 271/15.

إخوته، وقصة موسى مع فرعون، وقصة أصحاب الكهف، لأن لهذه القصص أهدافًا تربويةً كبيرة جدًا.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله، اعترفوا بالوحدانية وشهدوا ألا إله إلا الله، وهذه قضيتهم التي ضَحَّوْا من أجلها، انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلًا للشباب المؤمن في كل زمان ومكان، فالفتاء في أهل الكهف: فتاء إيمان وفتاء عقيدة. فلما آمنوا بالله تولّاهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: أي وبسَبَبِ أصلِ اهتدائِهم مِن قَبلُ إلى الإيمانِ، زِدْنَاهم إيمانًا وهدى وعِلمًا بالحقّ، وعملًا صالحًا[61]. كما قال في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17] لأن الله تعالى يزيد الذين يهتدون هدى، وكلما ازداد العبد عملًا بعلمه زاده الله هدى أي زاده الله علمًا. ونستدل بهذه الآية الكريمة بأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124].

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 14].

﴿وَرَبَطْنَا﴾: أي وشَدَدْنا على قُلوبِهم، وثَبَّتْناها بالإيمانِ والصَّبرِ، فاشتَدَّ عَزمُهم، وقَوِيَ صَبْرُهم[62]. الربط يعني أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل الماء، وتربط الدابة

61- يُنظر: تفسير ابن جرير 179/15، تفسير القرطبي 365/10، تفسير السعدي ص: 471.
62- يُنظر: تفسير ابن جرير 179/15، تفسير القرطبي 365/10، تفسير ابن كثير 140/5، تفسير السعدي ص: 472، أضواء البيان للشنقيطي 214/3.

حتى لا تنفلت، وقد وردتْ مادة "ربط" في القرآن كثيرًا، منها قوله تعالى في قصة أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أم مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: 10]. أي: ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء، ولولا أن ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]. أي: تكشف عن الخُطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام. وهكذا اطمأن قلب أم موسى، وأصبح فؤادها فارغًا أي: من الانفعالات الضارة، ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات، بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلًا، ولا يُسمَّى القلب فؤادًا إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها، وربط الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطًا للشعور يحكم تصرفاتها فتأتي سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة. وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 43]. أي: فارغة خالية ليس فيها شيء؛ لأن الشيء إذا فرغته من محتواه امتلأ بالهواء. وهنا يقول الله سبحانه في أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ثبتناها وقويناها وجعلنا لها رِباطًا، لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرِجها الأحداث والشدائد، وهذا من زيادة الهدى الذي أَخبرتْ به الآية السابقة. لأن جميع قومهم ضدهم، ومخالفة القوم تحتاج إلى تثبيت لا سيما أنهم شباب والشاب ربما يؤثر فيه أبوه ويقول له "اكفر"، ولكن الله ربط على قلوبهم فثبتهم، اللهم ثبتنا يا رب. قال بعض المفسرين من السلف إن هؤلاء الفتية كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وكان لهم يوم في السنة يجتمعون في ظاهر البلد في يوم عيد من أعياد قومهم، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها. وكان لهم ملك جبارٌ عنيد يقال له "دقيانوس"، فلما خرج الفتية مع آبائهم وقومهم في هذا اليوم نظروا إلى صنيع هؤلاء القوم فعرفوا أن الذي يفعلونه من سجود للأصنام وذبح لا ينبغي إلا لله سبحانه وتعالى، فما كان منهم إلا أن بدأوا يتخلصون وينأون وينحازون من قومهم، انسحب أحدهم وجلس تحت ظل شجرة وجاء الآخر ثم الآخر وهكذا، حتى اجتمعوا

تحت ظل الشجرة، فجمعهم الله جل وعلا على الإيمان دون أن يعلم أحدهم أمر الآخر. وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[63].

هؤلاء الفتية انسحبوا من قومهم وكان كل وحد منهم يكتم أمره عن الآخرين خوفا منهم ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: يا قوم، ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فلينظر كل واحد بأمره لماذا انسحب وجلس تحت ظل الشجرة؟ ثم قال آخر: أما أنا فإني والله رأيت قومي وما هم عليه فعرفت أنه الباطل وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئا هو الله فهو الذي يستحق ذلك، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي ذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا على كلمة واحدة وصاروا يدًا واحدة.

فلما بلغ خبرهم إلى الملك استدعاهم ليتعرف على هؤلاء الذين فرّوا عن دينه إلى دين لا يعرفه، ونحن نعرف أن الملك له خشية ورهبة وهيبة وعظمة، فقال الله تعالى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ثبتهم الله حتى لا يخافوا الملك ويهابوه. و"الربط" أي تثبيت الشيء، لأنهم وقفوا عند الملك فربط الله على قلوبهم ليذهب عنهم الخوف والقلق ويحل مكانه الأمن والطمأنينة والأمان.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾
أي: رَبَطْنا على قُلوبِهم حِينَ قاموا لله، فقالوا مُعلِنينَ الحَقَّ: رَبُّنا الذي خَلَقَنا ويَملِكُنا ويَرزُقُنا ويُدَبِّرُ أمورَنا، هو الرَّبُّ المتفَرِّدُ بخَلقِ السَّماواتِ والأرضِ ومُلْكِها وتَدبيرِها، لن نَعبُدَ غَيرَه أبدًا، فهو الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شريكَ له[64].

63- متفق عليه.
64- يُنظر: تفسير ابن جرير 179/15، تفسير القشيري 381/2، تفسير السعدي ص: 472.

﴿إِذْ قَامُوا﴾: القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه، وأن الباطل أفزعهم فهَبُّوا للتصدِّي له بقولهم ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: 14] قَامُوا بين يدي الملك معلنين التوحيد متبرئين مما كان عليه هؤلاء الأقوام، فهم كسحرة فرعون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: 72]، والدنيا كلها قاضية منتهية طالت أم قصرت. نلاحظ أن الفتية هنا أقروا بربوبية الله جل وعلا، والإقرار بالربوبية يستلزم الإقرار بالألوهية.

معنى الربوبية: هي توحيد الله جل وعلا وإفراده هو بأفعاله أي بالخلق والملك والتدبير، لأن الرَّب الذي هو اسم من أسماء الله معناه الخالق المالك المدبر.

أما معنى الألوهية: هو أفراد الله تعالى بأفعال العباد والخلق أي إفراد الله بالعبادة بمعنى أفعال الخلق تجاه الرب فلا نتخذ معه آلهة.

﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ فإن ادّعَيْنَا إلهًا من دون الله ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: لو دَعَوْنا غيرَ اللهِ لَكُنَّا قد أفرَطْنا وغَلَوْنا في قَولِ الكَذِبِ، والتحَدُّثِ بالباطِلِ والبهتانِ، فقد تجاوزنا الحدّ، وبَعُدْنا عن الصواب [65]. هنا لن نفي بمعنى "لن ندعو إلهًا سواه"، فأقروا بالربوبيَّة وأقرُّوا بالألوهية. الربوبية قالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والألوهية قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي سواه. أي ينفون أن يتقربوا لمن دونه أبدا. ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: "اللام" و "قد" و"القسم الذي دلَّت عليه اللام". "إذًا" أي لو دعونا إلهًا سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولًا مائلًا وموغلًا بالكفر. وصدقوا؛ فلو أنهم دعوا غير الله إلهًا لقالوا هذا القول المائل الموغل بالكفر والعياذ بالله. والشطط: هو البعد عن الحق والكذب والظلام والظلم والباطل والبهتان، والشطط في القول هو

65- يُنظر: تفسير ابن جرير 179/15، 180، تفسير ابن كثير 141/5، أضواء البيان للشنقيطي 215/3، 216.

البعد عن الحق والصواب وقول الباطل. إذن فهم قالوا لو فعلنا ذلك لكان هذا ظلما وبهتانا.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: 15]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَحَّد هؤلاء الفِتيةُ اللهَ تعالى، ورَفَضوا ما دُونَه مِن الآلهةِ، وذكَروا ما مَنَّ اللهُ به عليهم مِن الإيمانِ والهُدى؛ التَفَتوا إلى ما كان عليه قَومُهم مِن اتِّخاذِ الآلِهةِ مِن دونِ اللهِ، وأخَذُوا في ذَمِّهم وسُوءِ فِعلِهم، وأنَّهم لا حُجَّةَ لهم في عبادةِ غيرِ اللهِ، ثمَّ عَظَّموا جُرْمَ مَن افتَرى على اللهِ كَذِبًا [66].

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾: أي قال الفِتيةُ المُؤمِنونَ [67]: هؤلاءِ أهلُ عَصْرِنا وبَلَدِنا اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها آلهة متعددة، عبدوها من دون الله دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة [68].

﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ فهلَّا يأتي قَومُنا بحُجَّةٍ واضِحةٍ تدُلُّ على صَوابِ عِبادةِ تلك الآلهةِ التي يَتَّخِذونَها، على كونها آلهة وكونهم يعبدونها، فهناك قاعدة عند علماء الأصول، أن كنت ناقلًا فالصحة، وإذا كنت مبتدعًا فالدليل، فالمطلوب منهم شيئان:

66- يُنظر: تفسير أبي حيان 149/7، تفسير السعدي ص: 472.

67- قال ابنُ عطيةَ: وقولُهم: هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا مَقالةٌ تَصلُحُ أن تكونَ مِمَّا قالوا في مقامِهم بين يَدَيِ المَلِك، وتصلُحُ أن تكونَ مِن قَولِ بَعضِهم لبعضٍ عند قيامِهم للأمرِ الذي عَزَموا عليه. تفسير ابن عطية 501/3.

68- يُنظر: تفسير ابن جرير 180/15، الوجيز للواحدي ص: 655، تفسير القرطبي 366/10.

1- أن يثبتوا أن هذه آلهة.
2- أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل.

والسلطان: كلُّ ما للإنسان به سُلطة، وقد يكون المراد به الدليل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: 68]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 100]. وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة، أي أن قومهم لولا يدللون على صحة ما يفعلون من أفعالهم، إذن حينما يدعو الإنسان إلهًا من دون الله، ومن دون دليل فقد افترى على الله كذبا [69].

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّه تسَبَّبَ عن عَجزِهم عن دَليلٍ أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمينَ؛ لافتِعالِهم الكَذِبَ عن مَلِكِ المُلوكِ ومالِكِ المُلكِ؛ فلذلك قالوا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، الفاء للتقريع، مَن: استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَقَ على الله كذبًا، فادَّعى أن له شَريكًا يُعبَدُ [70].
والاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَبًا معنى التحدي لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي.

﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾: فهذا تحدٍ، كأنه يقول: أخبرني أو أوجد لي أحدًا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، من أشد ظلمًا ممن افترى على الله كذبًا في نسبة الشريك إليه وغير ذلك، فلا أحد أظلم منه، أي أنهم على باطل وكذب فهم كاذبون أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا وزعم أن له صاحب وولد وشريك في الملك،

69- يُنظر: تفسير ابن جرير 180/15، 181، تفسير القرطبي 366/10، تفسير ابن كثير 141/5، تفسير السعدي ص: 472.
70- يُنظر: تفسير ابن جرير 181/15، تفسير ابن عاشور 275/15، أضواء البيان للشنقيطي 216/3. قال ابنُ عاشور: المعنى: أن هؤلاء افتَرَوا على اللهِ كَذِبًا، وذلك أنَّهم أشركوا معه غيرَه في الإلهيَّةِ، فقد كَذَبوا عليه في ذلك، إذ أثبتوا له صِفةً مُخالِفةً للواقِعِ. تفسير ابن عاشور 275/15.

فأفظع الظلم وأقبحه أن نفتريَ على الله الكذب، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ أن مَن آمَنَ برَبِّه وأطاعَه، زاده رَبُّه هُدًى؛ لأن الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِن الهُدى والإيمانِ، وإنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدَها، ومَن عمِل بما يعلمُ أورَثه الله تعالى علمَ ما لم يعلَمْ، واستَدَلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها غيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ -كالبُخاريِّ وغَيرِه- على زيادةِ الإيمان وتَفاضُلِه، وأنَّه يزيدُ ويَنقُصُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: 124]. وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]، إلى غيرِ ذلك منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك [71].

2- قولُه: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ، حيث لم يقُلْ: "آمَنوا بِنا" للإشعارِ بعِلِّيَّةِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ لإيمانِهم، ولمُراعاةِ ما صدَرَ عنهم من المقالةِ حسَبَما سيُحْكَى عنهم، أو للإشعارِ بتلك الرُّتبةِ، وهي أنَّهم مَرْبوبون مَمْلوكون له سبحانه وتعالى [72].

3- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يُفهَمُ مِنه أن مَن كان في طاعةِ رَبِّه جَلَّ وعَلا، أنَّه تعالى يُقَوِّي قَلْبَه، ويُثَبِّتُه على تحَمُّلِ الشَّدائِدِ، والصَّبرِ الجَميلِ، وأنَّ المؤمنَ أحوجُ شيءٍ إلى أن يربِطَ الله على قلبِه، ولولا ذلك الربطُ لافتتنوا [73].

71- يُنظر: تفسير ابن كثير 140/5 أضواء البيان للشنقيطي 213/3. تفسير آيات من القرآن الكريم 243/5.
72- ينظر: تفسير أبي السعود 210/5 - تفسير أبي حيان 148/7.
73- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 214/3.

4- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ هذا مِن جُموعِ القِلَّةِ، ويدُلُّ على أنَّهم كانوا دونَ العَشرةِ، وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ إنَّهُمْ؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ، لا لردِّ الإنكارِ[74].

5- قال اللهُ تعالى عن أهلِ الكَهفِ: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾، فاستَدَلُّوا بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾[75].

6- أنَّ في نبَأِ أهْلِ الكهْفِ تَخرُّصاتٍ ورجْمًا بالغيبِ، أثارَ ذلك في النَّفسِ تطلُّعًا إلى معرفةِ الصِّدقِ في أمْرِهم، من أصْلِ وُجودِ القصَّةِ إلى تَفاصيلِها، من مُخبِرٍ لا يُشَكُّ في صِدْقِ خبَرِه، فكانت جُملةُ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ استئنافًا بَيانيًّا لجُملةِ﴾ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

7- قولُه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ تقديمُ المُسنَدِ إليه نَحْنُ على المُسنَدِ الفعليِّ نَقُصُّ يُفيدُ الاختصاصَ، أي: نحن لا غيرُنا يقُصُّ قصَصَهم بالحقِّ. والباءُ في قولِه: "بِالْحَقِّ" للمُلابَسةِ، أي: القَصصُ المُصاحِبُ للصِّدقِ لا للتَّخرُّصاتِ[76].

8- قولُهم: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ فيه ذِكْرُ الدُّعاءِ دُونَ العِبادةِ؛ لأن الدُّعاءَ يشمَلُ الأقوالَ كلَّها من إجراءِ وصْفِ الإلهيَّةِ على غيرِ اللهِ، ومن نِداءِ غيرِ اللهِ عندَ السُّؤالِ، وفي قولِه: "إِلَهًا" العُدولُ عن أن يُقالَ: "ربًّا"، للتَّنصيصِ على رَدِّ المُخالِفين، حيث كانوا

74- يُنظر: تفسير السعدي ص: 471 تفسير ابن عاشور 271/15.
75- نفس المصدر السابق.
76- ينظر: تفسير ابن عاشور 270/15 -271.

يُسمُّون أصنامَهم آلهةً، وللإشعارِ بأنَّ مَدارَ العِبادةِ وصْفُ الأُلوهيَّةِ، وللإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالى بطريقِ الألوهيَّةِ [77].

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: 16]

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يخبرنا الله تعالى ما تناجَى به أولئك الفتيةُ فيما بينَهم، وما قرَّروه بعدَ اعتزالِ قومِهم، وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون مطلقًا.

﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لكنِ الله لم تعتزلوه ولكنكم آمنتم به. بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة لا بد من الفرار بالعقيدة، إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسطٍ ظالم كافر ولا حياة لهم في هذا الوسط أن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله، والأرجح أن أمرهم قد كشف، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة. وهنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما، لا تردد فيه ولا تلعثم، إنهم فتية أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ما عليه قومهم، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم: قال بعضهم لبعض ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر، ونأينا عن طريقهم، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذي يسَّره الله لنا، وخالفناهم بديننا - في عبادتهم غير الله – وتبرأنا منهم ومن معتقداتهم الباطلة، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمي فيه فرارًا بديننا، ونعتزلهم ونفارقهم أيضا بأبداننا ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا. يلفتنا هنا إلى فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء، وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة، لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه،

77- . ينظر: تفسير ابن عاشور 270/15- 271 تفسير أبي السعود 210/5.

لذلك قال بعدها: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ فالضيق يقابلُه البَسْط والسّعة، لقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]. ومن هذه السعة ما حدث في قصة نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، حينما تبعه فرعون بجنوده حتى قال أتباعه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم، والعدو من خلفهم، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر، فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف؟ قال بملء فيهِ قوْلَة الواثق من نصر الله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]. فجاءه التأييد من ربه في التوِّ واللحظة، وفُرّج عنه وعن أصحابه ما يُلَاقون من ضيق المخرج، فأوحى الله إليه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63]. كذلك هنا: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِه ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ يعني أنكم إذا فعلتم ذلك فإن الله سييسر لكم الأمر ويبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ويهيئ لكم من أمركم الذي أنتم فيه مرفقا - قرئ بكسر الميم مِرفقا وفتحها مَرفقا - والمراد بالمرفق جمع مرافق أي أمرًا أو مكانا ترتفقون به وتنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش وهي مُقوّمات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان، فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة، لأنهم أن ظلوا في حال اليقظة فلا بُدَّ أن يحتاجوا إلى هذه المرافق، من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. قال ابن عباس: ﴿ويهيئ لكم﴾ يسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿2﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 2-3]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4]. ويقال إن ملكهم الذي كان يحكمهم عندما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمرهم بنزع لباسهم الذي كان عليهم من زينة قومهم وأجّلهم لينظر في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم وكان تأجيلهم لطف من الله بهم توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع

الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن"[78]. ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، ودعوا الله بقولهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التبرؤ من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم مرفقا، فحفظ أديانهم وأبدانهم وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب؛ فقدهم قومهم من بين أظهرهم، وطلبهم الملك فيقال إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق حين لجآ إلى غار ثور وجاء المشركون من قريش في طلبه فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه وعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى جزع الصديق في قوله: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"[79]. وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]. فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف. في هذه الحالة يتبين أن الفرار مشروع عند وقوع الفتن بين الناس، والفتنة شرعا تعني الشرك، وقد حصل الفرار أيضًا مع الصحابة ومنهم سعد بن أبي وقاص، فلا بد من الفرار بالعقيدة.

- 78 صحيح البخاري.

79- متفق عليه.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾
[الكهف: 17].

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى قَولَ بَعضِهم لبَعضٍ: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: 16]، بيَّن سبحانَه حالَهم بعد أن أَوَوا إلى الكَهفِ، مُشيرًا إلى تحقيقِ رَجائِهم في ربِّهم، وهو ما هيَّأ لهم في أمرِهم مِن مِرفَقٍ، وأنَّ ذلك جزاؤُهم على اهتدائِهم، وهو من لُطفِ اللهِ بهم[80].

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ أحوالِ هؤلاء الفتيةِ بعدَ استقرارِهم في الكهفِ، وإلقاءِ النومِ عليهم، بعد أن ضرب الله على آذانهم ناموا نومًا ثقيلًا فعصمهم من الأصوات التي تزعجهم وتقلق نومهم، وحفظهم وعصمهم أيضًا من ضوء الشمس، فيسر لهم غارا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالا، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم، وأن الظلمة مهمة، فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء، والشمس خلق من خلق الله لها مدار ثابت وقانون لا يتخلف، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33].

80- يُنظر: تفسير ابن عاشور 277/15.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾: ولكن الخالق سبحانه وتعالى خرق لهم نظام الشمس حتى لا يزعجهم ضوؤها فجعلها ﴿تَّزَاوَرُ﴾ أي: تميل عند طلوعها عن الكهف، وأصلُ "زور": يدلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ، ومنه الزُّور: أي الميل عن الحق، وازورَّ عن الشيء أي: مال عنه، فكانت الشمس إذا طلعتْ، إذا أشرَقَتْ تَميلُ عن الكَهفِ الذي أوَى إليه الفِتيةُ، إلى جِهةِ يمينِه لئلَّا تصيبَهم أشعَّتُها فكانت الشمس تزاور ذات اليمين استجابة لأمر ربها [81].

﴿تَزَاوَرُ﴾ فيها قراءتان: ﴿تَزَّاور﴾ بتشديد الزاي وأصلها تَتَزاور، و﴿تزَاور﴾ بتخفيف الزاي. وقيل إن الفتية لم يأووا إلى ركن من أركان الكهف ولا إلى زاوية من زواياه وإنما ناموا في وسطه وفي مدخله في مكانٍ مُتَّسِعٍ مِن الكَهفِ ليكونوا قريبين من الهواء.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وترَى الشَّمسَ إذا غَرَبَت تَعدِلُ عن الفتيةِ وتَترُكُهم جِهةَ شِمالِ الكَهفِ، فلا يُصيبُهم شُعاعُها، تَقْرِضُهُمْ :أي: تُجاوِزُهم وتَدَعُهم، أي: لا تَطلُعُ في كَهفِهم، يُقالُ: قرضْتُ موضعَ كذا، إذا قطعتَه فجاوزتَه، وأصلُ "قرض": يدلُّ على القَطعِ [82]. أمرها الله أن تحيد عنهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وقيل: المعنى تتركهم وقيل: تصيب منهم، وهو الأقرب أنها تصيب منهم، وفائدة هذه الإصابة أن تمنع أجسامَهم من التغيُّر لأن الشمس كما يقول الناس: إنها صحة وفائدة للأجسام، وقيل تعطيهم من ضوئها شيئًا ثم تزول سريعًا كالقرْض يسترد، تقرض لهم أي تقطع لهم من ضوئها شيئًا، قال ابن عباس: المعنى أنهم كانوا لا تصيبهم الشمس البتة، وهذا دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال، ولهذا قال بعضهم: أن وجه الكهف إلى "بنات نعش"

81- ينظر: تفسير ابن جرير 184/15، 186، 187، تفسير القرطبي 369/10، تفسير ابن كثير 142/5، تفسير السعدي ص: 472، أضواء البيان للشنقيطي 218/3، 220. قال ابنُ جرير: لأنَّها لو طلَعَت عليهم قُبالَهم لأحرَقَتْهم وثيابَهم، أو أشحَبَتْهم.

82- يُنظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص: 264، تفسير ابن جرير 187/15، غريب القرآن للسجستاني ص: 147، مقاييس اللغة لابن فارس 71/5، المفردات للراغب ص: 666، تفسير ابن عاشور 278/15.

النجوم المعروفة في السماء، يعرفها أهل البر، وهذا من دلائلِ قُدرةِ اللهِ، وعَظيمِ لُطفِه بعبادِه، ولله عز وجل في ذلك حكمة، إذ أراد أن يحفظ أبدانهم.

﴿**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ**﴾: أي: والفتيةُ في مكانٍ متَّسِعٍ داخِلَ الكَهفِ، الضمير يعود على هؤلاء الفتية، الفجوة يعني الشيء الداخل، يعني ليسوا على باب الكهف مباشرة، بل في مكان داخل الكهف مكان متسع ليطرقهم الهواء والنسيم ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصا مع طول المكث [83].

﴿**ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**﴾ أي: فعلُنا الذي فعَلْنا بهؤلاء الفِتيةِ، من إجابة دعائهم وهدايتهم إلى توحيده وإخراجهم من بين قومهم عبدة الأوثان، وتيسير الله لهم غارًا مناسبًا وإيواؤهم لهذا الغار لحفظِهم فيه، وحمايتهم من عدوّهم وإلقاء الهيبة عليهم، وميلِ الشمسِ عنهم عندَ طلوعِها، وتركِها لهم عندَ غروبِها لئلا تفسد أجسامهم وإنامتهم هذه المدة الطويلة، وذلك مِن عجائبِ صُنعِ اللهِ الدَّالَّةِ على حكمته وعَظيمِ قُدرَتِه ورحمته وسُلطانِه، ولُطفِه بعِبادِه، وهذا كرامة بلا شك. ثمَّ ختَم الله تعالى هذه الآية، فقال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان انفِرادُهم بالهُدَى عن أهلِ ذلك القَرنِ كُلِّهم عَجَبًا، وصَلَ به ما إذا تؤُمِّلَ زال عجَبُه، فقال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [84]. "من" شرطية والدليل على أنها شرطية حذف الياء مِن "يهدي"، والجواب: "فهو المهتدِ" و"المهتد" أصلها "المهتدي" بالياء لكن حذفت الياء تخفيفًا كما حذفت في قوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]. أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، مَن يُرشِدْه اللهُ ويوفِّقْه للاهتداءِ إلى الحَقِّ، فهو الموفَّقُ المهتدي حقًّا،

83- يُنظر: تفسير ابن جرير 188/15، تفسير القرطبي 369/10، تفسير ابن كثير 143/5، تفسير السعدي ص: 472، تفسير ابن عاشور 279/15.
84- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 28/12.

مِثل هؤلاء الفِتيةِ الذين هداهم اللهُ مِن بَينِ قَومِهم ومَنْ لم يوفِّقْه لذلك فلن تجِدَ له مُعِينًا يُرشِدُه إلى الحَقِّ [85]. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ، فلن تجِدَ له -يا مُحَمَّدُ- خليلًا ومُعِينًا يتولَّى إرشادَه إلى الحَقِّ، لا تجد من يتولاه ويدبر له ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: 33].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ [الإسراء: 97]. فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم، فهناك دائمًا من يقول: إذا كان الله هو الهادي والمُضِل، فلماذا يعذبني أن ضللت؟ مِن هنا يتبين أن الهداية نوعان: الأول :هداية البيان والدلالة والإرشاد والدعوة، يملكها العباد، وهي التي أثبتها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، وهي وظيفة الرسل وأتباعهم مِن الدعاة والمصلحين، وهؤلاء عليهم أن يؤدُّوا وظيفتهم، ويبذلوا جهدهم، مع العلم واليقين بأنهم لا يملكون النتائج، فالنتائج بيد الله وحده. أما النوع الثاني، فهو هداية التوفيق، أو خلق الهداية في قلوب الناس، وهذا النوع ملكٌ لله وحدَه لا يملكها إلا هو، لا يقدر على هذه الهداية إلا الله، هذه التي تنجي من النار، وهي التي نفاها عن نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]. فهو سبحانه ملك القلوب ومصرِّفها ومقلبها، فالهداية نعمةٌ من الله تعالى يمنُّ بها على مَن يشاء من عباده، وهي فضل الله يؤتيه مَن يشاء. فالله لا يضل قومًا بعد إذا هداهم، هداية الدلالة والإرشاد ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: 115]، ويكون إضلالهم في هذه الحالة عقوبة على ترك الاهتداء، فأعرضوا فأعماهم، وصدوا فأضلهم. فالبشر هيأهم الله، وجعل فيهم القابلية للهدى كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3]. فمن تسبب من البشر في كسب الهداية، وجاهد نفسه في حصولها

85- ينظر: تفسير ابن جرير 190/15، تفسير الخازن 159/3، تفسير ابن كثير 143/5 .

رزقه الله هداية التوفيق كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]. فالله تبارك وتعالى يجده أهلًا للمعونة، فيأخذ بيده ويعينه، ويجعل الإيمان خفيفًا على قلبه، ويعطيه طاقة لفعل الخير، ويشرح له صدره وييسر له أمره.

ثم يحكي الله تعالى مشهدًا عجيبًا لأصحابِ الكهفِ، فيقولُ تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18]

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ أي وتظُنُّ [86] أن أهلَ الكَهفِ -لو قُدِّر لك النَّظَرُ إليهم- أيقاظًا، والحالُ أنَّهم في الواقِعِ نِيامٌ، أي: وإذا رأيتهم حسبتهم أيقاظًا، جمع يقظ بكسر القاف، لأنه ليس عليهم علامة النوم وربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها، وقيل إنهم عندما ناموا كانت أعينهم مفتوحة، ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم بقيت أعينهم مفتوحة غير منطبقة لئلا يسرع إليها البلى، لهذا قال الله تعالى ﴿وَتَحسَبُهُمْ أيْقَاظًا وهُمْ رُقُود﴾.

﴿رُقُودٌ﴾: جمع راقد، كالجلوس: جمع جالس، والقعود: جمع قاعد. ويقال في هذه النقطة إن الذئب عندما ينام يفتح عينا ويطبق عينا ثم يفتح هذه ويغلق تلك وهو راقد، وقال أحد الشعراء فيه: ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم وهكذا كان فتية الكهف.. ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز فقال تعالى:

86- قيل: الخِطابُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: تفسير ابن جرير 190/15. تفسير ابن أبي حاتم 2352/7. وقيل: الخطابُ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تظنُّهم أيُّها المُخاطَبُ، أو أيُّها الرَّائي. وممن قال بذلك: السعدي، والشنقيطي. يُنظر: تفسير السعدي ص: 472، أضواء البيان للشنقيطي 224/3.

﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**﴾ ونُقَلِّبُهم حالَ نَومِهم مَرَّةً للجَنبِ الأيمَنِ، ومَرَّةً للجَنبِ الأيسَرِ، لأن الأرض تأكل الجسد الذي لامسها ونام عليها سنين طويلة. ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أن ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش، نتيجة لنومه المستمر على جانب واحد - عافانا الله وإياكم - وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ. قال العلماء: يقلبون في العام مرتين. وقال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض. ﴿وَنُقَلِّبُهُم﴾ فيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، ووجه الدلالة أن الله أضاف تقلبهم إليه. من الإعجاز العلمي لهذا الكتاب هذه الآية ، يقول العلماء: إذا استلقى الإنسان على فراشه، فإنَّ وزن جسمه يضغط على الهيكل العظمي، والهيكل العظمي يضغط على العضلات ضغطًا ثانيًا، فيُسبب هذا الانضغاط انضغاطًا على الشرايين والأوردة التي في هذه المنطقة، وهذا الانضغاط يسبب ضعفًا في تروية العضلات، لذلك "تخضر" هذه العضلات كما تقول العامة، مما يجعل الإنسان يُغيّر استلقاءه، فلوا راقبنا إنسانًا نائمًا لوجدناه يُغيّر استلقاءه ثماني وثلاثين مرة في الليلة الواحدة، أما الشيء العجب العجيب، كيف يغير الإنسان وضعه وهو نائم؟ قال العلماء: في الإنسان أماكن مراكز عصبية تتحسس بالضغط، فإذا تمَّ انضغاط بعض العضلات، وتحسست هذه المراكز العصبية تعطي إشارة إلى الدماغ، والإنسان نائم، أن هناك ضغطًا في الجهة الفلانية، فيُعطي الدماغ أمرًا إلى العضلات لتغير وضع النوم مما يجعل الإنسان يتقلب بالليلة الواحد من ثمانٍ وثلاثين إلى أربعين مرة، هذا في الأحوال العادية. أما لو تصورنا إنسانًا مصابًا بمرض اسمه السُبات، وهو غياب كُليّ عن الوعي، أو إنسانًا مصابًا بشلل كامل فهو لا يستطيع مثلًا أن يُحرِّك نفسه، أن أول علاج لهذه الحالة، هو التقليب، لأن الإنسان إذا بقي على وضع واحد فوق ثماني ساعات يبدأ اللحم بالتمزق، إذ تضعف تروية الدم للنسيج العضلي، وعندها يتفسّخ اللحم، يُقال "اهترأ لحمه"، ولو نسي أهل المريض المُصاب بِسُبات أو شلل أن يقلّبوه فإنَّ قِطَع اللحم تنزع من أطرافه نزعًا، سمّى العلماء هذا المرض قرحة السرير. فالعلاج الوحيد لِكُل إنسان مصاب بالشلل،

أو بالسُبات قبل كل علاج هوَ التقليب، فهؤلاء أصحاب الكهف لو ناموا على حالة واحدة واستمر نومهم ثلاثمئة عام لا يبقى منهم بعد خمسين عامًا بالتأكيد شيء، تتفسخ لحومهم، ويأكلها الدود، وهم أحياء، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز العلمي.

﴿**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ وكَلبُهم الذي صاحَبَهم مادٌّ ذراعَيه بفِناءِ الكَهفِ، ويبدو أنهم كانوا من الرعاة، فتبعهم كلبهم وجلس مادًا ذراعيه بفناء الكهف أو على بابه كأنه، والله أعلم، لم ينم. ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي جالس على بطنه وقد مدَّ ذراعيه، أي حارس حتى لا يدخل أحد عليهم. ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ والوصيد هو الباب أو فتحة الكهف أو فِناء الكهف. يعني: إما أن يكون على الفتحة، وإما أن يكون إلى جنب الكهف في فِنائه ليحرسهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: 8] أي مطبقة مغلقة، وقد ربض كلبهم على الباب - كما جرت به عادة الكلاب - يحرسهم وهذا من سجية الكلب وطبيعته. وقيل إن جلوسه كان خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة كما جاء في الصحيح: "لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ" [87] سبحان الله – تأملوا كيف ذكر الله الكلب في كتابه العزيز وهو كلب لا قيمة له ومن أخسأ المخلوقات والحيوانات ولكن عندما حرص على صحبة أهل الذكر وأهل العقيدة والإيمان صار له ذكر في كتاب الله العزيز، أي أنه حصل على شرف الصحبة الصالحة وشرف مصالحة ومجالسة الصالحين. وفي هذا دليل على جواز اتخاذ الكلب لحراسة الآدميين، أما حراسة الماشية فقد جاءت به السنّة، وحراسة الحرث جاءت به السنة كذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من أمسك كلبا ينقص من عمله كل يوم قيراط إلا كلب حرث أو كلب ماشية" [88]. وورد في الصحيحين أيضًا: "أو كلب صيد"، فحراسة الآدمي أولى لأنه إذا جاز

87- متفق عليه.

88- متفق عليه. البخاري: كتاب: الحرث والمزارعة، باب: اقتناء الكلب للحرث، 2322.
مسلم: كتاب المساقاة، باب: الأمر بقتل الكلاب، وبيان نسفه، وبيان تحريم اقتنائها إلا لصيد أو زرع أو ما سبه ونحو ذلك، 1575، 59.

اتخاذ الكلب لحراسة الماشية والحرث أو للصيد الذي هو كمال فاتخاذه لحراسة البيت من باب أولى.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي أن الله تعالى ألقى عليهم المهابة، لو أشرفتَ عليهم اطّلعت أيها الرائي وعايَنْتَهم لولَّيت منهم فرارًا هاربًا، ولمُلِئَت نفسُك منهم فَزَعًا. رهبة أنْزلها الله في قلب من يراهم، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم حتى لا يحاول أحد أن يدنو منهم. ولهذا قال: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ مع أنهم لم يلحقوه، لكنه خائف منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ لم يُملأ قلبُه فقط، بل كلُّه، وهذا يدل على شدة الخوف الذي يحصل لمن رآهم. وهذه من حكمة الله حتى لا يقربهم أحد ولا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضي رقدتهم التي شاء الله تعالى فيهم [89].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ يدُلُّ على أن اعتزالَ المؤمِنِ قَومَه الكُفَّارَ ومَعبوديهم، مِن أسبابِ لُطفِ اللهِ به ورَحمتِه [90].

2- وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي أن المشروعُ عند وُقوعِ الفِتَنِ في النَّاسِ، أن يَفِرَّ العَبدُ منهم خَوفًا على دينِه، كما جاء في الحديث: "يُوشِكُ أن يكونَ خَيرَ مالِ المسلم غَنَمٌ يَتبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ وَمَوَاقِعَ القِطْرِ، يفِرُّ بدِينِه مِنَ الْفِتَنِ" [91]. ففي هذه الحالِ تُشرَعُ العُزلةُ عن النَّاسِ، ولا تُشرَعُ

89- يُنظر: تفسير ابن جرير 194/15، البسيط للواحدي 563/13، تفسير القرطبي 373/10
90- ينظر: أضواء البيان للشنقيطي 217/3.
91- شَعَفَ الجبالِ: أي رُؤوسَها وأطرافَها. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 139/1. ومواقِعَ القَطْرِ: أي: بُطونَ الأوديةِ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 69/1، أخرجه البخاري 19 من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه،

فيما عداها لِما يَفوتُ بها مِن تَركِ الجَماعاتِ والجُمَعِ [92]، فالله تعالى مدَح في هذه الآية مَن فَرَّ بدِينِه خَشيةَ الفِتنةِ عليه [93].

3- قَولُه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ فيه تَنبيهٌ إلى عدمِ سؤالِ الهدايةِ إلَّا مِنَ اللهِ، وعدمِ الجزعِ أو السخطِ عندَ رؤيةِ مَن هو ضالٌّ فالله تعالى جَعَلَ النَّاسَ على قِسمَينِ: مهتدٍ وضالٍّ، فلا بدَّ مِن الإيمان بالقدرِ، والرضَا به على كُلِّ حالٍ.

4- قال الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ شَمِلَت كَلْبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابَهم مِن النَّومِ على تلك الحالِ، وهذه فائدةُ صُحبةِ الأخيارِ، فإنَّه صار لهذا الكلبِ ذِكرٌ وخبَرٌ وشأنٌ [94]، فذِكْرُ هذا الكَلبِ على طولِ الآبادِ بجَميلِ هذا الرُّقادِ: مِن بركةِ صُحبةِ الأمجاد [95]، فمن أحبَّ أهلَ الخيرِ نال مِن بركتِهم؛ فهذا الكَلبُ أحَبَّ أهلَ فَضلٍ وصَحِبَهم، فذكَرَه الله في مُحكَمِ تنزيلِه [96]. وإذا كان بعضُ الكلابِ قد نال هذه الدَّرجةَ العليا بصُحبته ومخالطتِه الصُّلَحاءَ والأولياءَ حتى أخبَرَ الله تعالى بذلك في كتابِه جلَّ وعلا، فما ظَنُّك بالمُؤمِنين الموحِّدين المُخالطين المحِبِّين للأولياءِ والصالحين؟! بل في هذا تسليةٌ وأُنسٌ للمؤمنينَ المقصِّرينَ عن دَرَجاتِ الكمالِ، المحبِّينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِه [97].

5- قولُه تعالى: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ فيه شدةُ صلابتِهم في دينِهم؛ حيثُ عزَموا على تركِ ما كانوا فيه مِن النعمةِ العظيمةِ، واستبدلوا بها كهفًا في رأسِ جبلٍ.

92- يُنظر: تفسير ابن كثير 5/141- 142.
93- يُنظر: فتح الباري لابن رجب 1/108.
94- ينظر: تفسير ابن كثير 5/144.
95- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 12/29- 30.
96- يُنظر: تفسير ابن عطية 3/504.
97- يُنظر: تفسير القرطبي 10/371.

6- في قَولِه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ بيانُ فَسادِ مذهَبِ القَدَريَّةِ الذين يَزعُمونَ أن العبدَ لا يَفتَقِرُ في حصولِ هذا الاهتداءِ إلى اللهِ، بل كلُّ عبدٍ عندهم فمَعَه ما يحصُلُ به الطَّاعةُ والمعصيةُ، لا فَرْقَ عندهم بين المؤمِنِ والكافِرِ! ولم يَخُصَّ اللهُ المؤمِنَ عندهم بهُدًى حصلَ به الاهتداءُ.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 19]

﴿وكذلك بعثناهم﴾: يقول تعالى: كما فعلنا بهم من هذه العناية من تيسير الكهف لهم، وإنامتهم هذه المدة الطويلة، فعلنا بهم فعلًا آخر، أيقظناهم وبعثناهم صحيحةً أبدانُهم وأشعارُهم وأبشارُهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئًا. وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين.

﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾: ليس المعنى أنهم بعثوا للتساؤل ولكن بعثوا فتساءلوا، فاللام جاءت للعاقبة لا للتعليل، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8]. اللام ليست للتعليل أبدًا، ولا يمكن أن تكون للتعليل لأن آل فرعون لم يلتقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا، ولكنهم التقطوه فكان لهم عدوًا وحزنًا. فلما استيقظوا من رقدتهم قاموا يتساءلون بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي كم مدة لبثتم؟ كم رقدتم؟

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ أي كاملًا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي بعض اليوم، ذلك لأنهم دخلوا في أول النهار وبُعثوا من النوم في آخر النهار، فقالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ أن كان هذا هو اليوم الثاني أو ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أن كان هذا هو اليوم الأول، وهذا مما يدل على عمق نومهم،

فنظروا إلى الشمس ووجدوها تميل للغروب وتذكروا أنهم لما دخلوا الكهف كان بعد طلوع الشمس أي في أول النهار فقالوا لبعضهم لبثنا يوما أو بعض يوم، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها، فلم يتغير مثلًا حالهم من الشباب إلى الشيخوخة، ولم يتغير شعرهم مثلًا إلى البياض، لذلك قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، ولو وجدوا أنفسهم شيبًا لقدروا الزمن المناسب لهذا الشيب [98].

ثم قال بعضهم: دعونا من هذه القضية التي لا تفيد، واتركوا أمرها لله تعالى ﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**﴾ ودائمًا يأمرنا الحق سبحانه بأن ننقل الجدل من شيء لا ننتهي فيه إلى شيء، ونحوله للأمر المثمر النافع، هذا الكلام لا ينفعكم وفوضوا الأمر لله فلا تنشغلوا عما ينفع بما لا ينفع، وكانوا عندما قاموا من رقدتهم يحتاجون إلى طعام فقال أحدهم:

﴿**فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ**﴾. الوَرِقُ يقال إنها الفضة وهي عُمْلَتُهُم، وكانوا يتعاملون بها. وقيل هنا في معنى ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أنهم أمروه أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذه وأطهره، وأبعده عن الحرام، طعام طيب حلال، لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أَطيبه وأَطْهره، وأبعده عن الحرام. المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلا طيبًا، ولا يُطعم إلا طيبًا [99]. ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ يعني يشتري ويأتي به، فجمعوا بالتوكيل بين الشراء والإحضار.

﴿**وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**﴾ أي: ولْيَترفَّقِ الذي ستُرسِلونَه لشِراءِ الطَّعامِ، فيتخَفَّ ويتحَيَّلْ في دخولِه المدينةَ، وشِرائِه، وخُروجِه منها، ومجيئِه إلى الكَهفِ، لم يَفُتْهم أن يكونوا على حذر من قومهم، فَمْن سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خِلْسة، وأن يتلطف في الأمر وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ولا يُعلِمَنَّ أحدًا من النَّاسِ

98- يُنظر: تفسير ابن جرير 196/15، تفسير البغوي 184/3، تفسير ابن كثير 145/5.
99- يُنظر: تفسير ابن جرير 213/15، 214، تفسير ابن كثير 145/5، تفسير السعدي ص: 473، تفسير ابن عاشور 285/15، أضواء البيان للشنقيطي 227/3.

بمَكانِكم الذي تختَبِئونَ فيه، فلا يقولَنَّ أو يفعَلَنَّ ما يُؤدِّي مِن غيرِ قَصدٍ منه إلى الشُّعورِ بكم[100]. ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التي ناموا عليها، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ويسَعَوْن للقضاء عليهم. وهذا يعني أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلَّا قليلًا، فكانوا يخافون أن يرجع إليهم قومهم ويفتنوهم عن دينهم وذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 20]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نَهَوا رسولَهم عن الإشعارِ بهم، عَلَّلوا الأمر بالتلطف وعدم الإشعار فقالوا: **﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾** أي: وذلك لأن قَومَكم الكُفَّارَ إن يعلَموا بمكانِكم في الكَهفِ ويَظفَروا بكم، يَقتُلوكم رَجمًا بالحِجارةِ أن ثَبَتُّم على ما أنتم عليه مِن الحَقِّ[101]. وهذا احتياط منهم للدين، وحماية للعقيدة التي فَرُّوا بها.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: أو يَرجِعوكم لِتَدخُلوا قَهرًا في دِينِهم، فتُصبِحوا كُفَّارًا مِثلَهم. قال الشوكاني: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يَرُدُّوكم إلى مِلَّتِهم الَّتي كنتُم عليها قبلَ أن يهدِيَكم اللَّهُ، أو المرادُ بالعودِ هنا: الصَّيْرورَةُ، على تقديرِ أَنَّهم لم يَكونوا على مِلَّتِهم. والعَودُ في

100- يُنظر: تفسير مقاتل بن سليمان 579/2، تفسير ابن جرير 214/15، تفسير الرازي 446/21، تفسير القرطبي 375/10، نظم الدرر للبقاعي 32/12، تفسير ابن عاشور 286/15.

101- يُنظر: المفردات للأصفهاني ص: 540، تفسير ابن عطية 506/3، تفسير ابن كثير 145/5، نظم الدرر للبقاعي 32/12، تفسير أبي السعود 214/5، تفسير السعدي ص: 473، تفسير ابن عاشور 286/15، أضواء البيان للشنقيطي 250/3. وقيل: المعنى: يرجموكم شتمًا بالقولِ. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: تفسير ابن جرير 214/15.

معنى الصَّيرورةِ أكثَرُ شَيءٍ في كلامِهم؛ يقولون: ما عُدتُ أفعلُ كذا، يريدون ابتداءَ الفعلِ [102]. كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿88﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 88-89].

﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾: أي: ولن تَفوزوا بالخَيرِ أبدًا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ أن عُدتُم في ملَّتِهم، فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم في الدنيا، إنما ستأخذون الآخرة، وإن ردوكم إلى دينهم فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة. أي أنهم لا بد أن يقاتلوكم أو يفتنوكم عن دينكم أو يردوكم على أعقابكم بعد إيمانكم إلى دينهم الذي يعبدون فيه الآلهة. قال البقاعي: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا﴾ أي: إذا عُدتُم فيها مُطمئنِّينَ بها؛ لأنكم وإن أُكرِهتُم ربما استدرجَكم الشيطانُ بذلك إلى الإجابةِ حَقيقةً [103].

وهكذا نلاحظ كيف كان أهل الكهف يتواصون فيما بينهم بالثبات على الدين الذي هداهم الله سبحانه وتعالى إليه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحثنا على الثبات وعدم التعرض للفتن ومهما تعرض الإنسان للبلاء والفتن والتعذيب عليه أن يثبت، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت"[104].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ دَلَّ على الحَثِّ على العِلمِ، وعلى المُباحثةِ فيه، لِكَونِ اللهِ بعَثَهم لأجلِ

102- تفسير الزمخشري 711/2. ويُنظر: تفسير أبي السعود 214/5.
103- يُنظر: تفسير ابن جرير 215/15، البسيط للواحدي 570/13، تفسير ابن كثير 146/5، تفسير أبي السعود 214/5، نظم الدرر 39/2.
104- حسنه الألباني لغيره.

ذلك، وفيه الأدَبُ فيمن اشتَبَه عليه العِلمُ، أن يَرُدَّه إلى عالِمِه، وأن يَقِفَ عند حَدِّه[105].

2- جواز التوكيل في الشراء، وفي البيع جائز أيضًا، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم "وكَّل أحد أصحابه أن يشتري له أضحية وأعطاه دينارًا، وقال: "اشتر أضحية"، فاشترى شاتين بالدينار ثم باع إحداهما بدينار فرجع بشاة ودينار، فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يبارك الله له في بيعه، فكان لو اشترى ترابًا لربح فيه". وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أنه يجوز تصرف الفضولي، أي يجوز للإنسان أن يتصرف بمال غيره إذا علم أن غيره يرضى بذلك، فهؤلاء وكلوا أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويأتي برزق.

3- قَولُ الله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ يدُلُّ على جوازِ خَلطِ دراهِمِ الجماعةِ، والشِّراءِ بها، والأكلِ مِن الطَّعامِ الذي بينهم بالشَّرِكةِ، وإن كان فيهم مَن يأكُلُ أكثَرَ ومَن يأكُلُ أقَلَّ؛ وذلك أنَّه قال: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾، فأضاف الوَرِقَ إلى الجَميعِ[106]. في هذا أيضًا دليل على جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ وخصوصا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك لكونهم أمروه بشراء أزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار على تناولها.

4- ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا عدتم في ملَّتهم، وفي هذا دليل على أخذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة إلَّا الوسائل المحرمة، فإنها محرمة لا يجوز أن يقع الإنسان فيها.

105- يُنظر: تفسير السعدي ص:472.
106- يُنظر: أحكام القرآن للكيا الهراسي 265/4.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]

مُناسَبَةُ الآية لِما قَبلَها:

أنَّها انتِقالٌ إلى جُزءِ القِصَّةِ الذي هو مَوضِعُ عِبرةِ أهلِ زَمانِهم بحالِهم، وانتفاعِهم باطمِئنانِ قُلوبِهم لوقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ بطريقةِ التَّقريبِ بالمُشاهَدةِ، وتأييد الدِّينِ بما ظهَرَ مِن كَرامةِ أنصارِه، فالكلامُ عَطفٌ على قَولِه: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يحكي الله تعالى لنا مشهدًا آخرَ مِن أحوالِ هؤلاء الفتيةِ، فيقول: وكما أنَمْناهم سِنينَ كَثيرةً وأيقَظْناهم بعدَها بهيئاتهم ﴿يعني مثل بعثهم من نومهم﴾، أطْلَعْنا عليهم قومهم أهلَ المدينةِ؛ أهل ذلك الزمان الذين كانوا في شكٍّ من قُدرة الله على إحياء الموتى، ليَعلَموا أن وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ في وقوعِها، فهنا دليل حسي على أن الله يحيي الموتى، وعلى قيام الساعة والبعث بعد الموت لأن حالةَ أصحابِ الكَهفِ في نَومِهم وانتباهتِهم بعدَ مُدَّةٍ طَويلةٍ كحالِ مَن يموتُ ثُمَّ يُبعَث[107].

وقَولُه تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ في المشارِ إليهم بهذا العلمِ قولان: أحدهما: أنَّهم أهلُ بلدِهم حينَ اختصموا في البعثِ، فبعَث الله أهلَ الكهفِ ليعلموا أن وعدَ اللَّهِ بالبعثِ والجزاءِ حَقٌّ، وأنَّ القيامةَ لا شكَّ فيها، هذا قولُ الأكثرينَ. والثاني: أنَّهم أهلُ الكهفِ، بعثناهم ليرَوْا بعدَ علمِهم أن

107- يُنظر: تفسير ابن جرير 215/15، تفسير الزمخشري 711/2، تفسير القرطبي 378/10، 379، تفسير ابن عاشور 288/15.

وعدَ الله حقٌّ. قال الزجاج: أي: لِيَعلَمَ الذين يُكَذِّبون بالبعثِ أن وَعدَ الله حَقٌّ، ويزدادَ مَن يؤمِنُ به إيمانًا. وقال ابنُ كثير: إنَّه كان قد حصَلَ لأهلِ ذلك الزمانِ شَكٌّ في البَعثِ وفي أمرِ القيامةِ. وقال عِكرمةُ: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تُبعَثُ الأرواحُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ، فبَعَثَ اللهُ أهلَ الكهفِ حُجَّةً ودَلالةً وآيةً على ذلك[108]. وقال القاسمي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أنمناهم وبعَثْناهم لِما في ذلك من الحكمةِ، أطلَعْنا عليهم أهلَ المدينةِ حتى دخَلَها مَن بعثوه للطَّعامِ، وأخرج وَرِقَهم المتقادِمةَ العَهد[109]. قيل: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إمَّا أن المعنى: بقيامِ الساعة الذي كان يُنكِرُه هؤلاء، أو لأن الله تعالى ينجِّي المؤمنينَ مِن الكفار، لأن هؤلاء السبعةَ نَجَوا من أمَّةٍ عَظيمةٍ تقاتِلُهم وتنهاهم عن التوحيدِ﴾.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: وأنَّ القيامةَ حَقٌّ، لا شَكَّ في مجيئِها، واقعة لا محالة، ووقُوعِ الثَّوابِ والعقابِ فيها[110]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: 59]. فيعلموا أن وَعْد الله حق، ويُوقنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله تعالى يحيي الموتى ويبعث من في القبور.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: أي أعْثَرْنا على أصحابِ الكهفِ حينَ اختَلَف أهلُ ذلك الزمانِ في البعثِ بعدَ الموتِ، إذ يتنازَعُ المطَّلِعونَ على أصحابِ الكَهفِ في أمرِ البعثِ بعدَ الموتِ، فمِن مُثْبِتٍ للوعد والجزاء ومِن مُنْكِرٍ، مِنهم مَن يؤمنُ به، ومِنهم مَن ينكرُه فانقسموا إلى طائفتين، فطائفة قالت تبُعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، بل تأكلها الأرض، وطائفة أخرى قالت تبعث الأرواح والأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على البعث، أي ها أنتم ما زِلْتم على قَيْد الحياة وفي سَعَة الدنيا، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم، وقد عُثِر عليهم وما زالت فيهم حياة. ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ

108- تفسير ابن كثير 146/5.
109- تفسير القاسمي 15/7.
110- ينظر: تفسير ابن جرير 215/15، البسيط للواحدي 572/13، تفسير القاسمي 15/7، تفسير ابن عاشور 288/15.

أَمْـرَهُمْ﴾ متعلقـة بكلمـة "أعثرنـا"، أعثرنـا علـيهم حتـى تنـازعوا أمـرهم بينهم، تنازعوا فيما بينهم ماذا نفعل بهم؟ أنتركهم أم ماذا نصنع بهم؟

﴿**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**﴾ فقال الذين أعثَرَهم اللهُ على أصحابِ الكَهفِ، وقيل إنه قول الملك: ابنوا عليهم بنيانا، أي بناءً يَحجُبُهم، سدوا عليهم باب الكهف وذروهم على حالهم حتى يكون أثرًا من الآثار وحماية لهم. ربُّهم أعلَمُ بحالِهم وشَأنِهم. قال الواحدي: قوله: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ يعني: استُروهم مِن الناسِ، قال ذلك المفسِّرونَ. قال الرسعني: أرادوا ستَرَهم عن أعينِ الناسِ؛ حفظًا لهم، وزيادةً في الإكرام لهم، واحترامِهم بتغييبِهم عن الأبصارِ. وقال ابن كثير: سُدُّوا عليهم بابَ كهفهم، وذَروهم على حالِهم [111]. وقال ابن عاشور: وإنما ارتأَوا أن يَبنوا عليهم بنيانًا لأنهم خَشُوا عليهم من تردُّد الزائرينَ غيرِ المتأدِّبينَ فلعلَّهم أن يُؤذوا أجسادَهم وثيابَهم باللَّمسِ والتَّقليبِ، فأرادوا أن يبنُوا عليهم بناءً يُمكِنُ غَلقُ بابِه وحراستُه [112]. وقيل إن الملك أراد أن يدفنهم في صندوق من ذهب فأتاه آتٍ في المنام ويقال إن هذا الآتي من الفتية أنفسهم فقال للملك أردت أن تجعلنا في صندوق من الذهب فلا تفعل فإنا من التراب خُلقنا وإليه نعود فدعنا.

﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ وقال الرُّؤساءُ أصحابُ الغَلَبةِ والنُّفوذِ وهم أمراؤهم، الغلبة أصحاب الكلمة والنفوذ دائما تكون للسلطان للملك وحاشيته وأتباعه، لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا أي لنجعلن على مكانِهم مَسجِدًا للعبادةِ نتخذه مصلًّى، نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم بدل من أن نبني بنيانًا نحوطهم به ونسترهم به ولا يكون لهم أثر، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فاتخاذ المساجد على القبور من وسائل الشرك، وقد جاءت شريعتنا بمحاربته حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في سكرات الموت لم تشغله سكرات الموت عن تحذير أمته من اتخاذ

111- تفسير ابن كثير 147/5 تفسير الرسعني 263/4 البسيط 573/13.
112- تفسير ابن عاشور 289/15.

قبور الأنبياء مساجد فقال: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[113]. يُحذِّر ما صنعوا. وروي عن أبي مرصد الغنوي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها"[114]، أي لا تتخذوها قبلةً فتصلوا إليها أو تصلوا عليها كما فعل اليهود والنصارى، فقد كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد يصلون إليها وعليها وذلك يؤدي إلى عبادة من فيها. أي قاموا يعبدون من فيها.

وهذا هو السبب في عبادة الأصنام عندما نشأت في قوم نوح فقد كان هناك رجال صالحون في ذلك الزمان وهم: وَدّ، وسُوَاع، ويَغوث، ويَعوق، ونَسر. ولما ماتوا قال الناس نقيم لهم صورًا تعظيمًا لهم وحتى لا ننساهم. فأتت الأجيال التالية وظنوا أن آباءهم كانوا يعبدون هذه الصور. فبدأت عبادة الأصنام. وعن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من تصاوير فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا واتخذوا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة"[115]. فحذر صلى الله عليه وسلم من مثل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد"[116].

إذن لا يجوز أن يُبنى القبر نفسه ولا يُبنى عليه، فضلا عن أن يبنى عليه مسجد. وفي هذه القصة، دليل على أن من فر بدينه من الفتن، سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب. قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198].

113- متفق عليه. البخاري: كتاب: الصلاة.
114- صحيح مسلم.
115- متفق عليه.
116- قال الألباني صحيح ورواه مالك مرسلًا.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]

ثم يحكي الله تعالى ما حصَل مِن خلافٍ حولَ عددِ أصحابِ الكهفِ قائلًا: سَيَقُولُونَ الضمير في "سيقولون" عائد على من تقدم ذكرهم وهم المتنازعون في حديثهم أي سيقولُ بَعضُ الخائِضينَ في عَدَدِ أصحابِ الكَهفِ: هم ثلاثةٌ رابِعُهم كَلبُهم، ويقولُ بعضُهم: هم خَمسةٌ سادِسُهم كلبُهم، وكلامُ الفريقينِ بمُجَرَّدِ الظَّنِّ والتَّخمينِ، مِن غيرِ عِلمٍ ولا يقينٍ ولا دَليلٍ[117]. ويقولُ بَعضُهم: هم سبعةٌ وثامِنُهم كَلبُهم، أو أنهم سيترددون مرة يقولون: ثلاثة، ومرة يقولون: خمسة، ومرة يقولون: سبعة. اختلفت الآراء في عدة أصحاب الكهف كم كانوا على ثلاثة آراء ولكن الله أشار في هذه الآية إلى بطلان قولين: ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ و﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كلا القولين قال الله تعالى إنهم قالوه: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي راجمين بالغيب، وليس عندهم يقين. أي قولا بلا علم كما نرمي إلى مكان لا نعرفه بدون أي علم. والصواب رأي واحد وهو الثالث، والدليل على ذلك أنه لما قال ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقل: رجمًا بالغيب، بل سكت. وهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم، لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث صار الثالث صوابًا. نظيره قول الله تبارك وتعالى في المشركين إذا فعلوا فاحشة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ هذا واحد، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذا اثنان. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28]، فأبطل

117- ينظر: تفسير ابن جرير 218/15، الوسيط للواحدي 142/3، تفسير ابن عطية 507/3، 508، تفسير ابن كثير 147/5.

قــولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَــا بِهَــا﴾ وســكت عــن الأول، فــدل علــى أن الأول: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ صحيح.

﴿قُل رَّبِّـي أَعْلَـمُ بِعِـدَّتِهِم مَّـا يَعْلَمُهُـمْ إِلَّا قَلِيـلٌ﴾ أمـر الله نبيـه فـي هـذه الآيـة أنــه إذا حصـل نـزاع فقـل للنــاس: ﴿رَّبِّـي أَعْلَـمُ بِعِـدَّتِهِم﴾ إرشــاد إلــى أن الأحســن فــي مثـل هـذا المقـام رد العلـم إلــى الله تعـالى فلـم يُبـيّن لنــا الله ســبحانه عــددهم الحقيقــي، وأمرنــا أن نتــرك هــذا لعلمــه ســبحانه، ولا نبحـث فـي أمـر لا طائـل منــه، ولا فائـدة مـن ورائــه، إذ لا احتيـاج إلــى الخـوض فـي مثـل ذلـك بـلا علـم، فـالمهم أن يثبـت أَصْـل القصـة وهـو: الفتيـة الأشـدّاء فـي ديـنهم والـذين فَـرُّوا بـه وضَـحَّوْا فـي سـبيله حتـى لا يفتـنهم أهـل الكفـر والطغيـان، وقـد لجـأوا إلـى الكهـف ففعـل الله بهـم مـا فعـل، وجعلهـم آيـة وعبـرةً ومـثَلًا وقـدْوة. أمـا فرعيـات القصـة فهـي أمـور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر.

﴿رَّبِّـي أَعْلَـمُ بِعِـدَّتِهِم مَّـا يَعْلَمُهُـمْ إِلَّا قَلِيـلٌ﴾ قـال ابـن عبـاس: إنـا مـن القليـل الذين يعلمون عدتهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿فَـلا تُمَـارِ فِـيهِمْ إِلَّا مِـرَاءً ظَـاهِرًا﴾ المـراء هنـا بمعنــى الجـدال المنهــي عنــه، والممــاراة معناهــا المجادلــة، لا تمــار أي: فــلا تُحــاجِجْ -يــا مُحمَّــدُ- فــي أصــحابِ الكَهـفِ إلّا مُحاجَّــةً ظــاهِرةً، ولا تُجهِـدْ نَفسَـك فيمــا لا طائِـلَ مِـن ورائِـه [118]، فيهم أي فـي شـأنهم، فـي زمـانهم، فـي مكـانهم، فـي مـآلهم، بعـدما أوحـى إليـك مـن شـأنهم مـا أوحـى الله جـل وعـلا وأن تخبـرهم بمـا أوحــاه الله إليـك مـن نبـأ أصـحاب الكهـف، ﴿إِلَّا مِـرَاء ظَـاهِرًا﴾ يعنــي إلَّا مــراءً علــى اللســان لا يصـل إلــى القلـب، أي جـادلهم بـالتي هـي أحسـن، ويؤخـذ مـن هـذا أن مـا لا فائـدة للجـدال فيـه لا ينبغـي للإنسـان أن يتعـب قلبه في الجدال به.

﴿وَلا تَسْـتَفْتِ فِـيهِم مِّـنْهُمْ أَحَـدًا﴾ أي: ولا تَسـألْ -يـا مُحمَّـدُ- فـي أصـحابِ الكَهـفِ أحـدًا مِـن أهـلِ الكِتـابِ ولا تستفتِ فـي أهـل الكهـف، وقيـل: المـرادُ

118- يُنظر: تفسير ابن جرير 220/15، 221، تفسير القرطبي 384/10، تفسير ابن كثير 148/5، تفسير السعدي ص: 474.

بقولِه: مِنْهُمْ: عمومُ النَّاسِ، سواءٌ من أهلِ الكتابِ أم مِن غيرهم. أحدًا عن حالهم وزمانهم ومكانهم. وفيه إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي أن يستفتي من ليس أهلًا للإفتاء، حتى وإن زعم أن عنده علمًا فلا تَسْتَفْتِهِ إذا لم يكن أهلًا، ينهانا الله عز وجل عن استفتاء الجاهل الذي لا علم له وعلينا أن نستفتى العلماء المتخصصين والراسخين في العلم الذين تعلموا الكتاب والسنة في المواقف والأمور التي تنزل بنا. وقد رُوي أنه صلى الله عليه وسلم سأل نصارى نجران عنهم فنُهي عن السؤال، وفي هذا دليل على نهي مراجعة أهل الكتابِ في شيء من العلم، لماذا؟ لأنهم لا علم لهم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾
[الكهف: 23-24]

يقال إن الله عز وجل عاتب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ، ذكروا أن قريشًا أرسلت إلى اليهود في المدينة وقالوا: إن رجلًا بعث فينا يقول إنه نبي، فقالوا: اسألوه عن ثلاثة أشياء: عن فتية خرجوا من مدينتهم ولجأوا إلى غار، ما شأنهم. وعن رجل مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها. وعن الروح. ثلاثة أشياء. فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف، فقال: ﴿أخبركم غدًا﴾، فتوقف الوحي نحو خمسة عشر يومًا لم ينْزل عليه، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يدري عن قصص السابقين كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]. ولكن الله اختبره، فأمسك الوحي خمسة عشر يومًا. الشاهد من هذا الموقف أن الخطاب عام للمكلفين، فنهى الله أن يقول العبد في الأمور المستقبلة "إني فاعل ذلك" من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيب المستقبل الذي لا يدري هل يفعله أم

لا؟ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله، وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه. ولما كان العبد بشرا، لا بد أن يسهو فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر ليحصل المطلوب. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله صلّى الله عليه وسلّم: "قَالَ سُلَيْمَانُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ أن شَاء الله فَلَمْ يَقُلْ أن شَاءَ الله فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَأَيْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إن شَاء الله لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ"[119]. فنزلت عليه هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾، فلم يعاجله الله تعالى بالعتاب، بل قضى له حاجته، ثم لفت نظره إلى أمر هذه المخالفة. وهذا من رحمة الله برسوله صلى الله عليه وسلم، كما خاطبه بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43]، فقدم العفو أولًا وقرره لأن هذه المسألة منتهية ومعلومة للرسول صلى الله عليه وسلم. ثم عاتبه بعد ذلك. ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هذا خطاب وإرشاد من الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ينهَى الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإخبارِ عن فعلِ شيءٍ مستقبلًا إلَّا بعدَ تقديمِ مشيئتِه سبحانَه، فيقولُ: ولا تقولَنَّ -يا محمَّدُ- لشَيءٍ تَعزِمُ على فِعلِه: إنِّي فاعِلٌ ذلك الشَّيءَ غدًا، إلَّا أن تُعَلِّقَ قَولَك بالمَشيئةِ، فتقولَ: أن شاء الله، يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لأن المشيئة كلها لله كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ هذه الآية لها وجهان، الأول: يقال إن معنى ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت هذا الاستثناء ﴿إِلَّا أن يَشَاء اللَّهُ﴾ ساعة البَدْء في الفعل فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان في بداية الأمر، يعني اذكر أمر ربِّك بأن تقول: "إن شاء الله" إذا نسيت

119- متفق عليه. البخاري: كتاب: الإيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي. 6639. مسلم: كتاب الأيمان، باب: الاستثناء. 1654، 25. واللفظ للبخاري.

أن تقولها، لأن الإنسان قد ينسى وإذا نسي فقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]. أي: إن قُلتَ -يا محمَّدُ-: سأفعَلُ شيئًا غدًا، ونَسِيتَ أن تقولَ: إن شاءَ اللهُ، فاذكُرْ رَبَّك بعد نِسيانِك بقَولِك: إن شاء اللهُ. قال ابنُ كثير: ويحتَمِلُ في الآية وجهٌ آخرُ، وهو أن يكونَ اللهُ عزَّ وجَلَّ قد أرشدَ مَن نَسِيَ الشيءَ في كلامِه إلى ذِكر الله تعالى، لأن النسيانَ مَنشؤُه مِن الشَّيطانِ، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: 63]. وذِكْرُ اللهِ تعالى يطرُدُ الشَّيطانَ، فإذا ذهب الشَّيطانُ ذهب النِّسيانُ، فذِكْرُ الله سببٌ للذِّكرِ. قال السعدي: ويُؤخَذُ مِن عمومِ قولِه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمرُ بذكرِ الله عندَ النسيانِ، فإنَّه يزيلُه، ويُذكِّرُ العبدَ ما سها عنه[120]. وقيل: هذه الآية فيمَن نسِي صلاةً فعليه أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها"[121]، وهو مرويٌّ عن السُّديِّ والضحَّاكِ[122].

﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾: «عسى» بمعنى الرجاء إذا وقعت من المخلوق، فإن كانت من الخالق فهي للوقوع، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 98-99]. عسى هنا واقعة، وقال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]. أما من الإنسان فهي للرجاء، كقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ هذه للرجاء. أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- داعيًا ربَّك: أرجو أن يهديني ويعينني ويوفِّقني ربِّي، ويَدُلَّني إلى طريقٍ هو أقرَبُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى الهُدى والرَّشادِ ويُثبِّتَني عليه.

120- يُنظر: تفسير ابن كثير 149/5، تفسير السعدي ص: 474.
121- صححه الألباني.
122- يُنظر: البسيط للواحدي 586/13، أضواء البيان للشنقيطي 255/3 يُنظر: تفسير ابن جرير 225/15.

﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي هدايـة وتوفيقًا لأقرب الطرق الموصلة إلى الهدى والرشاد [123].

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن استفتاءِ أهلِ الكتابِ في شأنِ أهلِ الكَهفِ لِعَدَمِ عِلمِهم بذلك وكان اللهُ عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، العالمَ بكُلِّ شَيءٍ، أخبَرَ بمُدَّةِ لُبثِهم، وأنَّ عِلمَ ذلك عنده وَحدَه، فإنَّه مِن غَيبِ السماوات والأرضِ، وغَيبُها مختَصٌّ به سُبحانَه، فما أخبَرَ به عنها على ألسنةِ رُسُلِه، فهو الحَقُّ اليقينُ الذي لا يُشَكُّ فيه، وما لا يُطلِعُ رُسُلَه عليه فإنَّ أحدًا من الخَلقِ لا يَعلَمُه. وأيضًا فإنَّه لَمَّا فَرَغ اللهُ تعالى مِن هذه التَّربيةِ في أثناءِ القِصَّةِ، وخَتَمَها بالتَّرجيةِ في الهدايةِ للأرشَدِ، وكان عِلمُ مُدَّةِ لُبثِهم أدَقَّ وأخفى مِن عِلمِ عَدَدَهم، شَرَعَ في إكمالِها مُبَيِّنًا لهذا الأخفى [124].

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا خبر من الله تعالى إلى رسوله يبينُ المدةَ التي مكَثها الفتيةُ في الكهفِ منذ أرقدهم إلى أن بعثهم، ﷺ، فيقولُ: ومكثَ الفِتيةُ نِيامًا في كَهفِهم ثلاثَمِئةِ سَنةٍ وتِسعَ سِنينَ.

من الإعجاز العلمي في كتاب الله: أن ثلاثمئة عام ميلادي تساوي بالضبط ثلاثمئة وتسع سنوات هجرية، فربنا عزَّ وجل أعطى المدة على التقويمين، الشمسي والقمري وهذا إعجاز عددي.

123- ينظر: تفسير البغوي- 187/3، تفسير الخازن- 161/3، تفسير العليمي- 168/4، تفسير السعدي- ص: 474.
124- يُنظر: تفسير السعدي- ص:474 .نظم الدرر للبقاعي 46/12.

والإعجاز الرياضي: التقليب ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

والإعجاز الثالث: حفظ الأجسام ثلاثمائة وتسع سنين؛ فالله عز وجل حفظ هذه الأجسام كما هي عليه ساعة نومها مدة ثلاثمائة عام. ولذلك لما نسمع أن فلانًا بقي في قبره سنوات طويلة دون أن يفنى، قد يكون صالحًا، وقد يكون وليًا لله عز وجل، فليس شرطًا أن تفنى الأجساد بعد الموت.

﴿سِنِينَ﴾ تمييز مبين لثلاثمائة لأنه لولا كلمة سنين لكنا لا ندري هل ثلاثمائة يوم أو ثلاثمائة أسبوع أو ثلاثمائة سنة؟ فلما قال: ﴿ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ﴾ بيَّن ذلك. ولما سمع أهل الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا: نعرف ثلاثمائة سنة، ولكن لا نعرف التسعة، ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حسابًا شمسيًا، ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السماوات والأرض قسم الزمن تقسيمًا فلكيًا، فجعل الشمس عنوانًا لليوم، نعرفه بشروقها وغروبها، ولما كانت الشمس لا تدلنا على بداية الشهر، جعل الخالق سبحانه الشهر مرتبطًا بالقمر الذي يظهر هلالًا في أول كل شهر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36]. فلو حسبنا الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدناها ثلاثمائة سنة وتسعًا، إذن: هي في الحساب الشمسي ثلاثمائة سنة، وفي الحساب القمري ثلاثمائة وتسعًا، ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يومًا تقريبًا في كل عام، فكانت الزيادة التسعة من السنين القمرية لأنها تابعة للفرق بين السنة الشمسية والقمرية الذي هو أحد عشر يوما.

والمتأمل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيرًا من الآيات والعجائب: فلو تتبعنا مثلًا الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة لوجدنا أن كلمة "الله أكبر" نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من مُلْك الله تعالى، وفي الوقت الذي ينادي فيه إنسان "الله أكبر" يُنادي آخر "أشهد ألا إله إلا الله" وينادي آخر "أشهد أن محمدًا رسول الله" وهكذا

دورة في منظومة لا تتوقف. وكذلك في الصلاة، ففي الوقت الذي نصلي الظهر، هناك آخرون يُصلّون العصر، وآخرون يُصلُّون المغرب، وآخرون يُصلّون العشاء، فلا يخلو كَوْنُ الله في لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد. إذن: فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة في كُلِّ أوقات الزمن، وبكُلّ ألوان العبادة. المغزى من هذه القصة: أن نؤمن بعلم الله تعالى، أن نؤمن بقدرة الله تعالى. أن نؤمن بكرامات الأولياء. أن يكون هؤلاء أصحاب الكهف في محنتهم، وفي الحياة الفاسدة التي عاشوا فيها، وفي لجوئهم إلى الكهف قدوةً لنا. والعبرة: أن نكون كهؤلاء الفتية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. أن نعتزل الفسقة من الناس كما اعتزل هؤلاء. أن نتوكل على الله عز وجل كما توكل هؤلاء. أن نحب الله أكثر من كل شيء، كما أحب اللهَ هؤلاء الفتية.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾
[الكهف: 26]

قُل يا محمدُ: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لُبثِهم في الكَهفِ، له غيبُ السَّمَاواتِ والأرضِ، لا يعزب عنه علم شيء، ولا يخفى عليه شيء، فسلموا له علم مبلغ ما لبثت الفتية في الكهف، فإن ذلك لا يعلمه سوى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وليس ذلك إلا الله الواحد القهار[125]. وقيل ﴿أي: له ما غاب في السَّماواتِ والأرضِ، أو له عِلمُ غَيبِ السَّماواتِ والأرضِ، وكِلا المعنيينِ حَقٌّ كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

125- يُنظر: تفسير ابن جرير- 233/15، تفسير ابن كثير- 150/5، تفسير القاسمي- 25/7، تفسير السعدي- ص: 474، أضواء البيان للشنقيطي 256/3.

[الأنعام: 59]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61]. وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]. وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]. فلهذا من ادعى علم الغيب فهو كافر، والمراد بالغيب المستقبل، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا أشد الحرص على استقرار هذه العقيدة في نفوس أصحابه، عقيدة أنه لا يعلم الغيب إلا الله حتى يقال إنه في أحد الأيام عندما دخل على عروس صبيحة بنائها وجد جَوَارٍ يُغَنِّينَ عندها فقالت إحداهن وهي تغني: وفينا رسول يعلم ما في غد فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: "دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين ولا تقولي وفينا رسول يعلم ما في غد لأنني لا أعلم الغيب"[126].

﴿أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ﴾ هذا يسميه النحويون فعل تعَجُّب. تعجب من إحاطة الله عز وجل بالمرئيات بصرا وبالمسموعات سمعا ﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ بمعنى: ما أَبْصَرَهُ. و﴿أَسْمِعْ﴾ بمعنى: مَا أَسْمَعَهُ، والمعنى: ما أبصَرَ اللهَ لكُلِّ مَوجودٍ، وما أسمَعَه سبحانَه لكُلِّ صَوتٍ! وهو أعلى ما يكون من الوصف. والله تبارك وتعالى يبصر كل شيء، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، ويبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، وكذلك في السمع، يسمع كل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: 75]. يعلم السر وأخفى من السر ويعلم الجهر ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

تقول عائشة رضي الله عنها في قصة المجادِلة التي ظاهر منها زوجها، وجاءت تشتكي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت عائشة في الحجرة، والحجرة صغيرة كما هو معروف، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحاور المرأة، وعائشة يخفى عليها بعض الحديث، والله عزّ وجل يقول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

126- صحيح البخاري.

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1].

ورد في البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت: "الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ تَشْكُو زَوْجَهَا ومَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى قول عائشة رضي الله عنها آخر الحديث: "إني لفي الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض حديثها"[127]. والله عزّ وجل فوق كل شيء، ومع ذلك سمع قولها ومحاورتها للرسول صلى الله عليه وسلم، فعلينا الإيمان بأن الله تعالى ذو بصر نافذ لا يغيب عنه شيء وذو سمع ثاقب لا يخفى عليه شيء، والإيمان بذلك يقتضي من الإنسان ألا يُري ربَّه ما يكرهه ولا يُسمعه ما يكرهه لأننا أن عملنا أي عمل رآه وإن قلنا أي قول سمعه، وهذا يوجب أن نخشى الله عزّ وجل وألا نفعل فعلًا يكرهه ولا نقول قولًا يكرهه الله عزّ وجل، لكن الإيمان ضعيف، فنجد الإنسان عندما يريد أن يقول أو أن يفعل، لا يخطر بباله أن الله يسمعه أو يراه إلّا إذا نُبِّه، والغفلة كثيرة، فيجب علينا جميعًا أن ننتبه لهذه القضية العظيمة.

﴿**مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ**﴾ ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة، أي: ليس للخَلقِ في السماوات والأرضِ مِن دونِ اللهِ مِن وَليٍّ غَيرُه يُدَبِّرُ شُؤونَهم، ويتولَّى أمورَهم، وليس له شَريكٌ في حُكمِه وقَضائِه بين خَلقِه سُبحانَه وتعالى فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، ومن ذلك أنَّه تولَّى شأنَ أصحابِ الكَهفِ بلُطفِه وكَرَمِه، ولم يَكِلْهم إلى أحَدٍ مِن خَلقِه.

قال بعضُ العُلَماءِ: الضميرُ في قولِه: مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ راجعٌ لأهلِ السماوات والأرضِ المفهومينَ مِن قَولِه تعالى: ﴿**لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾. وقيل: الضميرُ في قولِه: مَا لَهُمْ راجعٌ لمعاصِرِي النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الكُفَّارِ، ذكَرَه القرطبي. وعلى كلِّ حالٍ فقد دلَّت الآياتُ المتقَدِّمةُ أن ولايةَ الجَميعِ لخالِقِهم جلَّ

127- صححه الألباني.

وعلا، وأنَّ منها ولاية ثوابٍ وتوفيقٍ وإعانةٍ، وولية مِلْكٍ وقَهرٍ ونُفوذٍ ومَشيئةٍ. والعِلمُ عند الله تعالى [128]. فهو الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق، والضمير يعود على من هم في السماوات والأرض وليس على أصحاب الكهف فقط والله تعالى أعلى وأعلم، يعني ليس لأحد ولي، ناصر، من دون الله، حتى الكفار وليهم الله عزّ وجل والمؤمنون وليهم الله عزّ وجل قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام:61-62]. الله ولي كُلِّ أحد، وهذه هي الولاية العامة، أليس الله تعالى يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية عامة. أما الولاية الخاصة، فهي للمؤمنين. قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]، والولاية الخاصة تستلزم عناية خاصة، أن الله يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم، فيعلمهم أولًا ويخرجهم ثانيًا بالتوفيق.

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾:

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالتاءِ والجزمِ، بتوجيهِ الخطابِ، قال ابنُ خالَويه: والحُجَّةُ لِمَن قرأه بالتاءِ والجزمِ: أنَّه قصد الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووجَّهَه إلى غيرِه، وجَعَل «لا» للنَّهيِ، فجَزَم بها.

128- يُنظر: تفسير ابن جرير- 234/15، البسيط للواحدي 596/13، تفسير ابن كثير- 151/5، تفسير السعدي- ص: 474، أضواء البيان للشنقيطي 257/3- 258.

2- وقال أبو علي الفارسي: قراءةُ ابنِ عامرٍ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ أنت -أيُّها الإنسانُ- في حُكمِه، على النهيِ عن الإشراكِ في حُكمِه. فلا يَحكُم بين النَّاسِ بغيرِ حُكمِ اللهِ، قرأ بها ابن عامر.

3- قِراءةُ ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بالياء والرَّفع، على الخبَرِ عن اللهِ تعالى أنَّه نفى عن أيِّ أحدٍ مِن خَلقِه إشراكَه في حُكمِه وقَضائِه، أي: لا يُشرِكُ اللهُ في حُكمِه أحدًا سواه، فهو المتفَرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ بين العبادِ، قرأ بها الباقون [129].

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: أي: ولا يُشرِكُ اللهُ في قَضائِه بين خَلقِه وفي تدبيرِهم أحدًا سواه، فهو المتفرِّدُ وَحدَه بالحُكمِ في خَلقِه قَضاءً وقَدَرًا، وخلْقًا وتدبيرًا، وبالحُكمِ فيهم أمرًا ونهيًا، وثوابًا وعقابًا. وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه قضاء وقدرا، وخلقا وتدبيرا، والحاكم فيهم، بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10]. فالخلق والتدبير حكم كوني، والحكم بين الناس بالأوامر والنواهي حكم شرعي، فلا أحد يشرك الله في حكمه لا الكوني ولا الشرعي، لأنه غني عن الشريك، وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي، وأنه ليس لنا أن نُشَرِّع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات [130].

الهدايات والفوائد التربوية:

129- يُنظر: النشر لابن الجزري 310/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: تفسير ابن جرير- 234/15، الكشف لمكي 59/2، الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي 141/5.
130- يُنظر: تفسير ابن جرير- 234/15، تفسير السعدي- ص: 474، أضواء البيان للشنقيطي 258/3.

1- الخُلاصةُ التي تُستخلَصُ مِن قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ هي: أن كُلَّ مَنِ التجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّ اللهَ تعالى يحميه بأسبابٍ قد يُدرِكُها وقد لا يُدرِكُها، وهو مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]، فإنَّ مُدافعةَ اللهِ عن المؤمنينَ قد تكونُ بأسبابٍ معلومةٍ، وقد تكونُ بأسبابٍ مجهولةٍ لهم؛ فهذا يُرشِدُنا إلى أن نُحَقِّقَ الإيمان بالله عزَّ وجَلَّ، والقيامَ بطاعتِه.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على أن مَن فَرَّ بدِينِه مِن الفِتَنِ، سَلَّمَه اللهُ منها، وأنَّ مَن حَرَص على العافيةِ عافاه الله، ومَن أوى إلى الله آواه الله، وجعلَه هدايةً لغيرِه، ومن تحمَّلَ الذُّلَّ في سبيلِه وابتغاءَ مَرضاتِه، كان آخِرَ أمْرِه وعاقِبتَه العِزُّ العظيمُ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ فالخوفُ العظيمُ مِن أهلِ الكَهفِ وقتَ إيمانِهم، ودخولِهم في الغارِ، أبدلهم الله به بعدَ ذلك أمنًا وتعظيمًا مِن الخلقِ، وهذه عوائِدُ الله فيمن تحمَّلَ المشاقَّ مِن أجلِه: أن يجعَلَ له العاقِبةَ الحَميدةَ [131].

3- قَولُ الله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ أبهم تعالى على عُمومِ النَّاسِ الإعلامَ بذلك، لحِكمةٍ، وهي أن تتعوَّدَ الأمَّةُ بتَركِ الاشتغالِ فيما ليست منه فائدةٌ للدينِ أو للنَّاسِ [132].

4- قَولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ اشتملَ على الأدَبِ في هذا المقامِ، وتعليمِ

131- يُنظر: تيسير اللطيف المنان للسعدي 289/1.
132- يُنظر: تفسير ابن عاشور- 290/15

ما ينبغي في مِثْلِ هذا؛ فإنَّه تعالى أخبَرَ عنهم بثلاثةِ أقوالٍ، ضَعَّفَ القَولَينِ الأوَّلَينِ، وسَكَتَ عن الثَّالثِ، فدلَّ على صِحَّتِه، إذْ لو كان باطِلًا لردَّه كما ردَّهما، ثمَّ أرشدَ إلى أن الاطِّلاعَ على عِدَّتِهم لا طائِلَ تحتَه، فيُقالُ في مِثلِ هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، فإنَّه ما يعلمُ بذلك إلَّا قليلٌ مِن النَّاسِ ممَّن أطْلَعَه اللهُ عليه، فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تُجْهِدْ نفسَك فيما لا طائِلَ تحته، ولا تَسألْهم عن ذلك؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ مِن ذلك إلَّا رَجْمَ الغَيبِ، فهذا أحسنُ ما يكونُ في حكايةِ الخلافِ: أن تُستوعَبَ الأقوالُ في ذلك المقامِ، وأن يُنبَّهَ على الصَّحيحِ منها، ويُبطَلَ الباطِلُ، وتُذكَرَ فائِدةُ الخلافِ وثَمرتُه؛ لئلَّا يَطولَ النزاعُ والخِلافُ فيما لا فائدةَ تحتَه، فيُشتَغَلَ به عن الأهَمِّ، كذلك مَن نَصَبَ الخِلافَ فيما لا فائِدةَ تَحتَه، أو حكى أقوالًا متعدِّدةً لفظًا، ويَرجِعُ حاصِلُها إلى قَولٍ أو قَولينِ معنًى؛ فقد ضَيَّعَ الزمانَ وتَكَثَّرَ بما ليس بصحيحٍ، فهو كلابِسِ ثَوبَي زُورٍ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ.

5- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ إرشادٌ إلى أن الأحسَنَ في مِثلِ هذا المقامِ رَدُّ العِلمِ إلى اللهِ تعالى، إذ لا احتياجَ إلى الخَوضِ في مِثلِ ذلك بلا عِلمٍ، لكِنْ إذا اطَّلَعْنا على أمرٍ قُلنا به، وإلَّا وقَفْنا حيث وقَفْنا، ففيه تعليمٌ للنَّاسِ أن يردُّوا عِلمَ الأشياءِ إلى خالِقِها جلَّ وعلا وإن عَلِموا بها، كما أعلم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمدَّةِ لُبثِهم في قَولِه: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]، ثم أمَرَه مع ذلك برَدِّ العلمِ إليه جلَّ وعلا في قَولِه جلَّ وعلا: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السماوات وَالْأَرْضِ﴾[133].

6- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ فيه دليلٌ على المَنعِ مِن استِفتاءِ مَن لا يَصلُحُ للفَتوى، إما لِقُصورِه في الأمرِ المُستفتَى فيه، أو لِكَونِه لا يُبالي بما تكَلَّمَ به، وليس عِندَه وَرَعٌ يَحجُزُه، وإذا نُهيَ

133- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 252/3- تفسير ابن كثير- 148/5.

عن استفتاءِ هذا الجِنسِ، فنَهيُه هو عن الفتوى مِن بابِ أولَى وأحرَى.

7- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فنهى أن يقولَ العبدُ في الأمورِ المُستقبَلة، إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ مِن دونِ أن يقرِنَه بمشيئةِ الله؛ وذلك لِما فيه من المحذورِ، وهو: الكلامُ على الغَيبِ المُستقبَلِ الذي لا يَدري هل يفعَلُه أم لا، وهل يكونُ أم لا، وفيه ردُّ الفِعلِ إلى مشيئةِ العبدِ استقلالًا، وذلك محذورٌ محظورٌ؛ لأن المشيئةَ كُلَّها لله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]، ولِما في ذِكرِ مَشيئةِ الله مِن تيسيرِ الأمرِ وتَسهيلِه، وحُصولِ البركةِ فيه، والاستعانةِ مِن العبدِ لرَبِّه.

8- من تَرَك شيئًا مِن ذِكرِ اللهِ الواجِبِ عليه سَهوًا، فلْيعُدْ إليه إذا ذَكَر، كما قال تعالى :وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ؛ فقد أمَرَه إذا نسيَ رَبَّه أن يذكُرَه بعد ذلك، فمن نسيَ الصَّلاةَ فقد نسيَ ذِكرَ رَبِّه، فإذا ذكَرَ أنَّه نَسِيَ فلْيعُدْ إلى ذكرِ الله بعدَ نِسيانِه [134]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

9- في قَولِه تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ الإيمان بأنَّ اللهَ تعالى ذو بَصَرٍ نافذٍ لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وذو سَمعٍ ثاقبٍ لا يخفَى عليه شَيءٌ، والإيمانُ بذلك يَقتَضي للإنسانِ ألَّا يُريَ ربَّه ما يكرَهُه، ولا يُسمِعه ما يكرَهُه، لأنك أن عَمِلتَ أيَّ عَمَلٍ رآه، وإنْ قُلْتَ أيَّ قولٍ سَمِعَه، وهذا يُوجِبُ أن تخشى اللهَ عزَّ وجلَّ، وألَّا تفعلَ فِعلًا يَكرَهُه، ولا تقولَ قَولًا يَكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ.

10- إنَّ قصةَ أصحابِ الكَهفِ هي مِن آياتِ الله، آيةٌ على أصولِ الإيمان الثلاثةِ: الإيمان باللهِ، واليومِ الآخِرِ، والإيمانُ برَسولِه،

134- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 473، فتح الباري لابن رجب 133/5.

ومع هذا فليسوا من آيات اللهِ بعَجَبٍ، بل مِن آيات اللهِ ما هو أعجَبُ مِن ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿أم حَسِبْتَ أن أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آياتنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9].

11- اتخاذُ القبورِ مساجدَ ليس هو مِن شريعةِ الإسلامِ، بل مِن عملِ اليهودِ، وقد لعَنهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم على ذلك، وقال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعَل اتِّخاذَ المساجِدِ على القُبورِ مِن فِعْلِ أهلِ الغَلَبةِ على الأمورِ، وذلك يُشْعِرُ بأنَّ مُستَنَده القَهْرُ والغَلَبةُ واتِّباعُ الهوى، وأنَّه ليس مِن فِعْلِ أهلِ العِلمِ والفَضلِ المُتَّبِعينَ لِمَا أنزلَ اللهُ على رُسُلِه مِن الهُدى [135].

12- قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ مِن فوائِدِ الآيةِ أن مِن أسبابِ بناءِ المَساجِدِ على القُبورِ الغُلوَّ في أصحابِ القُبورِ، لأن الذين غَلَبوا على أمْرِهم بَنَوا عليهم المساجِدَ لأنهم صاروا عِندَهم مَحَلَّ الاحترامِ والإكرامِ، فغَلَوا فيهم.

13- هنا نُكتةٌ في مسألةِ العَدَدِ؛ فاللهُ تعالى قال: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يقُلْ: "ثمانيةٌ ثامِنُهم كلبُهم" لأن الكلبَ مِن غيرِ الجِنسِ، وإذا كان مِن غيرِ الجِنسِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ في العددِ، ولكِنَّه يُجعَلُ بعدَه؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] ولم يَقُلْ: "مِن نجوى أربعةٍ إلَّا هو رابِعُهم"؛ لأنه خالِقٌ وهم مخلوقون.

14- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّا أن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريةِ واضحةٌ، ألا ترى أن الله جَلَّ جلالُه كيف أدَّب نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فأعلَمَه أن فِعلَه

135- يُنظر: فتح الباري لابن رجب 397/2.

الشيءَ -وإن كان منسوبًا إليه- فبمَشيئتِه يَفعَلُه، ونهاه أن يُطلِقَ القَولَ في فِعلِه بغيرِ استثناءِ مَشيئتِه[136].

15- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿23﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلَّا قَولًا مَقرونًا بمَشيئةِ الله؛ فقَرنُ ذلك بمشيئةِ الله يَستفيدُ منه الإنسان فائِدَتينِ عَظيمَتين:
إحداهما: أن اللهَ يُيَسِّرُ الأمرَ له حيث فوَّضَه إليه جلَّ وعلا.
والثانيةُ: أن لم يَفعَلْ، لم يَحنَثْ. قال الرسعني: والفائدةُ في الاستثناءِ: الخروجُ مِن الكذبِ، والتخلُّصُ مِن حنثِ الحالفِ إذا لم يفعلِ المحلوفَ عليه[137].

16- قَولُ الله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ استُدِلَّ بالتَّعجُّبِ فيه على جوازِ إطلاقِ صِيغةِ التعجُّبِ في صفاتِ اللهِ، كقَولِ: ما أعظَمَ اللهَ وما أجَلَّه[138]. ونقل الزجاجُ الإجماعَ في قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ على أن معناه: ما أسمَعَه وأبْصَرَه.

17- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ على قراءةِ: ﴿ولَا تُشْرِكْ﴾ فالمعنى: لا يجوزُ أن يَحكُمَ حاكِمٌ إلَّا بما حكَمَ اللهُ، أو بما يدُلُّ عليه حُكمُ الله، وليس لأحدٍ أن يَحكُمَ مِن ذاتِ نَفسِه، فيكونَ شَريكًا لله في حُكمِه[139].

18- يُفهِمُ قَولُه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ على كِلتا قراءتَيه[140]. وكذلك قولُه تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40]، وقولُه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50] إلى غيرِ ذلك مِن الآيات، أن متَّبِعي أحكامِ المشَرِّعين غيرَ ما شرَعَه

136- يُنظر: النكت الدالة على البيان للقصاب 186/2.
137- تفسير الرسعني- 268/4.
138- يُنظر: الإكليل للسيوطي ص:170- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 293/9.
139- يُنظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج 280/3.
140- تقدَّم ذكرُ القراءتينِ في القراءات ذات الأثرِ في التفسيرِ.

اللهُ، أنَّهم مُشرِكون باللهِ، وهذا المفهومُ جاء مُبيَّنًا في آيات أُخَرَ، كقَولِه فيمن اتَّبَع تشريعَ الشيطانِ في إباحةِ المَيتةِ بدعوى أنَّها ذبيحةُ اللهِ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]، فصَرَّح بأنَّهم مُشرِكون بطاعتِهم، وهذا الإشراكُ في الطاعةِ. واتِّباعُ التَّشريعِ المخالِفُ لِما شرعه اللهُ تعالى: هو المرادُ بعبادةِ الشَّيطانِ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60، 61]، وقَولِه تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ أن الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: 44]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: 117]، أي: ما يعبدون إلَّا شيطانًا، أي: وذلك باتِّباعِ تَشريعِه، ومِن أصرَحِ الأدلَّةِ في هذا: أن الله جلَّ وعلا في سورةِ ﴿النساء﴾ بيَّنَ أن مَن يريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما شرَعَه الله يُتعَجَّبُ مِن زعمِهم أنَّهم مؤمِنون، وما ذلك إلَّا لأن دعواهم الإيمان مع إرادةِ التَّحاكُمِ إلى الطاغوتِ بالغةٌ مِن الكَذِبِ ما يحصُلُ منه العَجَبُ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60] [141].

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27]

141- ينظر: أضواء البيان للشنقيطي 259/3.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أنزَل اللهُ تعالى على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أنزَل مِن قِصَّةِ أهل الكهفِ أمَرَه بأن يقُصَّ ويتلوَ على معاصريه ما أوحَى إليه تعالى مِن كتابِه في قِصَّةِ أهلِ الكَهفِ وفي غيرِهم [142]. وأيضًا لَمَّا دلَّ اشتمالُ القُرآنِ على قِصَّةِ أصحابِ الكَهفِ، مِن حيث إنَّها من المُغَيَّباتِ بالإضافةِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، على أنَّه وحيٌ مُعجِزٌ، أمَرَه أن يداوِمَ دَرسَه، ويلازِمَ أصحابَه [143]. وأيضًا لَمَّا أخبَر الله تعالى أن له غيبَ السماوات والأرضِ، فليس لمخلوقٍ إليها طريقٌ إلَّا عن الطريقِ التي يخبِرُ بها عبادَه، وكان هذا القرآنُ قد اشتملَ على كثيرٍ مِن الغيوبِ، أمر تعالى بالإقبالِ عليه، فقال [144]: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: بعد نهاية الحديث عن أصحاب الكهف أمر تعالى رسوله بتلاوة كتابه وإبلاغه إلى الناس فقال ﴿وَاتْلُ﴾، الأمْرُ في قولِه: "وَاتْلُ" كِنايةٌ عن الاستمرارِ. و "مَا أُوحِيَ" مُفيدٌ للعُمومِ، أي: كلَّ ما أُوحِيَ إليك، ومفهومُ الموصولِ: أن ما لم يُوحَ إليه لا يَتْلوه. ﴿وَاتْلُ﴾ أي: واقرأ ﴿مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، التلاوة الحكمية العملية أن نعمل بالقرآن، فإذا عملنا به فقد تلوناه أي تَبعناه، التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه، تعبدًا ودعوة للناس إلى ربهم به وتعليمًا للمؤمنين بما جاء فيه من الهدى. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، يشمل التلاوة اللفظية والحكمية.

142- يُنظر: تفسير أبي حيان- 165/7.
143- يُنظر: تفسير البيضاوي- 279/3.
144- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 475.

والخطاب في قوله: ﴿وَاتْلُ﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- **الأول**: ما دلَّ الدليل على أنه خاص به، فهو خاص به. مثال قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: 1]، فهذا لا شك أنه خاص به، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: 6]، فهو خاص به صلى الله عليه وسلم.
- **الثاني**: ما دلَّ الدليل أنه للعموم، فهو للعموم. مثال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: 1]، فقوله: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ للجماعة، وهم الأمة، لكن الله سبحانه وتعالى نادى زعيمها ورسولها لأنهم تابعون له فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، إذن، الخطاب يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الأمة.
- **الثالث**: ما يحتمل الأمرين، فقيل: إنه عام، وقيل: إنه خاص، وتتبعه الأمة لا بمقتضى هذا الخطاب، ولكن بمقتضى أنه أسوتها وقدوتها. ومثال قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾، الخطاب للأمة ولكن وُجِّه لزعيمها وأسوتها، لأن الخطابات إنما توجه للرؤساء والمتبوعين. مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ هو القرآن، وفي إضافة الرب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام دليل على أن ما أوحاه الله إلى رسوله من تمام عنايته به. أي: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- ما أوحاه اللهُ إليك من القُرآنِ، وبلِّغْه للناسِ، واتَّبِعْه بتصديقِ أخبارِه والعَمَلِ بما فيه، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه [145].

كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: 106]. وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿91﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: 91- 92]. وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: 43]. وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4].

145- يُنظر: تفسير ابن جرير- 234/15، تفسير السعدي- ص: 475، أضواء البيان للشنقيطي 261/3.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يغيِّرَ كَلِماتِ الله الشرعيةَ، فيُحَرِّفَ القرآنَ بتغييرِ أخبارِه، وتبديلِ أحكامِه، أو صرفِها عن معانيها الصَّحيحةِ ولا أن يُغيِّرَ كَلِماتِه الكونيةَ، لا مغير لها، ولا محرّف ولا مزيل، لا تُغير ولا تُبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115] فلتمامها، استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن الكتاب الجليل، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

وفي قولِه: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ قولان: أحدهما: لا يَقدِرُ المُفتَرون على الزيادةِ فيها والنقصانِ منها. والثاني: لا خُلفَ لمواعيده، ولا مغيِّرَ لحُكمِه. وقال ابن جرير: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مُغَيِّرَ لما أَوعَدَ بكلماتِه التي أنزلها عليك أهلَ معاصيه، والعاملينَ بخلافِ هذا الكتابِ الذي أوحيناه إليك﴾ [146]. وقال ابن جُزي: يحتملُ أن يُرادَ بالكلماتِ هنا: القرآنُ، فالمعنى: لا يُبدِّلُ أحدٌ القرآنَ ولا يغيِّره، ويحتمِلُ أن يريدَ بالكلماتِ: القَضاءَ والقدَرَ [147]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: 15].

﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ مُلْتَحَدًا: الالتحاد من اللحد وهو الميل يعني لن تجد أيها النبي من دون الله عزّ وجل أحدًا تميل إليه أو مَلجًا تلجأ إليه، ولا معاذا تعوذ به، ولا وليا، يعني لو أرادك أحد بسوء ما وجدت أحدًا يمنعك دون الله عزّ وجل أن أنت لم تَتلُ القرآنَ وتتَّبِعْه وتبلِّغْه. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿21﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 21-22] أي أنت يا محمد أن لم تتل ما أوحي إليك من كتاب

146- تفسير ابن جرير- 234/15.
147- يُنظر: تفسير ابن جزي- 464/1.

ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ أن اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ﴾ [القصص: 85]. أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة. فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]

قال قتادة: نزلت في أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع ولا ضرع، يُصلُّون صلاةً، وينتظرون أخرى، انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنة الناس واعترضوا عليهم ومنهم كبراء قريش وأغنيائهم وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: نريد أن تلتفت إلينا، وأن تترك وتطرد هؤلاء الفقراء والضعفاء والمساكين حتى نجلس إليك. قال عُيينة والأقرع لرسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن سادات العرب، وأرباب الأموال، فنحّ عنا سَلمان وخبَّابا وصُهيبًا، احتقارا لهم، وتكبرا عليهم. والصبر في اللغة هو: الحبس، واحبِسْ نفسَك -يا مُحمَّدُ- مع أصحابِك الذين يَعبُدونَ رَبَّهم وحدَه، ﴿مع﴾ تَقْتضي الصُّحبةَ والمُوافقةَ، والأمْرُ بالصَّبرِ هنا يظهَرُ منه كبيرُ اعتناءٍ بهؤلاء الَّذينَ أُمِرَ أن يصبِرَ نفْسَه معهم، وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الأنعامِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52] وذلك أن سادةَ المُشركينَ كانوا زعَموا

أنَّه لولا أن مِن المُؤمِنين ناسًا أهْلَ خَصاصةٍ في الدُّنيا، وأرقَّاءَ لا يُدانونهم ولا يستأْهِلونَ الجُلوسَ معهم؛ لأتَوْا إلى مُجالَسةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ، واسْتَمعوا القُرآنَ، فاقْتَرحوا عليه أن يطرُدَهم مِن حولِه إذا غشِيَه سادةُ قُريشٍ؛ فرَدَّ اللهُ عليهم بما في سُورةِ الأنعامِ، وما هنا في هذه السُّورةِ آكَدُ؛ إذ أمَرَه بمُلازمتِهم بقولِه: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ"، ولتَضمينِ فعْلِ "اصْبِر" معنى المُلازَمةِ عُلِّقَ به ظرْفُ "مع" [148].

فالله يأمر رسوله أن يحبس نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ويجلس مع هؤلاء الضعفاء الفقراء والمساكين أمثال بلال وعمار وخباب وابن مسعود الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويَدْعُونَه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ أي أول النهار ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ أي آخر النهار، ويقوِّي عزائمهم، الأمر هنا بالملازمة أي والزم أولئك، فعل "اصبر" ضمّن معنى الملازمة والأمر بالصبر هنا يظهر كبير اعتناءٍ بهؤلاء الذين أمر أن يصبر نفسه معهم فلهم شأنٌ فان لم يكونوا لهم ذكرٌ في الأرض ومكانٌ في الأرض أمرهم وشأنهم معروف في السماء فأصواتهم معروفةٌ في السماء ومكانتهم محفوظةٌ لهم لقربهم من الله عز وجل واشتغالهم بما يرضي الله سبحانه وتعالى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ابغوني الضُّعفاءَ، فإنَّما تُرزقونَ وتُنصرونَ بضعفائِكُمْ" [149]. ومجالسة الضعفاء والمساكين والفقراء الصالحين تورث القلب انكسارًا وخشوعًا وخضوعًا ورقةً.

﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ في قوله يدعون ربهم بالغداة والعشي ومدحه لهم جل وعلا على هذا الفعل دليلٌ على شرف هذا الفعل وفضله ووقت طرفي النهار يعني بداية اليوم ونهاية اليوم وقتٌ فاضل ولذلك كان النبي صلى الله إذا صلى الفجر مكث فيه مصلاه حتى تطلع الشمس وندب إلى الحرص على صلاتي الفجر هي ابتداء طرف النهار والحرص على صلاة العصر وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

148- يُنظر: تفسير ابن عاشور- 304/15- 305.

149- الراوي: أبو الدرداء - المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة، الصفحة أو الرقم - 779 :خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

"مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ" [150]، والبردان هم الفجر والعصر وهما الصلاتان اللتان تشهدهما الملائكة قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة في الصحيح قال: "يتَعَاقَبُونَ فِيكُم مَّلَائِكَةٌ باللَّيْلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهَارِ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الفَجْرِ وصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وهو أعْلَمُ بهِمْ: كيفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فيَقولونَ: تَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ" [151]. إن ملائكة الليل تشهد صلاة الفجر والملائكة سترفع أعمال المصلين فتقول تَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ.

﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ مُخلِصينَ في عبادتِه يفعلون ذلك لله وحده لا لأحدٍ سواه، يريدون بمجالستهم للرسول صلى الله عليه وسلم وجه الله تعالى فقط ولم يفكروا بمصلحة دنيوية ولا يريدون شيئًا من الدنيا. وأهل الحق هؤلاء لهم علامتان: يكثرون ذكر الله، ويبتغون وجه الله [152].

وقَولُه: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ فهي عامَّةٌ فيمن تناوله هذا الوصفُ، مثل الذين يُصلُّونَ الفجرَ والعصرَ في جماعةٍ فإنَّهم يدعونَ رَبَّهم بالغداةِ والعَشيِّ يريدونَ وَجهَه [153]. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52]. وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لَأنْ أقعُدَ مع قَومٍ يَذكُرونَ اللهَ تعالى مِن صَلاةِ الغَداةِ حتى تَطلُعَ الشَّمسُ، أحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً مِن ولَدِ إسماعيلَ، ولَأنْ أقعُدَ مع قومٍ يَذكُرونَ

150- الراوي: أبو موسى الأشعري - المحدث :البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 574. خلاصة حكم المحدث: صحيح.
151- الراوي: أبو هريرة - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم555. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه البخاري 555، ومسلم 632.
152- يُنظر: تفسير ابن جرير- 236/15، تفسير ابن كثير- 152/5، تفسير السعدي- ص: 475، أضواء البيان للشنقيطي 263/3، 264.
153- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 263/3، 264.

اللهَ مِن صلاةِ العَصرِ إلى أن تَغرُبَ الشَّمسُ، أحَبُّ إليَّ مِن أن أُعتِقَ أربعةً"[154].

وفي هذه الآية إثبات الوجه لله تعالى، وقد أجمع سلف الأمة وأئمتُها على ثبوت الوجه لله عزّ وجل بدلالة الكتاب والسنة على ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]. وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "أعوذ بوجهك". ولكن لا يمكن أن يكون وجه الله مماثلًا لأوجه المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، أي شبيهًا ونظيرًا.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ في هذه الآية تعريضٌ بحماقة سادة المشركين الذين كان همهم ومصب اهتمامهم هو الاعتناء بالأمور الظاهرة في حطام الدنيا أي: ولا تَصرِفْ عينَيك يا مُحمَّدُ عن الذين يَعبُدونَ رَبَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ لرثاثةِ هيئتِهم وزِيِّهم، مُحتَقِرًا لهم، فتَتجاوَزَهم إلى أهلِ الشَّرَفِ والجاهِ والغنَى والثروةِ، طامحًا إلى مُجالَستِهم بدلًا مِن أولئك. قال ابن عباس: "ولا تجاوزهم إلى غيرهم" يعني تطلب بدلًا منهم أصحاب الشرف والثروة ولا تؤثر الدنيا عليهم، لا تؤثر مجلسًا ليس فيه ذكر الله على مجلس فيه ذكر الله، ولا تَصرِفْ نَظَرَك عنهم إلى غَيرِهم مِن الكُفَّارِ مِن أهلِ الغنَى والجاهِ راغبًا في مجالستِهم، ولا تلتفت بعينيك إلى ما فيه الأغنياء من المال والولد والسلطان، هذا كله من زينة الحياة الدنيا فهو كله زائل فالدنيا زائلة وفانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]. كل ما على الأرض من زينة كله إلى زوال وفناء إذا زالت الدنيا، فالله يأمر نبيه ألا يلتفت إلى هؤلاء الأغنياء الذين

154- أخرجه أبو داود 3667 واللفظ له، والطبراني في الدعاء- 1878، والبيهقي في شعب الإيمان- 561. حسَّن إسنادَه العراقي في تخريج الإحياء- 54/1، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن أبي داود- 3667.

يفكرون في زينة الحياة الدنيا [155]. قال القرطبي: لم يُرِدِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نهاه عن أن يفعَلَه، وليس هذا بأكثَرَ مِن قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] وإن كان اللهُ أعاذه مِن الشِّرك [156].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾:

روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ قال: "نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وذلك أنه دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: ولا تُطِعْ يا مُحمَّدُ من جعَلْنا قلبَه غافلًا عن ذِكرِنا وعبادتِنا وعن القرآنِ، وانشغل عن ذلك بالدُّنيا، من ختمنا على قلبه عن التوحيد قال السعدي: َلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا غفَلَ عن الله فعاقَبَه بأن أغفَلَه عن ذِكرِه [157]. قيل أغفلنا معناه جعلناه غافلًا. وقيل من أغفلنا أي من تركناه غافلًا أي فارغًا فهو فارغ ليس له شيءٍ يهمه من أمر الآخرة، بل هو ساعٍ لمتاعب الدنيا وزينتها، والقلب وعاء فإما أن يملأ بالإيمان والتقى والعبادة وإما أن يكون فارغًا ليس له من ذلك شيء، وقيل معنى أغفلنا: وجدناه غافلًا عن ذكرنا لا نتهم الله عز وجل فلا نقل: إنه جعله غافلًا، لا، هكذا في القرطبي، ورد: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ وجدنا قلبه غافلًا، غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره وختم على قلبه عن التوحيد. ونحن نعلم أن الله أمرنا بذكره وطاعته والتقرب إليه لكن من غفل عن ذكر الله واتبع هواه أي شغل بالدنيا عن الدين وعبادة ربه فسيفضي بنفسه إلى الهلاك والخسران والضياع، فلا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته ولا تغبطه بما هو فيه. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

155- يُنظر: تفسير ابن جرير- 237/15، 239، تفسير القرطبي- 391/10، تفسير ابن كثير- 154/5، أضواء البيان للشنقيطي 264/3.

156- تفسير القرطبي- 391/10.

157- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 475- تفسير ابن جرير- 241/15، تفسير ابن كثير- 154/5، تفسير الشوكاني- 334/3.

[الأحزاب: 1]. وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]. وفي هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنْزَع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فُرطا عليه. فإذا رأيت وقتك يمضي، وعمرك يذهب، وأنت لم تنتج شيئا مفيدًا، ولا نافعًا، ولم تجد بركةً في الوقت فاحذر أن يكون أدركك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي: انفرط عليه وصار مشتتًا لا بركة فيه تجده يبقى الساعات الطويلة ولم يُحَصِّلْ شيئًا، ولكن لو كان أمره مع الله لحصلت له البركة في جميع أعماله.

﴿**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾ أي: وآثَرَ اتِّباعَ شَهواتِ نَفسِه، فاختار الكُفرَ والشِّركَ والمعاصيَ على الإيمان والتَّوحيدِ والطَّاعةِ[158]. فهذا الذي يحرضك على أهل الصفة ما غفل قلبه عن ذكرنا إلا لأنه صار تبعا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولوكان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]. سار خلف هواه، فأخذه هواه وألهاه عن ذكر الله، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله، إنه مشغول بمطلوب نفسه، لذلك يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به"[159]. فعلينا أن يكون هوانا تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.. فالمؤمن الحق سليم الإيمان من كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله، لا يحيد عنه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 71]. المؤمن يتبع الحق، وغير المؤمن يتبع الهوى، فإما أن يقوده الهوى، وإما أن يقود هو الهوى، والنفس إما أن تسير صاحبها، وإما أن يسيرها، إما أن يكون العقل

158- يُنظر: تفسير ابن جرير- 241/15، تفسير البغوي- 189/3، تفسير الشوكاني- 334/3، أضواء البيان للشنقيطي 265/3.

159- الراوي: عبد الله بن عمرو - المحدث: الحكمي - المصدر: معارج القبول الصفحة أو الرقم - 422/2 :خلاصة حكم المحدث: صحيح.

رائد الإنسان، وإما أن يكون الهوى رائده. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿فُرُطًا﴾ أي منفرطًا عليه، ضائعًا، وكانت شُؤونُه وأعمالُه ومصالح دينه ودنياه ضائعة معطلة سَفَهًا وتفريطًا وضَياعًا، قد تجاوَز فيها الحَدَّ، وتقدَّم فيها على الحَقِّ، نابذًا له وراءَ ظهرِه، تمضي الأيام والليالي ولا ينتفع بشيء، لماذا؟ لأن الله عندما أمرنا بطاعته وذكره والتحميد والتهليل والاستغفار، هؤلاء الكفار الذين انغرُّوا بالحياة الدنيا عطلوا حواسهم عن ذكر الله وعما خلقت له من ذكر وطاعة لله واغتروا بزينة الحياة الدنيا من جاه وسلطان وتكبروا على الفقراء والضعفاء، لذلك عاقبهم الله جل وعلا بأن أغفل قلوبهم عن ذكره فلا يستطيعون ذكره أبدا، فكانت عاقبتهم فرطا أي ضياعًا وهباءً، فاتِّباعُ الهوى يفضي بالإنسان إلى الهلاك والخسران والضياع [160]. والهوى عدو، بل هو من ألد أعدائنا لذا فعلينا أن نحذر من اتباع الهوى، وأن نزن أعمالنا وأنفسنا بميزان التقوى والكتاب والسنة. ومن هنا نعرف أن الميزان الذي كانوا يقوّمون به بعضهم بعضا هو ميزان الدنيا وهي موازيين دنيوية وقيم تعتمد على كثرة المال والأولاد والجاه والسلطان، فالذي كان منهم كثير الولد وعظيم السلطان كان له شرف بينهم والعكس فمن هو فقير قليل الأولاد والجاه فليست له كلمة مسموعة بينهم ولا يقيمون له وزنًا.

وفي هذه الآية يوضح لنا الله أن هذه الموازين خاطئة ومردودة ولا يقبلها الإسلام بل جاء الإسلام ليبدلها ويغيرها بالموازيين والقيم الصحيحة والثابتة والتي تعتمد على التقوى والإيمان والورع وخوف الله، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]. فالميزان الذي يوزن به الناس في الإسلام هو التقوى وليس المال والولد. وكان النبي ﷺ يعمل ويحرص جاهدا لإبطال هذه القيم والموازيين الخاطئة إلى موازين ثابتة. ورد عن سهل بن سعد قال: "مرَّ رجلٌ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

160- يُنظر: تفسير ابن كثير- 154/5، نظم الدرر للبقاعي 51/12، أضواء البيان للشنقيطي 265/3، 266- تفسير السعدي- ص: 475.

فقال لرجلٍ عِندَه جالسٌ: ما رأيُك في هذا؟ فقال: رجلٌ من أشرافِ الناسِ، هذا واللهِ حرِيٌّ أن خطَب أن يُنكَحَ، وإن شفَعَ أن يُشَفَّعَ، قال: فسكَت رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم مرَّ رجلٌ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما رأيُك في هذا؟ فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا رجلٌ من فُقَراءِ المسلمينَ، هذا حَرِيٌّ إن خطَب ألا يُنكَحَ، وإن شفَع ألا يُشَفَّعَ، وإن قال ألا يُسمَعَ لقولِه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا خيرٌ من مِلءِ الأرضِ مثلِ هذا"[161]. لأن الله تعالى لا يزن الناس بميزان الأموال والسلطان وإنما ميزان الله هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. ففي الآية الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾
[الكهف: 29]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم بما فيه نَقضُ ما يَفتِلونَه مِن مُقتَرَحاتِهم، وتعريضٌ بتأييسِهم من ذلك -كاقتراحِهم طردَ الفقراءِ حتَّى يُؤمنوا- أمَرَه أن يُصارِحَهم بأنَّه لا يَعدِلُ عن الحَقِّ الذي جاءه مِن اللهِ، وأنَّه مُبلِّغُه بدونِ هَوادةٍ، وأنَّه لا يَرغَبُ في إيمانِهم ببَعضِه دونَ بَعضٍ، ولا يتنازَلُ إلى مُشاطَرتِهم في رَغَباتِهم بشَطرِ الحَقِّ الذي جاء به، وأنَّ إيمانَهم وكُفرَهم موكولٌ إلى أنفُسِهم، لا

161- الراوي: سهل بن سعد الساعدي. المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري – باب فضل الفقر. الصفحة أو الرقم: 6447. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

يَحسَبونَ أنَّهم بوعدِ الإيمان يَستَنزِلونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن بعضِ ما أُوحيَ إليه، فالدينُ الحقُّ إنما أتَى مِن عندِ الله، فإن قبلوه عاد النفعُ إليهم، وإن لم يقبلوه عاد الضررُ إليهم، ولا تعلُّقَ لذلك بالفقرِ والغنَى، والقبحِ والحسنِ، والخمولِ والشهرةِ [162].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو بلاغ لهؤلاء المشركين المتكبرين الذين طلبوا منه طرد الفقراء بأنه هذا الحق من ربكم أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- مُعلِنًا، قيل: المرادُ أن يقولَ للذين أغفلَ الله قلوبَهم عن ذِكرِه، واتَّبعوا أهواءَهم، وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي [163]. وقيل: المرادُ أن يقولَ للنَّاسِ. وممن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي [164]. هذا الذي جِئتُكم به من قرآن مِن عندِ رَبِّكم وخالقكم وليس من أحد سواه، هو الحَقُّ الذي لا مرية فيه ولا شَكٍّ، فلا تَطلُبوه مِن غَيرِه لا تطلبوا الحق من طريق غير طريق الله عزّ وجل فهو وَحدَه الذي يَهدي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ. والحق: هو الشيء الثابت، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد، لأن الذي يتغير كلامه هو الذي يقضي شيئًا ويجهل شيئًا مُقبلًا، وبعد ذلك يُعدِّل، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن علمه شيء، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه، فالربوبية عطاء، فربنا هو الذي خلقنا وأمدَّنا بالنعم، وهو الذي يُربّينا كما يُربِّي الوالد ولده، لذلك لم يعترض على الربوبية أحد. أما الألوهية فمطلوبها تكليف: افعل كذا، ولا تفعل كذا، فخاطبهم بالربوبية التي فيها مصلحتهم، ولم يخاطبهم بالألوهية التي تُقَيِّدُ اختياراتهم. والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيّد اختياراته، لذلك يلجؤون إلى عبادة آلهة أخرى، لأنها ليس لها مطالب..

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ فمن أقبل عليك أقبل عليه واهتمّ به، ومن أعرض فأعرِضْ عنه. والحق هنا في هذه الآية إما أن يكون فاعلًا لفعل محذوف تقديره "قد جاءكم" الحق من ربكم، جاء فعلًا والحق

162- يُنظر: تفسير الرازي- 458/21، تفسير ابن عاشور- 307/15.
163- يُنظر: تفسير ابن جرير- 244/15، تفسير القرطبي- 393/10.
164- يُنظر: تفسير ابن كثير- 154/5، تفسير السعدي- ص: 475، أضواء البيان- 266/3.

فاعلًا، وإما أن تكون كلمة الحق خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره "هذا الذي جئتكم به"، فجملة "هذا الذي جئتكم به" جملة في محل مبتدأ، والحق هو جملة الخبر.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾: أي: فإنْ شِئتُم فآمِنوا، وإن شِئتُم فاكفُروا، فإن اختَرتُم الإيمان فلكم الجنَّةُ، وإن اختَرْتُم الكُفرَ فقد أُعِدَّت لكم النَّارُ، وليس المراد من قوله ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ التخيير بين الإيمان والكفر، بل المراد به التهديد والتخويف والوعيد الشديد. فالأمر في قوله: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ للتهديد وليس للإباحة، ومن يستدل به على أن هذا للتخيير فقد أخطأ ووقع في الزلل، وليس فيها كذلك إباحة الكفر بل إن الدين عند الله الإسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم قال كما في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ" [165]. بدليل قوله تعالى بعد ذلك ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت 40] على سبيل الوعيد، خرج مخرج الترغيب والتخويف والتهديد، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾:

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا هدَّدَ السَّامِعينَ بما حاصِلُه: لِيَختَرْ كلُّ امرئٍ لنَفسِه ما يجِدُه غَدًا عندَ الله تعالى، أتبَعَ هذا التهديدَ تَفصيلًا لِمَا أَعَدَّ للفَريقينِ مِن الوَعدِ والوعيدِ، ولَمَّا كان الكلامُ مع الكُفَّارِ وفي سياقِ ما طلبوا من الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كانت البداءةُ بما أعَدَّ لهم أهَمَّ وآكَد [166].

165- الراوي: أبو هريرة - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم - 153 :خلاصة حكم المحدث: صحيح.

166- يُنظر: تفسير أبي حيان- 169/7.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ هم الكافرين والمشركين بالله ورسوله وكتابه الذين أعرضوا عن دعوة الله أي: إنَّا أعدَدْنا وأرصَدْنا وهيَّأْنا للكافرينَ نارًا مهولة عظيمة يُحيطُ بهم سُورُها مِن كُلِّ جانبٍ، فلا سبيلَ لهم إلى الخُروجِ منها، من كفر فله النار قد أعدت، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 31]. لماذا نكَّرَ النار؟ قال أهل العلم: للتهويل والتعظيم أي نارًا عظيمةً شديدةً، فبدأ بذكر جزاء الكافرين، ﴿أَعْتَدْنَا﴾ فعل ماضي أي أن النار قد أعدت وخلقت ووجدت فهي الآن موجودة وكذلك الجنة. فالمسألة منتهية مُسْبقًا، فالجنة والنار مخلوقة فعلًا ومُعدَّة ومُجهّزة، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل، وقد أُعِدَّتْ إعدادَ قادرٍ حكيمٍ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق أن آمنوا، وأعدّ النار لتتسع لكل الخلق أن كفروا، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض، فالذي آمن وَفّر مكانه في النار، والذي كفر وفَّر مكانه في الجنة. كما قال الإمام الطحاوي في شرح عقيدة أهل السنة والجماعة فيما سمي "العقيدة الطحاوية" قال فيها رحمه الله: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفتران أبدا ولا تبيدان".

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: فُسطاطُها وسُورُها، وكُلُّ ما أحاط بشيءٍ واشتمَلَ عليه مِن ثَوبٍ أو حائطٍ، أو السور الذي يحيط بالبناء، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله يقالُ له: سُرادِقٌ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّب [167]. قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي حائط من نار. أي سورها محيط بأهل النار، فكأن الله تعالى ضرب سرادقًا على النار يحيط بهم ويحجزهم، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار، لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج، فالله سبحانه يريد أن يؤيسَهم من الخروج فالنار قد أحاطت بهم من جميع الجهات الست من فوقهم ومن تحتهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمائلهم فلا يمكن أن يفروا عنها يمينًا

167- يُنظر: غريب القرآن لابن قتيبة ص: 267، غريب القرآن للسجستاني ص: 276، البسيط للواحدي 605/13، المفردات للراغب ص: 406، الكليات للكفوي ص: 518.

ولا شمالًا. كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 16]، وهي عليهم مؤصدة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 8-9]. نسأل الله أن يجيرنا من النار.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: الاستغاثة: صَرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]. أي: حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أن أزيل صراخكم، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي، فإنْ يَطلُبِ الكافِرونَ المعذَّبونَ في النَّارِ الماءَ مِن شِدَّةِ عَطَشِهم، ﴿يُغَاثُواْ﴾ يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله، أو يُخفّف عنهم العذاب، لا بل ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار، فإذا بهم يُؤتَوا بماءٍ مُنتِنٍ غَليظٍ أسودَ، غايةً في الحرارةِ، يشوي وُجوهَهم مِن شِدَّةِ حَرِّه[168].

﴿يُغَاثُواْ﴾ أسلوب تهكميّ، كما يقول الوالد لولده الذي أخفق في الامتحان: مبارك عليك السقوط، من التهكّم بهم وتبكيتهم، كما قال تعالى مخاطبًا جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها مِمَّنْ عَصَوْا الله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49] فبماذا يغيثهم الله؟ يغاثوا بهذا الماء ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾. اختلف العلماء رحمهم الله في ذكر أوصاف المهل لكنه يجمع الأوصاف الرذيلة فهو أسود منتن غليظ حار، قال ابن عباس: "المهل هنا هو الغليظ". وقال مجاهد: "هو الدم والقيح". والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلي يعني تَفَلَهُ الخاثر في أسفله الذي يسمونه الدُّرْدِيّ، أو هو المُذابُ من المعادن

168- يُنظر: تفسير ابن جرير- 248/15، 251، تفسير القرطبي- 394/10، تفسير ابن كثير- 154/5، 155، تفسير السعدي- ص: 475، أضواء البيان للشنقيطي 269/3.

كالرصاص ونحوه مما هو منظر كريه، فهو أسود منتن غليظ حار ولا تقبله النفوس، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة.

﴿**يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾ أي كلما اقترب من وجوههم سقط لحم وجوههم ببخاره، لأن الماء من شدة حرارته يشوي وجوههم، قبل أن يدخل أجوافهم، فلماذا ذكر الوجه مع أن الماء في العادة أنه هو الذي يقطع الأمعاء في الشرب، ما علاقة الوجه؟ قال أهل العلم: أولًا لأن أقرب شيء إلى الفم الوجه، وإذا أراد أن يشرب الماء قبل أن يباشر الفم تأتي حرارته على الوجه فإذا كان يشوي الوجوه فكيف بالفم والجوف؟ فما حالهم إذا دخل بطونهم، فكيف بالأمعاء والبطون؟ كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿20﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: 20-21]. اللهم ارحمنا ولا تجعلنا منهم. كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿16﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 16-17]، أي كالصديد يتجرعه ولا يكاد يُسيغه، وإذا وصل إلى أمعائهم قطعها كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15]، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعادُ كالجلود ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]، الله أكبر، سبحان القادر على كل شيء، وبلحظة يكون هذا الشيء متتابعًا، كلما نَضجت بُدِّلوا، وكلما تقطَّعت الأمعاء فإنها توصل بسرعة.

﴿**بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾: بِئْسَ: فعل ماضٍ لأنشاء الذم لهذا الشراب الذي يراد ليطفئ العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم، أي: بئسَ شَرابُ الكافرينَ هذا الماءُ الذي يُؤتَونَ به، فيكونُ زيادةً في عقابِهم وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به.

قال الشنقيطي: للعُلَماءِ في المرادِ بالمُرتَفَقِ في الآية أقوالٌ متقارِبةٌ في المعنى قيل: مُرْتَفَقًا أي: مَنزِلًا، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقيل: مقَرًّا، وهو مرويٌّ عن عطاءٍ. وقيل: مَجلِسًا، وهو مرويٌّ عن العتبي. وقال مجاهِدٌ: مُرْتَفَقًا أي: مجتَمَعًا. فهو عنده مكانُ الارتفاقِ بمعنى مُرافَقةِ بعضِهم لبعضٍ في النَّارِ. وحاصِلُ معنى الأقوالِ أن النَّارَ بئسَ المستقرُّ هي، وبئس المُقامُ هي، ويدُلُّ لهذا قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66]. المرتفق ما يرتفق به الإنسان، قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، ففي الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وفي النار ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وقبُحَت جهنَّمُ مُقامًا يَستَقِرُّ فيه الكافِرونَ ساءت مرتفقا ومنزلا ومقيلًا ومجتمعًا وموضعًا للارتفاق وقبح مرتفقها والارتفاق بها فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يفتر عنهم ساعة[169]، وفي هذا وعيد وتهديد شديد لمن أعرض عن الحق، فلم يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعمل بمقتضاها، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه. وبعد انتهاء الله من ذكر ما أعده للظالمين المشركين، انتقل لما أعده للمؤمنين، وهذا من أسلوب القرآن، فإن الله عزّ وجل إذا ذكر أهل النار ذكر أهل الجنة، وهذا من معنى قوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23] أي تثنى فيه المعاني والأحوال والأوصاف ليكون الإنسان جامعًا بين الخوف والرجاء في سيره إلى ربه.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قولُه تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: مِن البشرِ، وإلَّا فاللهُ يُبدِّلُها؛ قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106]. وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101].

169- ينظر: تفسير ابن جرير- 252/15، تفسير ابن كثير- 155/5، تفسير ابن عاشور- 309/15، أضواء البيان للشنقيطي 270/3.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فيه الأمرُ بصُحبةِ الأخيارِ، ومُجاهَدةِ النَّفسِ على صُحبَتِهم ومخالَطتِهم وإن كانوا فُقرَاءَ فإنَّ في صُحبَتِهم مِن الفوائِدِ ما لا يُحصى، وأنَّ مُجالسةَ الصالحينَ مأثورةٌ على مجالِسِ غيرِهم، ومَندوبٌ إليها المُؤمِنونَ [170].

3- قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، في الآيةِ الكريمةِ فَضْلُ الاجتماعِ على الذِّكْرِ والدُّعاءِ، وفَضْلُ الإخلاصِ، وأنَّ الإخلاصَ هو الذي عليه مدارُ كلِّ شيءٍ وأنَّ الإنسان لا ينبغي له أن يدَعَ أحوالَ الآخرةِ والعباداتِ إلى أحوالِ الدُّنيا، وفيها استحبابُ الذِّكرِ والدُّعاءِ والعبادةِ طَرَفي النَّهارِ لأن اللهَ مَدَحهم بفِعلٍ، وكلُّ فِعلٍ مدحَ اللهُ فاعِلَه، دلَّ ذلك على أن اللهَ يُحِبُّه، وإذا كان يحِبُّه فإنَّه يأمرُ به، ويُرَغِّبُ فيه [171].

4- في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ دَلالةٌ على أن الاستبدالَ بمجالسةِ صالحي الفقراءِ مجالسةَ طالحي الأغنياءِ، مَعصيةٌ، وإنْ لم يعملِ المُستبدِلُ بأعمالِهم [172].

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ يدُلُّ على أن الذي ينبغي أن يُطاعَ، ويكونَ إمامًا للنَّاسِ: مَن امتلأ قلبُه بمحَبَّةِ الله، وفاض ذلك على لِسانِه، فلَهِجَ بذِكرِ الله، واتَّبَع مراضيَ رَبِّه، فقَدَّمَها على هواه، فحَفِظَ بذلك ما حَفِظَ مِن وَقتِه، وصَلَحت أحوالُه، واستقامت أفعالُه، ودعا

170- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 475- النُّكَتُ الدالة على البيان للقصاب 196/2.
171- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 475.
172- يُنظر: النُّكَتُ الدالة على البيان للقصاب 196/2.

النَّاسَ إلى ما مَنَّ الله به عليه فحَقيقٌ بذلك أن يُتَّبعَ ويُجعَلَ إمامًا، أمَّا مُتَّبِعُ الهوى فليس أهلًا أن يُطاعَ، ولا أن يكونَ إمامًا ولا مَتبوعًا فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نهَى عن طاعتِه كما في هذه الآيةِ، وعَزَلَه عنِ الإمامةِ، كما في قولِه تعالى لخليلِه إبراهيم عليه السلامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]، أي: لا ينالُ عهدي -بالإمامةِ- ظالِمًا، وكلُّ مَنِ اتَّبَع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: 29]، فينبغي للرجُلِ أن يَنظرَ في شَيخِه وقُدوتِه ومَتبوعِه فإنْ وجَدَه كذلك فليَبعُدْ عنه، وإنْ وجَدَه ممن غَلَب عليه ذِكْرُ اللهِ، واتِّباعُ السُّنَّةِ، وأمْرُه غيرُ مفروطٍ عليه، بل هو حازمٌ في أمْرِه فليستَمسِك بغَرْزِه [173].

6- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ دَلالةٌ على أن ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ هو ذِكْرُ القَلبِ، وأمَّا ذِكْرُ اللِّسانِ مجرَّدًا عن ذِكْرِ القَلبِ، فإنَّه ناقِصٌ فلم يَقُلْ سُبحانه: "مَن أمسَكْنا لِسانَه عن ذِكرِنا"، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ فالذِّكْرُ النافِعُ هو ذِكْرُ القَلبِ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أهميَّةِ حُضورِ القَلبِ عندَ ذِكْرِ اللهِ، وأنَّ الإنسانَ الذي يَذْكُرُ اللهَ بلسانِه، لا بقَلبِه، تُنزَعُ البركةُ مِن أعمالِه وأوقاتِه، حتى يكونَ أمرُه فُرُطًا عليه تجِدُه يبقَى السَّاعاتِ الطويلةَ ولم يُحَصِّلْ شيئًا، ولكن لو كان أمرُه مع اللهِ لحصَلَتْ له البركةُ في جميعِ أعمالِه.

7- قولُه تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ فيه دَليلٌ على أن ما يَعرِضُ للعَبدِ مِن غَفلةٍ ومعصيةٍ، إنَّما هو بمشيئةِ الله تعالى إذ لا يقَعُ شَيءٌ البتَّةَ كائِنًا ما كان إلَّا بمشيئتِه الكونيَّةِ القَدَريَّةِ، جلَّ وعلا، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 107]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: 13] [174].

173- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 75.
174- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 265/3.

8- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآيةُ تدُلُّ على أنَّه تعالى لا ينتَفِعُ بإيمانِ المؤمنينَ ولا يستَضِرُّ بكُفرِ الكافرينَ، بل نَفعُ الإيمان يعودُ إليهم، وضرَرُ الكُفرِ يَعودُ عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7][175].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيدَ المُبطِلينَ وحالَ الكافرين والأشقياء وما أعده لهم من الهوان، أردَفَه بوَعدِ المُحِقِّينَ فثنَّى بذكر حسنَ عاقبةِ المؤمنينَ السعداء وما لهم من الثواب [176].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: أي أن الذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمان به، وصدَّقوا المرسلين فيما جاؤوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمالَ الصَّالحاتِ، إنَّا لا نُضيعُ جَزاءَهم لأنهم أحسَنوا عَمَلَهم، ولا نُضيعُ جَزاءَ كُلِّ مَن أحسَنَ عمَلَه كذلك، فجعَلَه خالِصًا لله، واتَّبع فيه شَرْعَه على هَدْيِ رَسولِه [177]. كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 195].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120]. فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولم يقل إنَّا لا نضيع أجرهم، ولكن قال

175- يُنظر: تفسير الرازي- 459/21.
176- يُنظر: تفسير الرازي- 460/21.
177- يُنظر: تفسير ابن جرير- 254/15، تفسير ابن كثير- 156/5، تفسير السعدي- ص: 476، أضواء البيان للشنقيطي 271/3.

تعالى: ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وذلك لبيان العلة في ثواب هؤلاء وهو أنهم أحسنوا العمل، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع لنا أعمالنا الصالحة بل يحصيها كلها ويعدها ويكتبها لنا، إذ أن الإحسان في العمل لا يكون إلا بالإيمان التام في القلوب والإخلاص لله عزّ وجل والعمل الصالح بالجوارح والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وهنا نلاحظ أن الله سبحانه عطف على الإيمان العمل الصالح، لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان، وفائدة الإيمان أن توثق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنت به، لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدة من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿1﴾ أن الإنسان لَفِي خُسْرٍ ﴿2﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]. ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ نلاحظ أن "من" هنا عامة للمؤمن والكافر، لذلك لم يقل سبحانه: إنا لا نضيع أجر من أحسن الإيمان، لأن العامل الذي يحسن العمل قد يكون كافرًا، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقه، بل يعطيه حظه من الجزاء في الدنيا، فالكافر أن اجتهد وأحسن في علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده، لكنها تعجل له في الدنيا وتنتهي المسألة حيث لا حظ له في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، وقال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18]. فهؤلاء قد استوفوا أجورهم، وأخذوا حظهم في الدنيا ألوانًا من النعيم والمدح والثناء، وخلدت ذكراهم، وأقيمت لهم التماثيل والاحتفالات، لذلك يأتي في الآخرة فلا يجد إلا الحسرة والندامة حيث فوجئ بوجود إله لم يكن يؤمن به.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

[الكهف: 31]

مُناسَبَةُ الآيَة لِما قَبْلَها:

أن اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ الأجرَ المُبهَمَ للمُحِقِّينَ، أردفه بالتَّفصيلِ مِن وُجوهٍ؛ أوَّلُها: صِفةُ مكانِهم. وثانيها: لِباسُهم. وثالثُها: كيفيَّةُ جُلوسِهم[178]. وأيضًا لمَّا ذكَرَ مكانَ أهْلِ الكُفْرِ -وهو النَّارُ- ذكَرَ مكانَ أهْلِ الإيمانِ، وهي جنَّاتُ عدْنٍ، ولمَّا ذكَرَ هناك ما يُغاثونَ به، وهو الماءُ كالمُهْلِ، ذكَرَ هنا ما خَصَّ به أهْلَ الجنَّةِ من كونِ الأنهارِ تَجْري من تحتِهم، ثمَّ ذكَرَ ما أنعَمَ عليهم من التَّحليةِ واللِّباسِ اللَّذينِ هما زِينةٌ ظاهرةٌ[179].

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾: أُولَئِكَ الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ، لهم بساتينُ إقامةٍ دائِمةٍ، يقال: عَدنَ فلان بالمكان إذا أقام به، سميت عدنًا لخلود المؤمنين فيها، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]. أي أن لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، وكثرت أنهارها، تجري الأنهارُ الكَثيرةُ بينَ أيديهم مِن تَحتِ غُرَفِهم ومَنازِلِهم وأشجارِهم وهي أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى وأنهار من خمر لذة للشاربين كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ

178- يُنظر: تفسير الرازي- 461/21.

179- يُنظر: تفسير أبي حيان- 170/7.

مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: 15] تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة جنات إقامةٍ وخلود لا يبغون عنها حِوِلًا. فالذي أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم، والذي يُعِد نُزُلًا لضيفه يُعِدّه على قَدْر غِنَاه وبَسْطة كرمه، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه؟ [180]

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي وهم يُحَلَّوْنَ في الجنة من أساور من الذهب في أيديهم [181]، وقيل: "مِنْ" في "مِنْ أَسَاوِرَ" إمَّا أن تكون للتبعيض: أي يُحلَّونَ فيها بعضَ أساوِرَ، أي: يُحلَّى كلُّ واحدٍ منهم شَيئًا من هذه الأساورِ، وحينئذٍ لا يكونُ إشكالٌ، وإمَّا أن تكون "للبيان" أي: بيان ما يُحَلَّون، وهو أساوِرُ، وليس قلائِدَ أو خُروصًا مثلًا.

وأما قَولُه: "مِن ذَهَبٍ" فهي بيانيَّة، أي: لبيان الأساوِرِ أنَّها مِن ذَهَبٍ. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله "يُحَلَّوْنَ" وكذلك الحرير ونحوه. فأهل الجنة المقصود هنا الرجال والنساء. فالرجال في الدنيا حرم الله عليهم لبس الذهب والحرير لكنه أحله لهم في الجنة لأنهم أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله وأطاعوه وامتنعوا عنها في الدنيا ولذلك يعوضهم الله بها في الجنة. قال أبو هريرة: سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: "تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء" [182]. فَالسُّنْدُس جمعٌ، واحدها سندسة، وهي ما رقّ من الديباج ثِيَاب رِفَاع رِقَاق كَالْقُمْصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَق فَغَلِيظ الدِّيبَاج وَفِيهِ بَرِيق وقيل: أن الإستبرق: هو الحرير.

180- يُنظر: تفسير ابن جرير- 255/15، تفسير ابن كثير- 156/5، تفسير السعدي- ص: 476، أضواء البيان للشنقيطي 272/3.

181- يُنظر: تفسير ابن جرير- 255/15، تفسير ابن عطية- 514/3، تفسير الشوكاني- 335/3.

182- الراوي: أبو هريرة. المحدث: الألباني. المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم:2911 - خلاصة حكم المحدث: صحيح، التخريج: أخرجه مسلم 250.

﴿**مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ**﴾: أي: والحالُ أنَّهم متَّكِئونَ في الجنَّةِ على السُّررِ المزيَّنةِ المغطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ. والاتكاء أن يجلس الإنسان على الجنب الذي يُريحه، وقيل إن وصف "الاتكاء" أنها جلسة خلو البال وصفاء المزاج وراحة النفس وعدم الانشغال بالهم أو الغم. والأرائك: هي السُّرر التي لها حِلْية. قال ابنُ كثير: قولُه: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: الاتكاءُ: قيل: الاضطجاعُ، وقيل: التربُّعُ في الجلوس، وهو أشبَهُ بالمراد هاهنا، ومنه الحديثُ في الصحيح: "أمَّا أنا، فلا آكُلُ مُتَّكِئًا"[183] فيه القولان [184]. وقال البقاعي: استأنفَ الوَصفَ عن حالِ جُلوسِهم فيها بأنَّه جُلوسُ الملوكِ المتمَكِّنينَ مِن النَّعيمِ، فقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي: لأنهم في غايةِ الرَّاحةِ [185]. والاتكاءُ يدُلُّ على راحةِ النَّفسِ وعلى الطُّمأنينةِ [186]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿55﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: 55- 56]. وقال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إن شِئْتُمْ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لهم مِّن قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]"[187].

﴿**نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**﴾: أي: نِعمَ ثَوابُ المؤمنينِ تلك الجنَّاتُ التي وصَفَ اللهُ بعضَ نَعيمِها جزاءً لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ وحسُنَت تلك الجنَّاتُ مُقامًا ومَنزِلًا مجلسًا ومقرًا يَستَقِرُّ فيه الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم،

183- الراوي: وهب بن عبد الله السوائي أبو جحيفة. المحدث: الألباني. المصدر: مختصر الشمائل، الصفحة أو الرقم: 106 - خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه البخاري 5398 باختلاف يسير عنده.

184- تفسير ابن كثير- 156/5.

185- نظم الدرر- 55/12.

186- يُنظر: تفسير ابن جرير- 255/15، تفسير ابن كثير- 156/5، تفسير السعدي- ص: 476، تفسير ابن عاشور- 314/15، أضواء البيان للشنقيطي 272/3.

187- الراوي: أبو هريرة. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 4779. خلاصة حكم المحدث: صحيح. أخرجه البخاري 4779، ومسلم 2824.

واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلِها يسيرُ في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، فنسأل الله الكريم، ألا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿75﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 75-76]. وقال عزَّ وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24] [188].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ إحسانُ العَمَلِ: أن يُريدَ العَبدُ العملَ لوَجهِ الله مُتَّبِعًا في ذلك شَرعَ اللهِ، فهذا العمَلُ لا يُضَيِّعُه اللهُ ولا شيئًا منه، بل يحفَظُه للعاملينَ، ويُوَفِّيهم مِن الأجرِ بحَسَبِ عَمَلِهم وفَضْلِه وإحسانِه.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يدلُّ على أن الحِليةَ في الجنةِ عامَّةٌ للذُّكورِ والإناثِ لأنه أطلَقَها في قَولِه: يُحَلَّوْنَ، وكذلك الحريرُ ونَحوُه [189].

3- قال الله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّندُسُ والإستِبرقُ نوعانِ مِن الحريرِ، وأحسَنُ الألوانِ الأخضَرُ، وألَيَنُ اللباسِ الحريرُ فجمَعَ لهم بين حُسنِ مَنظَرِ اللِّباسِ والْتذاذِ العَينِ به، وبين نُعومتِه والتذاذِ الجِسمِ به، وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: 23].

4- قَولُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أشار بإظهارِ ضَميرِهم إلى أنَّهم استحَقُّوا ذلك الوَصفَ بالإحسانِ [190].

188- يُنظر: تفسير ابن جرير- 256/15- تفسير ابن كثير- 156/5، تفسير السعدي- ص: 476، أضواء البيان للشنقيطي 270/3، 273.
189- يُنظر: تفسير السعدي- ص: 475.
190- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 54/12.

5- افتتاحُ الجُملةِ باسمِ الإشارةِ "أُولَئِكَ" لِما فيه من التَّنبيهِ على أن المُشارَ إليهم جديرونَ لِما بعدَ اسمِ الإشارةِ لأجْلِ الأوصافِ المذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهي كونُهم آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ.[191]

6- بِناءُ فعْلِ يُحَلَّوْنَ فِيهَا للمفعولِ الَّذي لم يُسَمَّ فاعِلُه إشعارًا بأنَّهم يُكْرَمون بذلك، ولا يَتَعاطَون ذلك بأنفُسِهم. وأسنَدَ اللِّباسَ وَيَلْبَسُونَ إليهم لأن الإنسان يَتعاطى ذلك بنفْسِه، خُصوصًا لو كان باديَ العورةِ [192].

7- قُدِّمتِ التَّحليةُ على اللِّباسِ لأن الحُلِيَّ في النَّفسِ أعظَمُ، وإلى القلْبِ أحبُّ، وفي القيمةِ أغلَى، وفي العينِ أحلَى. أو قُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ على اللِّباسِ هنا، لأن ذلك وقَعَ صِفَةً للجنَّاتِ ابتداءً، وكانت مَظاهِرُ الحُليِّ أبهَجَ للجنَّاتِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ الحُليِّ، وأُخِّرَ اللِّباسُ لأن اللِّباسَ أشَدُّ اتِّصالًا بأصحابِ الجنَّةِ لا بمَظاهِرِ الجنَّةِ، وعُكِسَ ذلك في سُورةِ الإنسانِ في قولِه: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ [الإنسان: 21] لأن الكلامَ هُنالك جَرى على صِفاتِ أصحابِ الجنَّةِ [193].

8- قولُه: "مِنْ أَسَاوِرَ": الأساورُ: أصْلُه جمْعُ "أسورةٍ" الَّذي هو جمْعُ سِوارٍ فصيغَةُ جمْعِ الجمْعِ للإشارةِ إلى اختلافِ أشكالِ ما يُحلَّون به منها فإنَّ الحِليةَ تكونُ مُرصَّعةً بأصنافِ اليواقيتِ. وقيل: جمْعُ "سِوارٍ" على غيرِ قياسٍ.

191- يُنظر: تفسير ابن عاشور- 311/15.
192- يُنظر: تفسير أبي حيان- 171/7، تفسير ابن عاشور- 312/15.
193- نفس المصدر السابق.

9- قولُـه: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خُصَّ الأخضرُ بالذِّكرِ لأنه أعدلُ الألوانِ وأنفعُها عندَ البصرِ، وأشدُّ ما يكونُ راحةً للعينِ ففيه جمالٌ، وفيه راحةٌ للعينِ، وكان مِن شعارِ الملوكِ[194].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لَاحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 32]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ...الآيات، فإنَّه بعدَ أن بَيَّنَ لهم ما أعدَّ لأهلِ الشِّركِ، وذكَرَ ما يُقابِلُه مِمَّا أعَدَّه للذين آمنوا، ضرَبَ مَثلًا لحال الفريقَينِ بمَثَلِ قِصَّةٍ أظهَرَ اللهُ فيها تأييدَه للمُؤمِنِ وإهانتَه للكافِرِ، فكان لذلك المَثَلِ شَبَهٌ بمَثَلِ قصَّةِ أصحابِ الكَهفِ مِن عَصرٍ أقرَبَ لعِلْمِ المُخاطَبينَ مِن عَصرِ أهلِ الكَهفِ، فضرَبَ مَثَلًا للفريقَينِ - للمُشرِكينَ وللمُؤمِنينَ- بمَثَلِ رَجُلَينِ كان حالُ أحَدِهما مُعجِبًا مُؤنِقًا، وحالُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك، فكانت عاقِبةُ صاحِبِ الحالِ المُؤنقةِ تَبابًا وخَسارةً، وكانت عاقبةُ الآخَرِ نجاحًا لِيَظهَرَ للفريقينِ ما يجُرُّه الغرورُ والإعجابُ والجَبَروتُ إلى صاحِبِه مِن الأرزاءِ، وما يلقاه المؤمِنُ المتواضِعُ العارِفُ بسُنَنِ اللهِ في العالَمِ مِن التَّذكيرِ والتَّدبُّرِ في العواقِبِ، فيكونُ مُعَرَّضًا للصَّلاحِ والنَّجاحِ. وأيضًا بعدَ أن أمَرَ اللهُ نبيَّه بصبرِ نَفسِه مع فُقَراءِ المؤمنين، وعَدَمِ طاعةِ أولئك الأغنياءِ مِن المُشرِكين الذين طلَبوا منه صلَّى الله عليه وسلَّم طَرْدَهم- قفَّى على ذلك بمَثَلٍ يَستبينُ منه أن المالَ لا ينبغي أن يكون موضِعَ فَخارٍ لأنه ظِلٌّ زائِلٌ، وظهَرَ بضرْبِ هذا المَثلِ الرَّبطُ بينَ هذه الآيةِ والَّتي قبْلَها

194- يُنظر: تفسير ابن عاشور 312/15.

إذ كان من أشرَكَ إنَّما افتخَرَ بمالِه وأنصارِه، وهذا قد يزولُ، فيَصيرُ الغَنِيُّ فقيرًا، وإنَّما المُفاخَرةُ بطاعةِ اللهِ[195].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذكره المشركين الأغنياء الذين استكبروا عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم أن يضربَ المثلَ برجلينِ: مؤمنٍ شاكرٍ لنعمِ الله عليه، وكافرٍ مشركٍ جاحدٍ لنعمِ الله عليه فيقول: واذكُرْ -يا مُحَمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك مَثَلًا: رَجُلَينِ أحَدُهما مؤمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ لِيَعتَبِروا بحالِهما ويتَّعِظوا بما جرَى لهما وليعلموا أن القيم والموازين التي يزِنُون ويقيِّمون بها الناس هي موازين دنيوية لا قيمة ولا وزن لها عند الله. وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس، فالمثل يأتي لِيُنَبّه الناس، وليُوضّح القضية غير المفهومة، والله تبارك وتعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26].

ويعطينا القرآن الكريم أمثالًا كثيرة لتوضيح قضايا معينة، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41]، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]. فالمثل يُوضّح لنا الخفيّ بشيء جَلِيٍّ، يعرفه كل مَنْ سمعه: اضرب لهم مثلًا من حيثية العصيان مع النعمة، والطاعة مع الفقر، حال رجلين، قال الشوكاني: وقد اخْتُلِف في

195- يُنظر: تفسير ابن عاشور 315/15- تفسير المراغي 147/15- تفسير أبي حيان 174/7.

الـرَّجلَينِ هـل همـا مُقـدَّرانِ أو مُحقَّقـانِ؟ فقـالَ بـالأوَّلِ بعـضُ المفسِّـرينَ. وقال بالآخرِ بعضٌ آخرُ. وَاخْتَلفوا في تعيينِهما [196].

قـال السـعدي: لـيس معرفـةُ أعيـانِ الـرَّجُلينِ، وفـي أيِّ زمـانٍ أو مكـانٍ همـا، فيـه فائـدةٌ أو نتيجـةٌ فالنتيجـةُ تَحصُـلُ مِـن قِصَّـتِهما فقـط، والتعَـرُّضُ لِما سوى ذلك مِن التكلُّف [197].

﴿**جَعَلْنَـا لِأَحَـدِهِمَا جَنَّتَـيْنِ مِـنْ أَعْنَـابٍ وَحَفَفْنَاهُمَـا بِنَخْـلٍ**﴾: أحـدهما غنـي كـافر والآخـر فقيـر شـاكر، فقـد جعـل الله لأحـدهما وهـو الكـافر منهمـا جنتـين "بسـتانين" مـن أعنـاب ﴿وَحَفَفْنَاهُمَـا بِنَخْـلٍ﴾ محفوفتـان بالنخيـل يُحـدِقُ بهمـا، أي حفهمـا الله بالنخـل الـذي جعلـه علـى حـواف الجنـة كالسـور الـذي يقـي مـا بداخلـه ليكـون كالحمايـة النافعـة لهمـا، والحـف بالشـيء: الإحاطـة بـه. يقـال: فـلان حَفَّـهُ القـوم، أي: أحـاطوا بـه، ومنـه قولـه تعـالى: ﴿وَتَـرَى الْمَلائِكَـةَ حَـافِّينَ مِـنْ حَـوْلِ الْعَـرْشِ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: 75].

﴿**وَجَعَلْنَـا بَيْنَهُمَـا زَرْعًـا**﴾: وجعلنـا فـي وسـطهما زرعـا، وبـذلك تكـون الجنتـان جـامعتين للأقـوات والفواكـه، مشـتملتين علـى مـا مـن شـأنه أن يشرح الصدر، ويفيد الناس.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 33]

196- يُنظر تفسير الشوكاني 338/3- تفسير الماوردي 305/3- تفسير القرطبي 401/10.
197- تفسير السعدي ص: 476.

يقول الله في وصفه للجنتين إنها أعطت ثمارها كاملة غير منقوصة، أذن الله لها أن تعطي ثمارها كاملة ولم تظلم منه شيئا، والأُكُل: هو ما يُؤكل.

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾: كلمة "تَظْلِم" تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا، فالأرض وهي جماد لا تظلم، ولا تمنع الإنسان حقًّا، ولا تهدِر له تعبًا، فإنْ أعطاها جهده وعمله جادتْ عليه، يضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليه الآلاف، يضع فيها كيلة تعطيه إردبًا فهي كريمة جوّادة شريطة أن يعمل الإنسان ما عليه من حَرْثٍ وبَذْرٍ ورعاية وسُقْيا، وقد تريحه السماء، فتسقي له[198].

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: "ثَمَرٌ" ثلاثُ قراءاتٍ:

1- ثَمَرٌ، بفتحِ الثَّاءِ والمِيمِ في الحرفينِ جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَقَرةٍ وبَقَرٍ، الفرقُ بينَ الواحِدِ والجمعِ إسقاطُ الهاءِ. قرأ بها عاصمٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ.
2- ثُمْرٌ، بضمِّ الثاءِ، وإسكانِ الميمِ، جمعُ ثَمَرَةٍ، كبَدَنَةٍ وبُدْنٍ، ويجوزُ أن يكونَ جمعَ ثمارٍ، كما يُخفَّفُ "كُتْب". قرأ بها أبو عمرٍو.

198- يُنظر: تفسير ابن جرير 258/15 - تفسير القرطبي 403/10 - تفسير ابن كثير 157/5 - تفسير الشوكاني 339/3.

3- ثُمُرٌ، بضمِّ الثاءِ والميمِ، جمعُ ثمارٍ، كقولِك: كتابٌ وكُتُبٌ، قيل: معناها الأموالُ، وقيل: الأصولُ التي تحملُ الثمرةَ. قرأ بها الباقون[199].

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أي: وكان لصاحِبِ الجَنَّتَينِ ثمارٌ عظيمةٌ منهما، نظر هذا الغني إلى ماله وكثرته وجنته وما فيها من الثمار والزروع المختلفة الألوان فاغترَّ وبطر وتكبر فطغى وتعالى على صاحبه المؤمن الفقير وقال له:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: فقال مالِكُ الجَنَّتَينِ الكافِرُ لصاحِبِه المؤمِنِ -المجعولِ مَثَلًا لفُقَراءِ المؤمِنينَ- وهو يُراجِعُه في الكلامِ ويُخاطِبُه، ويجادِلُه تكبُّرًا وافتخارًا عليه، وتقبيحًا لحالِه بالنِّسبةِ إليه: لي من المالِ أكثَرُ مِمَّا تَملِكُ، وأنا أكثَرُ منك أُناسًا يَنصُرونَني فيقومونَ معي في المُهِمَّات، ويَنفِرونَ عند الضَّروراتِ مِن وَلَدٍ أو عشيرةٍ، أو خَدَمٍ وأتباعٍ، أنا أكثر منك مالا وولدا عشيرة ورهطًا. وقال قتادة: "خدمًا وحشمًا" أنا أرفع منك قدرا وأعلى منك شأنا ومنزلة، فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد، وخدم وأقارب، وهذا جهل منه، وما أصدق قول قتادة رضي الله عنه: "تلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر" فافتخر عليه بالغنى والحسب، حمله ذلك على البطر والكفر والتكبر على صاحبه الفقير فكان ينظر إليه نظر المتكبر الطويل الأمل في الدنيا والذي لا يفكر في الموت ولا يخطر بباله، وينكر أن هناك بعث ومعاد ونشور وحساب وحياة في الآخرة، يقول ذلك افتخارًا وليس تحدثًا بنعمة الله، بدليل العقوبة التي حصلت عليه. وأول الخيبة أن يشتغل العبد بالنعمة عن المنعِم، ويظن أن ما هو فيه من نعيم ثمرةُ جهده وعمله، ونتيجة سعْيه ومهارته، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78]، فتركه الله لِعلْمه ومهارته، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

199- يُنظر: النشر لابن الجزري 310/2 ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: حجة القراءات لابن زنجلة ص: 416، البسيط للواحدي 11/14، الدر المصون للسمين الحلبي 81/5.

﴿الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]. ولم ينفعه ماله أو علمه. هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع: كافر يستكبر ويستغني ويستعلي بغناه، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له[200].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُه تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ فجعَل الفِعلَ واحِدًا، ولم يقُلْ: "آتَتَا أُكُلَهما"، لأنه يجوزُ مراعاةُ اللَّفظِ ومُراعاةُ المعنى في "كلتا"، فلو راعى معنى قَولِه: "كِلْتَا" لقال: "آتتا"، لكِنَّه راعى اللفظ[201].

2- قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ دلَّ فِعلُ المُحاورةِ على أن صاحِبَه قد وعَظَه في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، فراجَعَه الكلامَ بالفَخرِ عليه والتَّطاوُلِ، شأنُ أهلِ الغَطرسةِ والنَّقائِصِ؛ أن يَعدِلوا عن المجادلةِ بالتي هي أحسَنُ إلى إظهارِ العَظَمةِ والكِبرياءِ[202].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾

[الكهف: 35]

200- يُنظر: تفسير ابن جرير 261/15، 262، تفسير ابن عطية 516/3، تفسير القرطبي 403/10، تفسير ابن كثير 157/5، نظم الدرر للبقاعي 58/12.
201- يُنظر: معاني القرآن للأخفش 430/2،
202- يُنظر: تفسير ابن عاشور 320/15.

أي: ودخل الرَّجُلُ بُستانَه. قال المفسِّرُونَ: أخَذ بيدِ أخيه المسلمِ، فأدْخَله جَنَّتَه يطوفُ به فيها، ويُرِيه عجائِبَها [203].

والحالُ أنَّه ظالمٌ لِنَفسِه بالكُفرِ باللهِ وتَكبُّرِه وتجَبُّرِه، وطغيانه وإنكارِه البَعثَ يومَ القيامةِ.

﴿**قَالَ مَا أَظُنُّ أن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**﴾ تكبر على صاحبه الفقير المؤمن وقال: ما أظُنُّ أن تفنى وتضمَحِلَّ جنَّتي هذه أبدًا، هل يعقل أن تزول هذه الجنة وأن يأتي يوما أفقد فيه هذه الثمار؟ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضى بها، وأنكر البعث، ﴿مَا أَظُنُّ أن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ يعني ما أظن أن تفنى وتزول أبدًا، أعجب بها وبما فيها من قوة وحسنِ المنظر، حتى نسي أن الدنيا لا تبقى لأحد، ثم أضاف إلى ذلك قوله:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]

﴿**وَمَا أظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ أي القِيامةَ كائِنةً فلا يُوجَدُ بَعثٌ ولا حِسابٌ ولا جَزاءٌ، هذا الكلام كان يحاور به صاحبه المؤمن الفقير حيث كان منكرا للميعاد وللبعث. فقال أنا لا أظن أن هناك قيامة كما يقول صاحبي وأن هناك حياة أخرى بعد الموت.

﴿**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ أي: ولو قُدِّرَ وافتُرِضَ كان كلام صاحبي هذا صحيحًا وأن بعد الموت بعث وأن هناك معاد ومرد إلى الله وأنَّني رُجِعْتُ إلى ربِّي فبعَثَني بعد موتي، لَأُعطَيَنَّ في الآخرةِ جَنَّةً خَيرًا مِن هذه الجنَّةِ التي أعطانيها في الدُّنيا لأنه لم يُعطِني هذه إلَّا لأني أستحِقُّها ولي عنده حُظوةٌ ومكانةٌ، فكذلك يكون حالي في الآخرةِ على تقديرِ وُجودِها! أي ليكون لي هناك عند

203- تفسير الشوكاني 339/3.

ربـي أحسـن مـن هـذا الحـظ ولـولا كرامتـي عليـه مـا أعطـاني هـذا، فكـان يظـن أن يجد هـذا النعيم عنـد ربـه وخيـرا منـه، وكمـا قـال فـي آيـة أخـرى: ﴿وَمَـا أَظُـنُّ السَّـاعَةَ قَائِمَـةً وَلَـئِن رُّجِعْـتُ إِلَـى رَبِّـي إِنَّ لِـي عِنـدَهُ لَلْحُسْـنَى﴾ [فصـلت: 50]. وقـال تعـالى: ﴿أَفَرَأَيْـتَ الَّـذِي كَفَـرَ بِآيَاتِنَـا وَقَـالَ لَأُوتَـيَنَّ مَـالًا وَوَلَـدًا﴾ [مـريم: 77] أي فـي الـدار الآخـرة، فكأنـه يقـول: بمـا أن الله أنعـم علـيّ بالـدنيا، فـلا بـد أن يـنعم علـي بـالآخرة، وهـذا قيـاس فاسـد، لأنـه لا يلـزم مـن التنعيم فـي الـدنيا أن يـنعم الإنسـان فـي الآخـرة، ولا مـن كـون الإنسـان لا يُـنَعَّم فـي الـدنيا ألا يُـنَعَّم فـي الآخـرة، لا تـلازم بـين هـذا وذاك، بـل أن الكفـار يُنعمـون فـي الـدنيا وتُعجـل لهـم طيبـاتهم فـي حيـاتهم الـدنيا، ولكـنهم فـي الآخـرة يُعـذَّبون. قـال السـعدي: هـذا لا يخلـو مـن أمـرَين: إمَّـا أن يكـونَ عالِمًـا بحقيقـةِ الحـالِ، فيكـونَ كَلامُـه هـذا علـى وَجـهِ الـتهَكُّمِ والاسـتهزاءِ، فيكـونَ زيـادةَ كُفـرٍ إلـى كُفـرِه، وإمـا أن يكـونَ هـذا ظَنَّـه فـي الحقيقـةِ، فيكـونَ مِـن أجهَـلِ النَّـاسِ، وأبخَسِـهم حظًّـا مـن العَقـلِ؛ فـأيُّ تـلازمٍ بـين عطـاءِ الـدنيا وعطـاءِ الآخـرة، حتـى يَظُـنَّ بجَهلِـه أن مَـن أعطِـيَ فـي الـدنيا أعطِـيَ فـي الآخـرةِ؟! بـل الغالِـبُ أن اللهَ تعـالى يـزوي الـدُّنيا عـن أوليائِـه وأصـفيائِه، ويوسِّـعُها علـى أعدائِـه الـذين لـيس لهـم فـي الآخِـرةِ نصـيبٌ، والظَّـاهِرُ أنَّـه يعلَـمُ حَقيقـةَ الحـالِ، ولكِنَّـه قـال هـذا الكـلامَ علـى وَجـهِ الـتهَكُّمِ والاسـتهزاءِ، بـدليلِ قَولِـه: وَدَخَـلَ جَنَّتَـهُ وَهُـوَ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ؛ فإثبـاتُ أن وَصْـفَه الظُّـلمُ فـي حـالِ دخولِـه الـذي جـرى منـه مـن القَـولِ مـا جرى: يدُلُّ على تمرَدُّه وعِنادِه [204].

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37]

204- يُنظر: تفسير ابن جرير 262/15، 263، تفسير القرطبي 404/10، تفسير ابن كثير 157/5، نظم الدرر للبقاعي 60/12، تفسير السعدي ص: 477.

يخبرنا الله تعالى في هذه الآية عن إجابة صاحبه المؤمن الذي كان واعظا له وزاجرا عما هو عليه من الكفر والإنكار والاغترار، قال له صاحِبُه المؤمِنُ وهو يخاطِبُه ويكَلِّمُه: أكفَرْتَ، والهمزة في قوله "أَكَفَرْتَ" للإنكار، باللهِ الذي ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ خلقَ أصلَك آدَمَ مِن تُرابٍ، هذا إنكار من صاحبه المؤمن لما وقع به صاحب الجنة من جحود فالله خلقه وابتدأ خلقه من طين وهو آدم عليه السلام أبا البشر خُلق من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ ثمَّ أنشأك مِن مَنِيٍّ، فلأن بني آدم خُلِقوا من نطفة.

﴿**ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**﴾ ثمَّ عَدَلَك وكَمَّلَك، فصَيَّرك رجُلًا سَوِيًّا مُعتَدِلَ القامةِ والخِلْقةِ، صحيحَ الأعضاءِ؟! هيَّأك هيئةً تَعقِلُ وتَصلُحُ للتَّكليفِ، فهل يجوزُ في العَقلِ مع هذه الحالةِ إهمالُه أمْرَك؟! فالذي خلَقَك كذلك قادِرٌ على البَعثِ الذي أنت تُنكِرُه. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: 20]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ ﴿12﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿13﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿7﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 7، 8]. وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28]، أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم واضحة ظاهرة جلية؟ فكلنا نعلم أننا كنا معدومين فالله عز وجل أوجدنا ولم نوجد أنفسنا، فالله لا إله إلا هو خالق كل شيء[205].

205- يُنظر: تفسير ابن جرير 263/15، تفسير القرطبي 404/10، تفسير ابن كثير 158/5، تفسير السعدي ص: 477، تفسير ابن عاشور 322/15، أضواء البيان للشنقيطي 275/3، 276، تفسير الرازي 464/21.

﴿لَّكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 38]

﴿لَكِنَّاْ﴾ أصلها «لكن أنا» وحذفت الهمزة تخفيفًا وأدغمت النون الساكنة الأولى بالنون الثانية المفتوحة فصارت لكنَّا، وتكتب بالألف خطًّا.

وأما التلاوة ففيها قراءتان: إحداهما بالألف وصلًا ووقفًا، والثانية بالألف وقفًا وبحذفها وصلًا. هذا هو كلام المؤمن الفقير وهو يحاور الغني المتكبر، أي لكِنْ أنا لا أكفُرُ ولا أقولُ مِثلَ قَولِك، بل أنا أعترف لله بالوحدانية والربوبية، أي أقولُ: هو الله ربي الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحدَه، ولا أعبُدُ أحدًا غَيرَه، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]. وعلى هذا فيكون "هُوَ" ضمير الشأن، يعني الشأن أن الله تعالى ربي. وهذا كقول ابن آدم لأخيه قابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] يعني أنت كفرت ولكني أنا أعتز بإيماني وأؤمن بالله، هو الله المعبود وحده لا شريك له. يتضح من حوارهما أن كثرة الأموال والجاه والسلطان والأولاد والرفعة في الدنيا ليس عنوانًا لمرضاة الله عز وجل، ولا يعني أن من كان غنيًا وله أموال وجاه أن الله راضٍ عنه. وأن الله عز وجل أراد أن يؤكد أن هذه الموازين موازين دنيوية لا تنفع أبدا ولا تساوي شيئا عند الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]. أي هل يظن أهل الدنيا أن ما أعطاهم الله وما أنعم الله به عليهم من النعم عنوان رضاء الله تعالى عليهم؟ لا بل أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178]. فالله عز وجل كانت له حكمة في بسط الرزق لهذا الغني الكافر، ابتلاه بالغنى ليختبره وليمتحنه ليرى أيشكر أم يكفر، وابتلى الفقير بالفقر ليختبره وليمتحنه ليرى أيصبر أم يجزع، فالله عز وجل عندما ينعم على

الإنسان ويبسط له الرزق فهذا لا يدل على أن الله تعالى راضٍ عنه وإنما هو امتحان واختبار والمهم النجاح في هذا الامتحان هل نشكر الله ونصبر أم نكفر ونجزع [206].

﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ أن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39]

هنا تكملة لحديث المؤمن الفقير حيث يقول للكافر:

﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: "وَلَوْلا" يعني هلَّا، وهلَّا إذ دخلتَ بُستانَك قلتَ حين أعجَبَك: ما شاءَ اللهُ لا قوة إلا بالله، لا قُوَّةَ لي على شَيءٍ إلَّا بإعانةِ اللهِ لي، ومِن ذلك إنشاءُ الجنَّتَينِ وعِمارتُهما، وتدبيرُ أمرِهما، كان المؤمن الفقير يحض الكافر على الاعتراف بفضل الله ومنّه وكرمه، والإقرار أن ما به من نعمة من مال وأولاد وزروع كله من الله وحده ولا حول ولا قوة لأحد على أي عمل إلا بالله. عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: "يا عبدَ اللهِ بنَ قَيسٍ، ألَا أعَلِّمُك كَلِمةً هي مِن كُنوزِ الجنَّةِ؟ لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ"[207].

فلا تحول لأحد ولا حركة عن معصية الله إلا بمعونة الله، وهو من يحول بيننا وبين المعصية، ولا حول لنا ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى. وعلينا أن نتبرأ من حولنا وقوتنا وأن نعلم

206- يُنظر: تفسير ابن جرير 263/15، 264، تفسير ابن كثير 158/5، تفسير السعدي ص: 477.
207- رواه البخاري 6610 واللفظ له، ومسلم 2704.

أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولنعلم أن أي نعمة هي من عند الله. وهنا نفهم أنه يستحب ذكر الله عند رؤية نعم الله بقولنا "ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39]

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا عَلَّمه الإيمان وتفويضَ الأمورِ إلى اللَّهِ سبحانَه؛ أجابَه على افتخارِه بالمالِ والنَّفَرِ، فقالَ: ﴿**إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا**﴾ [208]، أي: قال الرجُلُ المؤمِنُ للكافِرِ: أن رأيتَني أقَلَّ منك مالًا وأولادًا، فتكبَّرْتَ وافتخَرْتَ بذلك عليَّ واحتقَرْتَني لكوني أقل منك مالا وولدا ولست مثلك في عزَّة النفر.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: 40]

أي: فلعَلَّ ربِّي أن يَرزُقَني لإيماني خَيرًا مِن بُستانِك الذي تفتَخِرُ به عليَّ.

208- ينظر: تفسير الشوكاني 340/3.

﴿**فَعَسَى**﴾ فيها احتمالان:

- الأول: أنها للترجي: أن هذا دعا أن يؤتيه الله خيرًا من جنته وأن ينْزل عليها حسبانًا من السماء، لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر أمر الله عزّ وجل، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به، هذا إذا جعلنا عسى للترجي.

- الثاني: أن تكون عسى للتوقع، والمعنى أنك أن كنت ترى هذا فإنه يُتَوقع أن الله تعالى يُزيل عني ما عِبتني به ويزيل عنك ما تفتخر به. وأيًا كان فالأمر وقع إما استجابة لدعائه وإما تحقيقًا لتوقعه.

﴿**أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ**﴾ قيل في الدار الآخرة وقيل في الدنيا،

﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ أي: ويُرسِلَ على بُستانِك الذي ظَنَنْتَ أنَّه لا يَبيدُ ولا يفنى حُسْبَانًا. والمراد بالحسبان هنا ما يدمرها من صواعق أو غيرها، قيل عذابًا من السماء لِيُهلِكَه، وقيل إنه مطر عظيم يقلع زرعها وأشجارها، وخصَّ السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، يعني لو نفرض أنه جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر، وقيل إن نوع العقاب الذي وقع على هذا الرجل الكافر أنه نزلت نار من السماء فأحرقت البستان، والله تعالى أعلى وأعلم. وقيل أيضًا الحساب كما في قوله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: 5]. أي يرسل الله تعالى عليها عذابًا وهو حساب ما اكتسبت يداك.

﴿**فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**﴾ أي: فيُصبِحَ بُستانُك بسَبَبِ العذابِ أرضًا مُسْتويةً، جَرداءَ لا نباتَ فيها، ملساءَ لا ينبت فيه زرع لا تَثبُتُ عليها قَدَمٌ وقال ابن عباس: كالجزر الذي لا ينبت. تأكيد لوصف الصعيد أي تزل عنها الأقدام لملامستها، أي قد غمرها الماء.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: 41]

﴿**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**﴾ أي: أو يُصبِحَ ماءُ النَّهرِ الذي يَسْقي بستانَك ﴿غَوْرًا﴾ بمعنى غائرًا [مصدر بمعنى اسم الفاعل] ذاهبًا في الأرضِ، فلن تَقدِرَ على طَلَبِ الماءِ واستِخراجِه.فدعا دعوة يكون فيها زوال هذه الجنة إمَّا بماء يغرقها حتى تصبح ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، وإما بغور مائها أي يصبح غائرًا داخل الأرض لا يستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها ولا سُقيا معه، فالماء الغائر عكس النابع، فالنابع هو الذي ينبع من الأرض ويخرج على وجه الأرض، والماء الغائر يطلب أسفل الأرض وليس وجهها، فعندما يغور الماء لا تنفع الأرض ولا ينبت بها زرعا ولا يمكن الوصول إليه كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ أن أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: 30].

﴿**فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**﴾ أي لن تستطيع رد الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة فلن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غَوْره، بطلبك إياه. هنا المؤمن الفقير يدعو على الكافر الغني غضبا لربه بأن يرسل الله عليه حسبانًا من السماء ويبيد جنته لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينيب، ويراجع رشده، ويبصر في أمره. هل يجوز الدعاء على الظالم نفسه بزوال النعمة التي به؟ قال العلماء يجوز الدعاء على الظالم نفسه بزوال نعمته إذا كانت النعمة أطغته وجعلته يتكبر على خلق الله ويتعالى عليهم ولا يوقرهم ولا يعترف بفضل الله عليه كما

فعل الكافر الغني هنا. ونلاحظ أيضا في قصة موسى عليه السلام مع فرعون قول موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88]، فهنا دعا موسى عليه السلام على فرعون لما رآه تكبر وتجبر وطغى ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24] [209].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فيه استِحبابُ هذ الذِّكرِ عند رؤيةِ ما يُعجِبُ حتى يفَوِّضَ الأمرَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ لا إلى حَولِه وقُوَّتِه، فينبغي لِمن دخل بُستانَه أو دارَه، أو رأى في مالِه وأهلِه ما يُعجِبُه: أن يبادِرَ إلى هذه الكَلِمةِ فإنَّه لا يرى فيه سُوءًا ولهذا قال العلماء: من أعجبه شيءٌ مِن حالِه أو مالِه أو ولَدِه، فليقُلْ: ما شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وهذا مأخوذٌ مِن الآية الكريمةِ [210].

2- قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أفادت هذه الكَلِمةُ إثباتَ القُوَّةِ لله، وبراءةَ العَبدِ منها، والتَّنبيهَ على أنَّه لا قُدرةَ لأحدٍ مِن الخَلقِ إلَّا بتَقديرِه تعالى، فلا يُخافُ مِن غَيرِه [211].

3- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ في الآية الإرشادُ إلى التسَلِّي عن لذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها بما عندَ اللهِ مِن الخَيرِ [212].

209- يُنظر: تفسير ابن جرير 265/15، تفسير البغوي 193/3، تفسير القرطبي 408/10، تفسير البيضاوي، تفسير ابن كثير 159/5، تفسير السعدي ص: 477، تفسير ابن عاشور 325/15 - الوجيز للواحدي ص: 662.
210- يُنظر: الإكليل للسيوطي ص: 171 - تفسير ابن كثير 158/5.
211- ينظر: نظم الدرر للبقاعي 63/12.
212- يُنظر: تفسير السعدي ص: 477.

4- قَـولُ اللهِ تعـالى: ﴿فَعَسَــى رَبِّــي أن يُـؤْتِيَنِ خَيْـرًا مِـن جَنَّتِـكَ وَيُرْسِـلَ عَلَيْهَـا حُسْـبَانًا مِّـنَ السَّـمَاءِ فَتُصْـبِحَ صَـعِيدًا زَلَقًـا﴾ فيـه الـدُّعاءُ بتَلَـفِ مـالِ مَـن كـان مالُـه سَـبَبَ طُغيانِـه وكُفـرِه وخُسـرانِه، وذلـك علـى أحـدِ الاحتمـــالينِ فـــي التفســـيرِ، خُصوصًـــا إن فَضَّـــلَ نَفسَـــه بسَـــبَبِه علـــى المُؤمِنينَ، وفخَرَ عليهم[213].

5- قـال الله تعـالى: ﴿وَدَخَـلَ جَنَّتَـهُ﴾ فـي إفـرادِ الجنَّـةِ بعـد تثنيتِهـا فيمـا سـبق أوجهٌ:

الوجـه الأول: أنَّـه وحَّـد لإرادة الجِـنسِ، ودلالـةً علـى مـا أفـاده الكـلامُ مِن أنَّهما لاتصالِهما كالجنَّةِ الواحدةِ[214].

الوجـه الثـاني: لأنـه أوَّلَ مـا يـدخُلُ إنَّمـا يـدخُلُ إحـداهما قبـل أن ينتَقِـلَ إلـى الأخـرى، فمـا دخـل إلَّا إحـدى الجنَّتـين؛ لأنـه لا يـدخُلُهما معًـا فـي وقتٍ واحدٍ[215].

الوجـه الثالـث: أنَّـه إنمـا أفرَدَهـا بعـد ذِكـرِ التثنيـةِ اكتفـاءً بالواحِـدِ للعِلـمِ بالحالِ[216].

الوجـه الرابـع: أنَّـه أفـرَدَ لأنهمـا جميعًـا مِلْكُـه، فصـارا كالشَّـيءِ الواحِـدِ[217].

الوجـه الخـامس: أن معنـاه: ودخـل مـا هـو جنَّتـه، مـا لـه جنـةٌ غيرُهـا، يعنــي: أنَّــه لا نصـيبَ لـه فـي الجنَّـةِ التـي وُعِـدَ المؤمنـون لأنـه لا حَـظَّ لـه فـي الآخـرةِ، فمـا ملَكَـه فـي الـدُّنيا هـو جنَّتُـه لا غيـرُ، ولـم يقصِـدِ الجنَّتين ولا واحدةً منهما[218].

6- قَـولُ اللهِ تعـالى: ﴿وَدَخَـلَ جَنَّتَـهُ وَهُـوَ ظَـالِمٌ لِنَفْسِـهِ قَـالَ مَـا أَظُـنُّ أن تَبِيـدَ هَــذِهِ أَبَـدًا (35) وَمَــا أَظُــنُّ السَّــاعَةَ قَائِمَــةً وَلَـئِنْ رُدِدْتُ إِلَــى رَبِّــي لَأَجِـدَنَّ خَيْـرًا مِنْهَـا مُنْقَلَبًـا (36) قَـالَ لَـهُ صَـاحِبُهُ وَهُـوَ يُحَـاوِرُهُ أَكَفَـرْتَ

213- نفس المصدر السابق.
214- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 59/12.
215- يُنظر: تفسير أبي حيان 176/7، تفسير ابن عاشور 320/15.
216- يُنظر: تفسير ابن عادل- 486/12.
217- يُنظر: الدر المصون للسمين الحلبي 489/7.
218- يُنظر: تفسير الزمخشري 721/2، نظم الدرر للبقاعي 59/12.

بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ في هذه الآيات أن الإنسان الأوَّلَ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وهذا الثَّاني كَفَّرَه، حيث قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا يدُلُّ على أن الشَّاكَّ في حُصولِ البَعثِ، ومنكرَ المعادِ كافرٌ بربِّ العالمين، وإن زعَم أنَّه مقِرٌّ به، وقد جاء ذلك صريحًا في أول سورة الرعد في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: 5] [219].

7- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ما قال سُبحانَه: «ما شاء اللهُ كان» ولا: «يكونُ»، بل أطلقَ اللفظَ؛ ليَعُمَّ الماضيَ والمستقبلَ والرَّاهنَ [220]. قال ابنُ هُبيرة: تدبَّرتُ قولَه تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، فرأيتُ لها ثلاثةَ أوجهٍ: أحدُها: أن قائِلَها يتبرَّأُ مِن حَولِه وقُوَّتِه، ويُسَلِّمُ الأمرَ إلى مالِكِه. والثاني: أنَّه يعلمُ ألا قُوَّةَ للمَخلوقينَ إلَّا باللَّه، فلا يخافُ منهم؛ إذ قُواهُم لا تكونُ إلَّا باللَّهِ، وذلك يُوجِبُ الخوفَ مِن اللهِ وحدَهُ. والثَّالثُ: أنَّه ردَّ على الفَلاسفةِ والطَّبائعيِّينَ الذين يدَّعونَ القُوى في الأشياءِ بطبيعتِها؛ فإنَّ هذه الكَلِمةَ بَيَّنَت أن القَويَّ لا يكونُ إلَّا باللهِ [221].

219- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 277/3.
220- الفائدةُ لابنِ هبيرةَ، يُنظر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 142/2، 143.
221- يُنظر: ذيل طبقات الحنابلة 143/2.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 42]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان من المعلومِ أن هذا المُؤمِنَ المُخلِصَ بعَينِ الرِّضا، كان من المعلومِ أن التَّقديرَ: فاستُجيبَ لهذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ، أو: فحُقِّقَ له ما توَقَّعَه، فخُيِّبَ ظَنُّ المُشرِكِ، فعُطِفَ عليه قولُه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [222].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: يختتمُ الله سبحانه مثلَ الرجلين: المؤمنِ والكافرِ ببيانِ العاقبةِ السيئةِ التي حلَّت بذلك الغني الكافرِ، فيقولُ تعالى: وأحاط الدَّمارُ بحَديقةِ هذا الكافرِ، فهلك كلُّ ما فيها، وقع به ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها، وألْهَته عن الله عز وجل فحدث ما توقعه صاحبه الرجل الصالح ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ ولم يقُلْ مثلًا: أحيط بزرعه أو بنخله لأن الإحاطة قد تكون بالشيء، ثم يثمر بعد ذلك، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته، وهو قريب الجنْي قريب التناول، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع فنزل به العذاب من السماء وأحاط بجنته من جميع الجهات فأباد البستان كله بما فيه، واستهلكه وهلكت أمواله وثماره كلها، فلم يبق منه شيء. والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه، وقيل: أُتْلِف مالُه كلُّه، وهَلَكَتْ أنعامُه، وسُلِبَتْ أموالُه. فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه.

222- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 64/12.

﴿**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا**﴾: فصار يُقَلِّبُ كَفَّيه أي يضرب كَفًّا بكفٍّ، قال ابنُ عباس: يضرِبُ يديه واحدةً على أخرى، وقيل: يُقلِّبُهما ظهرًا لبَطنٍ. وتَقليبُ الكفَّينِ كِناية عن النَّدمِ والتَّحسُّرِ لأن النَّادِمَ يُقلِّبُ كفَّيْه ظهرًا لبطنٍ، يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها، حَسرةً وندامةً على ما أنفَقَ فيها فلم يَبقَ لها عِوَضٌ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه، ندما على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، على الأموال التي أنفقها فيها والتعب الذي ضاع عليها والمال والجهد والوقت، ثم ذهب كل هذا مع الرياح سُدًى ولم يبق منه شيء، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض. وهذا يدل على أنه أنفق فيها شيئًا كثيرًا. ودل قوله "فأصبح" على أن هذا الإهلاك جرى بالليل، كقوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: 19-20] [223].

﴿**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾ أي: وهي خاويةٌ من كلِّ شيءٍ خاليةٌ مِن الأشجارِ والزُّروعِ والثِّمارِ هامدة على عروشها قد سقطَ بَعضُها على بعضٍ، سقَطَت سقوفُها ثمَّ سقَطَت جُدرانُها عليها. وأصل الخواء السقوط والتهدم. يقال: خوى البيت إذا سقط، كما يطلق على الخلاء من الشيء. يقال: خوى بطن فلان من الطعام أي: خلا منه. وخوت الدار إذا خلت من سكانها. ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: 52]. فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها، ﴿عُرُوشِهَا﴾ جمع عرش، وهو سقف البيت أو عريش وهو ما يوضع لتمتد عليه أغصان الأعناب وغيرها، والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح.

﴿**وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾ أي: ويقولُ الكافِرُ يا ليتَني كنتُ مُوَحِّدًا لم أُشرِكْ برَبِّي أحدًا، وشَكَرتُه على نِعَمِه ولم أكفُرْ به، ندم على شركه وشره، تمنى أنه لم يشرك بالله أحدًا، لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه، ولكن الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، إنما ينتفع

223- يُنظر: تفسير ابن جرير 268/15، تفسير ابن كثير 160/5، تفسير السعدي ص 477، تفسير ابن عاشور 326/15 - تفسير الرسعني 292/4 - البسيط للواحدي 28/14، تفسير القرطبي 410/10.

مـن سـمع القصـة، أمـا مـن وقعـت عليـه فـلا ينفعـه النـدم لأنـه قـد فـات الأوان.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾
[الكهف:43]

مناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا افتخر الكـافرُ بكثـرةِ مالِـه، وعِـزَّةِ نَفَـرِه، أخبـرَ تعـالى أنَّـه لـم تكُـنْ لـه فِئَـةٌ -أي: جماعَـةٌ- تنصُـرُه، ولا كـانَ هـو مُنتَصِـرًا بنفسِـه ولـم تكـنْ لـه جماعـةٌ ممَّـن افتخَـرَ بهـم يمنَعونَـه مِـن عـذابِ اللهِ النَّـازلِ بـه، ومـا كـان مُمتَنِعًا بنَفسِه وقُوَّتِه من ذلك العذابِ.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ولـم تكُـنْ لـه جماعـةٌ يَمنَعونَ عنـه عـذابَ اللهِ لمـا نـزل العـذاب بجنتـه، ذهـب عنـه مـا كـان يفتخـر بـه مـن قولـه لصـاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ولـم تكـن لهـذا الجاحـد المغـرور بعـد أن خـوت جنتـه علـى عروشـها، عشـيرة، أو أعـوان ينصـرونه، ولا فرقـة أو جماعـة تـدفع عنـه عـذاب الله وتنصـره مـن بـأس الله لمـا جـاءه، لـم تمنعـه فِئَتُـهُ مـن عقوبـة الله ولـم ينتصـر هـو بنفسـه لأنـه والعياذ بالله كفر وحاور المؤمن فعوقب بهذه العقوبة.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي ومـا كـان هـذا الرجـل الـذي جحـد نعـم ربـه مُمتَنِعًـا بنَفسِـه مِـن عـذابِ اللهِ لأن الله سـبحانه قـد حجـب عنـه كـل وسـيلة تـؤدي إلـى نصـره وعونـه، بسـبب إيثـاره الغـي علـى الرشـد، والكفـر علـى الإيمـان، فلـم تكـن لـه قـوة ذاتيـة تـدفع عنـه عـذاب الله ولـم تكـن لـه قـوة

خارجيــة تــدفع عنــه بــأس الله. وهــذه حكمــة الله وســنته فــي الأقــوام المتجبرين [224].

﴿هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:44]

مُناسَبَةُ الآيَة لِما قَبْلَهَا:

أنَّـه لَمَّـا أنـتج هـذا المثَـلُ قَطعًـا أنَّـه لا أمـرَ لغيـرِ الله المرجـوِّ لنَصـرِ أوليائـه بعـد ذُلِّهـم، ولإغنــائِهم بعـد فَقـرِهم، ولإذلالِ أعدائِـه بعـدَ عِـزِّهم وكِبـرِهم، وإفقــارِهم بعـد إغنــائِهم وتجبُّـرِهم، وأنَّ غيـرَه إنمــا هـو كالخيــالِ لا حقيقـةَ لـه- صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.[225]

﴿هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الْحَقِّ﴾

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولـه: ﴿الولاية﴾، قراءتان:

1- ﴿الوِلايــة﴾ بكســر الــواو، أي: المُلــكُ والسُّــلطانُ والقــدرةُ لله. قــرأ بهــا حمزةُ، والكسائي، وخلف.

224- يُنظر: تفسير أبي حيان 181/7- تفسير ابن جرير 269/15، تفسير البغوي 194/3، تفسير القرطبي 410/10.
225- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 65/12.

2- ﴿الوَلايةَ﴾ بفتح الواو، أي: النُّصرةُ لله، قرأ بها الباقون [226]. كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: 72].

وفي قوله: ﴿الْحَقِّ﴾ قراءتان:

1- ﴿الْحَقُّ﴾ بضمِّ القافِ، صِفةً للولاية، قيل المعنى: ولايةُ اللهِ حَقٌّ وصِدقٌ لا يشوبُها نَقصٌ ولا خَلَلٌ. وقيل المعنى: الولايةُ الحَقُّ لله لا يستَحِقُّها غيرُه. قرأ بها أبو عمرٍو، والكسائي.
2- ﴿الْحَقِّ﴾ بكسرِ القافِ صفةً لله تعالى بمعنى: ذي الحَقِّ أي: هو الحَقُّ في ألوهيَّتِه. قرأ بها الباقون [227].

﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**﴾ في ذلك المقامِ وتلك الحالِ تكونُ النُّصرةُ لله المعبودِ الحَقِّ وَحدَه، لا يملكُها غيرُه ولا يَقدِرُ عليها سِواه، وإذا كان ليس هناك انتصار ولا سلطان إلا لله فإن جميع من دونه لا يفيد صاحبه شيئًا، كل واحد سيرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له، فيتولَّونَ اللهَ جميعُهم ويُؤمِنونَ به، فمن كان مؤمنا به تقيا، كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور. وأما الكافرون الذين كانوا يتبرؤون من الله في الدنيا ويتولون غيره فإذا نزل بهم العذاب يتبرَّؤون مما كانوا يعبدونَ مِن دونِه مِن الآلهةِ الباطلةِ الكاذبةِ، ويثبتون ولايتهم لله وحده يوم القيامة، ولكن لا ينفعهم هذا بعد أن نزل بهم العذاب، قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿90﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 90-91]. والله سبحانه لا يتولَّى ولا ينصُرُ سوى عبادِه المؤمِنينَ المتَّقينَ. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62].

226- يُنظر: النشر لابن الجزري 277/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: معاني القراءات للأزهري 112/2، حجة القراءات لابن زنجلة ص: 418.
227- يُنظر: النشر لابن الجزري 311/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: تفسير ابن جرير 270/15، 271، الكشف لمكي 63/2.

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 101].
وقال عزَّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: 84]. نستفيد من هذه القصة التوبة العاجلة والنصوحة إلى الله قبل أن يفوت الأوان.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: "هُوَ" الضمير يعود على الله، أي: اللهُ أفضَلُ جَزاءً لأهلِ طاعتِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، وعاقِبةُ طاعتِه خيرٌ مِن عاقبةِ طاعةِ غيرِه، إذا أثاب عن العمل فهو خَيْرٌ ثَوَابًا، لأن غير الله أن أثاب فإنه يثيب على العمل بمثله، وإن زاد فإنه يزيد شيئًا يسيرًا، أما الله فإنه يثيب العمل بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. كذلك هو ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ من غيره جلَّ وعلا، لأن من كان عاقبته نصر الله عزّ وجل وتَوَلِّيَهُ فلا شك أن هذا خير من كل ما سواه. جميع العواقب التي تكون للإنسان على يد البشر تزول لكن العاقبة التي عند الله عزّ وجل لا تزول. خير العاقبة بالرزق الطيب في جنة الخلد[228].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿42﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿43﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ في هذه القِصَّةِ العَظيمةِ اعتِبارٌ بحالِ الذي أنعم اللهُ عليه نِعَمًا دُنيويَّةً، فألهَتْه عن آخِرتِه وأطغَتْه، وعصى اللهَ فيها، أن مآلَها الانقِطاعُ والاضمِحلالُ، وأنَّه وإن تمتَّعَ بها قليلًا فإنَّه يُحرَمُها طَويلًا.

2- قال الله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ فأحاطَ به هذا العِقابُ لا لمُجرَّدِ الكُفْرِ لأن اللهَ قد يُمتِّعُ كافرينَ كثيرينَ طولَ حياتِهم، ويُمْلي لهم

228- يُنظر: تفسير ابن جرير 270/15، تفسير البغوي 194/3، تفسير القرطبي 411/10، تفسير السعدي ص: 478.

ويَسْتدرِجُهم، وإنَّما أحاط به هذا العِقابُ جزاءً على طُغيانِه، وجعْلِه ثَروتَه ومالَه وسيلةً إلى احتقارِ المُؤمنِ الفقيرِ، فإنَّه لمَّا اعتَزَّ بتلك النِّعمِ، وتوسَّلَ بها إلى التَّكذيبِ بوعْدِ اللهِ، استحَقَّ عِقابَ اللهِ بسلْبِ تلك النِّعمِ عنه، كما سُلِبَتِ النِّعمةُ عن قارونَ حين قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: 78]. وبهذا كان هذا المثَلُ موضِعَ العِبرةِ للمُشركينَ الَّذين جَعَلوا النِّعمةَ وسيلةً للتَّرفُّعِ عن مجالسِ الدَّعوةِ لأنها تجمَعُ قومًا يَرَونهم أحطَّ منهم، وطَلَبوا من النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ طرْدَهم عن مَجْلسِه.

3- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمَفعولِ لأن النَّكَدَ حاصِلٌ بإحاطةِ الهَلاكِ مِن غيرِ نَظَرٍ إلى فاعلٍ مَخصوصٍ.

4- قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الولايةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: "خَيْرٌ" هنا ليستْ على بابِها، أي ليستْ للتَّفضيلِ، ولكنْ لإثباتِ الخَيريَّةِ المُطلَقةِ لثَوابِ اللهِ، ونَفْيِه عن غَيرِه، إذْ غيرُ اللهِ لا يُثيبُ، ولا تُحْمَدُ طاعتُه في العاقبةِ ليكونَ اللهُ خيرًا منه ثوابًا وعُقبًا، أو ذلك على سَبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ.

5- قَولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الولايةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ فيه أن ولايةَ اللهِ وعَدَمَها إنَّما تتَّضِحُ نتيجتُها إذا انجلى الغُبارُ، وحَقَّ الجزاءُ، ووجَدَ العامِلونَ أجْرَهم، فـ ﴿هُنَالِكَ الولايةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: عاقبةً ومآلًا.

6- الحَقُّ اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تعالى. قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الولايةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

7- قولـه: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي﴾ جـيءَ بالمُضـارِع "ويقولُ" - مع أنَّـه حِكايـة - لتندُّمِـه علـى مـا فـرَطَ منـه حـين لا ينفَعُـه النَّـدمُ بعـدَ حُلـولِ العـذابِ، للدَّلالةِ على تكرُّرِ ذلك القولِ منه [229].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبْلَها:

لَمَّـا بَـيَّنَ اللهُ تعـالى فـي المَثَـلِ السَّـابِقِ حـالَ الكـافِرِ والمـؤمِنِ، ومـا آل إليـه مـا افتخَـرَ بـه الكـافِرُ مِـن الهـلاكِ، بَـيَّنَ فـي هـذا المَثَـلِ حـالَ الحيـاةِ الـدُّنيا واضـمِحلالَها، ومصـيرَ مـا فيهـا مـن النَّعـيمِ والترَفُّـه إلـى الهـلاكِ، فبعـدَ أن ضـرَب المثـلَ لـدُنيا هـؤلاء الكـافرينَ التـي أبطَـرتْهم وكانـت سـببَ شـقائِهم، ضرَب مثلًا لدارِ الدُّنيا عامةً [230].

﴿وَاضْـرِبْ لَهُـم مَّثَـلَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا كَمَـاءٍ أَنزَلْنَـاهُ مِـنَ السَّـمَاءِ﴾ يـأمرُ اللهُ تعـالى نبيَّـه أن يضـربَ مـثلًا عامًّـا مـا يُشـبِهُ الحيـاةَ الـدُّنيا فـي زَهرتِهـا وسُـرعةِ تقَلُّبِهـا، وزوالِهـا وانقِضـائِها لِيَعرِفـوا حقيقتَهـا، فيقـولُ: واضـرِبْ

229- يُنظر: تفسير السعدي ص:477 - تفسير ابن عاشور 328/15 - نظم الدرر للبقاعي 56/12 - تفسير الشربيني 378/2 - تفسير يحيى بن سلام - 188/1 - صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف ص: 135.

230- يُنظر: تفسير المراغي 152/15.

-يا مُحمَّدُ- لهم، قيل: المرادُ المستكبرينَ الذين سألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طَرْدَ فقراءِ المؤمنين. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي [231]. وقيل: المرادُ الناسُ. وممن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، والسعدي [232]. المثل للدُّنيا التي اغترُّوا بها، وأنها تتقلّب بأهلها، وتتبدّل بهم، شبّه حالها في بهجَتِها وقِصَرِها وسرعة زوالها كَماءٍ أنزله اللهُ مِن السَّماءِ على الأرضِ.

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ الباءُ في قولِه: "به" قيل إنَّها "باءُ السَّببيَّةِ" أي: فالْتفَّ بسَببِه، وتَكاثَف حتى خالَطَ بعضُه بعضًا من كثْرَتِه، فارتوتْ به الأرض، وشبَّ نباتُها وأنبتتْ ألوانًا من الزروع والثمار، وحَسُنَ استِواؤُه، وكثُرَ والتفَّ، واجتمَعَ بعضُه ببَعضٍ بسبَبِ المطر، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيمًا مُتفتتًا تذهب به الريح.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فصار بعد أن كان مُتَنوِّعًا نَضِرًا مُبهِجًا، يابِسًا متكَسِّرًا تحمِلُه الرِّياحُ وتُفَرِّقُه وكذلك حال الدنيا كما الأرض بدأت ستنتهي في الأجل المسمى. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]. وقال سُبحانَه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20]. لماذا شبه الله عز وجل الحياة الدنيا بالماء؟ قال العلماء في ذلك: إنَّما شَبَّه تعالى الدُّنيا بالماءِ لأن الماءَ لا يثبت على حال ولا يستَقِرُّ في موضع، كذلك الدُّنيا لا تبقَى ولا تدوم على حال، ولا تدوم عند إنسان، ولأنَّ الماءَ لا يستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ، كذلك الدُّنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقَى، ويذهَبُ،

231- يُنظر: تفسير ابن جرير 272/15، تفسير القرطبي 412/10.
232- يُنظر: تفسير ابن كثير 161/5، تفسير السعدي ص: 478.

كـذلك الـدُّنيا تفنَـى، ولأنَّ المـاءَ لا يَقـدِرُ أحَـدٌ أن يَدخُلَـه ولا يبتَـلَّ، فمـن دخـل المـاء ابتـل وأصـابته الفـتن، كـذلك الـدنيا لا يسـلَمُ أحَـدٌ دخلَهـا مِـن فِتنَتِهـا وآفَتِهـا، ومـن دخـل الـدنيا اغتـر بهـا وأعـرض عـن ذكـر الله، ولأنَّ المـاءَ إذا كـان بقَدَرٍ كـان نافِعًـا مُنبِتًـا بـإذن الله، وإذا جـاوز المقـدارَ وخـرج عـن قـدره طغـى وكـان ضـارًّا مُهلِكًـا، وكـذلك الـدُّنيا الكَفـافُ منهـا ينفَـعُ، وفُضولُها يضُرُّ.

﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**﴾: أي: وكـان اللهُ علـى فِعـلِ كُـلِّ شَـيءٍ مـن الإنشـاءِ والإفنـاءِ، والإعـادةِ وغيـر ذلـك، قويًّـا قـادِرًا، لا يُعجِـزُه شَـيءٌ .[233]

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّـا حَقَّـر تعـالَى حـالَ الـدُّنيا بمـا ضـرَبه مِـن ذلـك المَثَـلِ ذَكَـر أن المـال والبنـينَ زينـةُ هـذه الحيـاةِ الـدُّنيا المحقَّـرَةِ، وأنَّ مصـيرَ ذلـك إنَّمـا هـو إلـى النَّفادِ، فينبَغي ألا يُكْتَرَثَ به [234].

﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ ثـم يبـينُ الله تعـالى أن الأمـوالَ والأبنـاءَ فـي حقيقتِهمـا مجـردُ زينـةٍ، تلـك هـي العناصـر الأساسـية فـي فتنـة النـاس فـي الـدنيا: المـال والبنـون، قـال القرطبـي: إنَّمـا كـان المـالُ والبنـون زينـةَ الحيـاة الـدنيا لأن فـي المـال جمـالًا ونفعًـا، وفـي البنـينَ قُـوَّةً ودَفعًـا، فصـارا زينـةَ الحيـاة الـدنيا [235]. وقولـه تعـالى: الْمَـالُ مِـن أيِّ نـوعٍ، سـواء كـان مِـن العُـروضِ أو النقـودِ أو الآدميـينَ أو البهـائمِ، لكـن لمـاذا قـدَّم

233- يُنظر: تفسير ابن جرير 272/15، تفسير ابن كثير 161/5، تفسير ابن عاشور 331/15، تفسير الزمخشري 725/2، نظم الدرر للبقاعي 68/12، تفسير الشوكاني 343/3.
234- يُنظر: تفسير أبي حيان 186/7.
235- تفسير القرطبي 413/10.

المال؟ أهو أغلى عند الناس من البنين؟ نقول: قدَّم الله سبحانه المال على البنين، ليس لأنه أعزُّ أو أغلى، لأنه أسبَقُ خُطورًا لأذهانِ النَّاسِ، لأنه يرغَبُ فيه الصَّغيرُ والكبيرُ، والشَّابُّ والشَّيخُ، ومَن له من الأولادِ ما قد كفاهُ، ولعَراقتِه فيما نِيطَ به مِن الزِّينةِ والإمدادِ وغيرِ ذلك، وعُمومِه بالنِّسبةِ إلى الأفرادِ والأوقاتِ، فإنَّه زينةٌ، وممدٌّ لكلِّ أحدٍ مِن الآباءِ والبنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ولأن المال عام في المخاطب على خلاف البنين، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ، أما البنون فهذه خصوصية، ومن الناس مَنْ حُرِم منها. فالمال والبنون هي زينة هذه الحياة الدنيا الفانية. كلمة "زِينَة" أي: ليست من ضروريات الحياة، فهو مجرد شكل وزخرف، لأن المؤمن الراضي بما قُسِمَ له يعيش حياته سعيدًا بدون مال، وبدون أولاد، لأن الإنسان قد يشقَى بماله، أو يشقى بولده، لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزقَ هذا المال أو هذا الولد. فالأموال والأولاد في الدنيا لا تحقق الآمال ولا السعادة لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإذا كانت الدنيا فانيةً فكل ما فيها من مال وبنون سيزول بزوالها، وكل ما فيها سيبيد ولن يبقى إلا العمل الصالح، فسعادة الدنيا والآخرة تكون بالقرب من الله والاجتهاد في العمل الصالح بعد الإيمان، لذا قال تعالى:

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ التي تبقَى لصاحِبِها في الآخرةِ الباقيةِ، ويبقَى نَفعُها وثوابُها أفضَلُ جزاءً عندَ رَبِّكَ -يا مُحمَّدُ- من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وهي أفضَلُ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ، ويرجو نَفعَه وعواقِبَه الحميدةَ عندَ الله من زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، لأن المال والبنين لن يدخلا مع العبد القبر، ولن يمنعاه من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 76]. وقال سُبحانَه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]. وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ؛ مِن الباقياتِ

الصَّالِحاتِ" [236]. قال ابن عباس عن الباقيات الصالحات: إنها الصلوات الخمس. وقيل إنها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وسئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وهنا نلاحظ أن الله عز وجل لم يخصص الباقيات الصالحات بنوع من العبادة وإنما أطلقها وعمها ولم يخصصها ولم يقيدها، وهذا يشمَلُ جميعَ الطَّاعاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ مِن حقوقِ الله، وحقوقِ عبادِه.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾. فأحوالُ الدُّنيا تظهَرُ أوَّلًا في غايةِ الحُسنِ والنَّضارة، ثم تتزايدُ قليلًا قليلًا، ثم تأخُذُ في الانحطاطِ إلى أن تنتهيَ إلى الهلاكِ والفَناءِ، ومِثلُ هذا الشيءِ ليس للعاقِلِ أن يبتهِجَ به، فالدُّنيا سريعةُ الزوالِ، وشيكةُ الارتحالِ، مع كثرةِ الأنكادِ، ودوامِ الأكدارِ، مِن الكَدِّ والتَّعَبِ، والخَوفِ والنَّصَبِ، فهي جديرةٌ لذلك بالزُّهدِ فيها، والرغبةِ عنها، وألَّا يفتَخِرَ بها عاقِلٌ فَضلًا عن أن يكاثِرَ بها غيرَه.

2- قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾. كان أعظمَ حائلٍ بينَ المشركينَ وبينَ النظَرِ في أدلَّةِ الإسلام انهماكُهم في الإقبالِ على الحياةِ

236- أخرجه ابن جرير في التفسير 34/18. صحَّحه الألباني بشواهدِه في سلسلة الأحاديث الصحيحة 3264.

الزائلةِ ونعيمِها، والغُرور الذي غَرَّ طُغاةَ أهلِ الشِّركِ، وصرَفَهم عن إعمالِ عُقولِهم في فَهمِ أدلَّة التوحيدِ والبعثِ، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: 11]. وقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿14﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الْقَلَم: 14-15]. وكانوا يحسَبونَ هذا العالَمَ غيرَ آيلٍ إلى الفَناءِ ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]، وما كان أحدُ الرجُلينِ اللذينِ تقدَّمت قصَّتُهما إلَّا واحدًا مِن المشركينَ؛ إذ قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الْكَهْف: 36]، فأمر اللهُ رسولَه بأن يضرِبَ لهم مثَلَ الحياةِ الدنيا التي غرَّتْهم بهجتُها.

3- قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وصْفُها "بالدُّنيا" بمعنى القريبةِ، أي: الحاضرةِ غيرِ المُنتظَرةِ، كنَّى عن الحُضورِ بالقُربِ، والوصْفُ للاحترازِ عن الحياةِ الآخرةِ، وهي الحياةُ بعدَ الموتِ.

4- قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أخبر تعالى أن المالَ والبنينَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا، أي: ليس وراءَ ذلك شيءٌ، وأنَّ الذي يبقى للإنسانِ وينفعُه ويَسُرُّه: الباقياتُ الصَّالحاتُ، وهذا يشمَلُ جميعَ الطَّاعاتِ الواجبةِ والمستحبَّةِ مِن حقوقِ اللهِ، وحقوقِ عبادِه، فهذه خيرٌ عند اللهِ ثوابًا وخيرٌ أملًا، فثوابُها يبقَى ويتضاعَفُ على الآبادِ، ويُؤمَّلُ أجرُها وبِرُّها ونَفعُها عند الحاجةِ، فهذه التي ينبغي أن يتنافَسَ فيها المتنافِسونَ، ويستبِقَ إليها العامِلون، ويجِدَّ في تحصيلِها المجتَهِدون، وتأمَّلْ كيف لَمَّا ضرب اللهُ مَثَلَ الدُّنيا وحالَها واضمحلالَها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوعٌ مِن زينتها يُتمَتَّعُ به قليلًا ثم يزولُ بلا فائدةٍ تعود لصاحِبِه، بل ربَّما لَحِقتْه مَضرَّتُه وهو المالُ والبنونَ، ونوعٌ يبقَى وينفَعُ صاحِبَه على الدَّوامِ، وهي الباقياتُ الصَّالحاتُ.

5- قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ المرادُ مِن الآيةِ الكريمةِ تنبيهُ النَّاسِ للعمَلِ الصَّالحِ لئلَّا ينشغِلوا بزينةِ الحياةِ الدُّنيا مِن المالِ والبنينَ عَمَّا ينفَعُهم في الآخرةِ عندَ اللهِ من الأعمالِ الباقياتِ الصَّالحاتِ، وهذا المعنى الذي أشار له هنا جاء مُبيَّنًا في آيات أُخَرَ، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿14﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 14، 15]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: 15]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿88﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89] إلى غيرِ ذلك من الآيات الدالَّةِ على أن الإنسان لا ينبغي له الاشتِغالُ بزينةِ الحياةِ الدُّنيا عمَّا ينفعُه في آخرتِه.

6- أُفْرِدت الزِّينةُ في قولِه: ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ معَ أنَّها مُسْنَدةٌ إلى الاثنينِ لأنها مصدرٌ في الأصْلِ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالغةً، كأنَّهما نفْسُ الزِّينةِ، وهذا يُسمَّى بفنِّ الجمْعِ، وهو أن يجمَعَ المُتكلِّمُ بين شيئينِ أو أكثرَ في حُكْمٍ واحدٍ، وهو واضحٌ في الآية.

7- في قوله ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، إذ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ في تَرتيبِ الوصفينِ: أن يُقدَّم "الصَّالِحَات" على "الْبَاقِيَات" لأنهما وإنْ كانا وَصفَينِ لموصوفٍ محذوفٍ، إلَّا أن أعرَفَهما في وَصفيَّةِ ذلك المحذوفِ

هـو الصَّـالحاتُ، لأنـه قـد شـاعَ أن يُقـالَ: الأعمـالُ الصَّـالحاتُ، ولا يُقـال: الأعمـالُ الباقيـاتُ، ولأنَّ بقاءَهـا مُترتِّـبٌ علـى صـلاحِها فـلا جـرَمَ أن "الصَّـالحاتِ" وصـفٌ قـام مَقـامَ الموصـوفِ، وأغنـى عنـه كثيـرًا فـي الكـلامِ، حتَّـى صـار لفـظُ "الصَّـالحات" بمنزلـةِ الاسـمِ الـدَّالِّ علـى عمَـلِ خيـرٍ، وخُولِـفَ مُقْتضـى الظَّـاهرِ هنـا، فقُـدِّمَ "الباقيـاتُ" للتَّنبيهِ على أن مـا ذُكِـرَ قبْلَـه إنَّمـا كـان مفضـولًا لأنـه لـيس ببـاقٍ، وهـو المالُ والبنونَ [237].

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعـدَ أن ذكـر الله الـدنيا وزوالهـا وسـرعة فنائهـا وبـيَّنَ لهـم تعَـرُّضَ مـا هـم فيـه مـن نعـيمٍ إلـى الـزَّوالِ علـى وجـهِ الموعظـةِ أعقبَـه بالتَّـذكيرِ بمـا بعـد ذلـك الـزَّوالِ، انتقـل إلـى ذكـر أهـوال يـوم القيامـة ومـا يكـون فيهـا مـن الأمـور العظـام بتَصـويرِ حـالِ البَعـثِ ومـا يتـرقَّبُهم فيـه مـن العِقـابِ علـى كُفـرِهم بـه وذلـك مقابلـةً لضِـدِّه المـذكورِ فـي قَولِـه تعـالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: 46] [238].

237- ينظر: تفسير الرازي 467/21.
238- يُنظر: تفسير ابن عاشور 334/15.

﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ**﴾ واذكُرْ يومَ نُزيلُ الجِبالَ عن أماكِنِها فتضمَحِلُّ وتتلاشَى كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20] وقال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: 3]. وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿9﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: 9-10] أي تذهب من مكانها وتزول. وقال أيضا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿105﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿106﴾ لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: 105-107]. أي أن هذه الجبال الرواسي الشامخات تسير من أماكنها، وتُبقي الأرض قاعا صفصفا أي سطحا مستويا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا. ونلاحظ أن الله سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت في الحياة الدنيا، وإلا ففي الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب، والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير. فإذا كان الله سبحانه سينسف هذه للجبال ويُزيلها عن أماكنها، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى.

﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**﴾ ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾: البَرَازُ هو الفضاء، أي: وترَى الأرضَ يومَ القيامةِ فضاءً باديةً ظاهِرةً لأعيُنِ النَّاظِرينَ، خالية مما كان عليها من أشكال الجبال والمباني والأشجار، ليس عليها شيءٌ يَستُرُها وليس فيها مَعلَمٌ لأحدٍ، ولا مكانٌ يُواري أحدًا، حتى البحر الذي يغطي جزءًا كبيرًا من الأرض، كل هذه الأشكال ذهبتْ لا وجودَ لها، فكأن الأرض بَرزَتْ بعد أن كانت مختبئة بعضها تحت الجبال، وبعضها تحت الأشجار، وبعضها تحت المباني، وبعضها تحت الماء، فأصبحتْ فضاء واسعًا، ليس فيه مَعْلَمٌ لشيء.

﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ فقوله سبحانه "وَحَشَرْنَاهُمْ" أي: جمعناهم، الأولين والآخرين، على تلك الأرضِ لِمَوقِفِ الحسابِ والجزاءِ، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ المغادرة بمعنى الترك، وكلمة "نُغَادِرْ" ومادة "غدر" تؤدي جميعها معنى التَرْك، فالغدر مثلًا تَرْك الوفاء وخيانة الأمانة، حتى غدير وهو جدول الماء الصغير سُمِّي غديرًا، لأن المطر حينما ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئًا قليلًا في المواطئ، وقوله تعالى ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك منهم أَحَدًا بلا بَعثٍ، لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه

السلام، والموت يحصد الأرواح، وقد جاء اليوم الذي يُجمع فيه هؤلاء، الكلُّ معروض على الله سبحانه وتعالى فلم يترك منهم لا صغيرا ولا كبيرا، الكل سيحشر أمام صاحب الملكوت وتؤكد على ذلك آيات أخرى عديدة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49-50]. وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103] وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿93﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 93- 95] [239].

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 48]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حَشرَ الخَلقِ، ذكَرَ كيفيَّةَ عَرضِهم فقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [240] أي: وعُرِضَ العِبادُ على ربِّك -يا مُحمَّدُ- يوم العرض مُصطَفِّينَ ظاهِرينَ، صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة كقوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]. ويحتمل أن يكون المعنى أن كل الخلائق تقوم بين يدي الله صفا واحدا كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: 38]. لا يخفى ولا يُحجَبُ منهم أحَدٌ، وقيل في معنى قوله تعالى ﴿صَفًّا﴾ جميعا كقوله تعالى ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: 64]. وقيل معناها قياما.

239- يُنظر: تفسير ابن جرير 282/15، تفسير القرطبي 417/10، تفسير ابن كثير 165/5، تفسير السعدي ص: 479، أضواء البيان للشنقيطي 283/3، 284.

240- ينظر: تفسير الرازي 469/21.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يوبخ الله عز وجل على رؤوس الأشهاد المنكرين ليوم المعاد قائلا لهم: لقد جِئتُمونا -أيُّها النَّاسُ- بعد مَوتِكم أحياءً، كهَيئتِكم حينَ خَلَقْناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فُرادى، حُفاةً، عُراةً، غرُلًا (أي غيرَ مختونينَ)، لا مالَ معكم ولا ولَدَ، كما أنشأناكم المرة الأولى نُنشئكم هذه المرة، أي كما أخرجناكم من بطون أمهاتكم لأول مرة، لا تملكون شيئا، وبدون كساء يستر عوراتكم سنُخرجكم من بطن الأرض للحشر حُفاةً عُراةً، لا شيءَ معكم ممَّا كنتُم تتباهَوْن به في الدُّنيا من الأهلِ والأموالِ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 94] على الحالة التي نزل العبد عليها من بطن أمه عريانًا، لا يملك شيئًا حتى ما يستر عورته. وورد في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا". قلت يا رسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض"[241]. وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: "قام فينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فقال: إنَّكم مَحشُورونَ حُفاةً عُراةً غُرلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾" [242].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ الخطاب مُوجَّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب: بل اعتقَدتُم خَطأً في الدُّنيا أن اللهَ لن يبعَثَكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ، ظنَنْتُم أن لن نجعَلَ لكم مَوعِدًا نبعَثُكم فيه لِمُجازاتِكم على أعمالِكم، ما كان ظنكم أن هذا مصيركم ومآلكم. كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7] [243].

241- متفق عليه.
242- [الأنبياء: 104] رواه البخاري 6526 واللفظ له، ومسلم 2860.
243- يُنظر: تفسير ابن جرير 283/15، تفسير النسفي 304/2، تفسير القاسمي 40/7، تفسير السعدي ص: 479، تفسير السمرقندي 350/2، تفسير القرطبي 417/10، أضواء البيان للشنقيطي 285/3.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:49]

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ جاء الفعْلُ بصِيغَةِ الماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه أي: وُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ -التي كتَبَتْها الملائِكةُ- في أيديهم فمنهم آخِذٌ كتابَه بيَمينِه، ومنهم آخِذٌ كِتابَه بشِمالِه، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69]. الكتاب الذي يتضمن الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، وكل أعمال العبد صغيرها وكبيرها، وضعته الملائكة بأمر من الله تعالى، فيعطون كل واحد كتابه، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 19]، يعرضه على الناس، وهو فخور بما فيه، لأنه كتاب مُشرِّف ليس فيه ما يُخجل، لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها. وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله فإنه يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿25﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿26﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿27﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿28﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: 25-29]. إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مُخْجِلة. وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿13﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13-14].

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ تُبصِرُ المجرمينَ مشفقين بمعنى خائِفينَ خوفًا عظيمًا مِمَّا في كُتُبِ أعمالِهم من السَّيِّئاتِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، خائفين ومرعوبين يرتعدون في هذا اليوم، يوم عرض صحائف أعمالهم، وجلين خائفين مما احتوته صحائفهم من أعمال سيئة فهم لم يقدموا طول حياتهم إلا شرا، وكل أعمالهم أحصيت عليهم، والله سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه، لِيُفزع عباده ويُحذِّرهم ويُضخِّم لهم العقوبة، وهم ما يزالون في وقت التدارك

والتعديل من السلوك، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده، فحالتهم الأولى الإشفاق، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته مِن عقابِ اللهِ والفَضيحةِ بين خَلقِ الله، ثم يأتي نزوع القول:

﴿**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا**﴾ يا: أداة للنداء، يا حسرتنا، يا هلاكنا. متحسرين على ما فرطوا في جنب الله، ونادمين على ما قدموا من أعمال سيئة، فيتمنون بذلك الويل وهو الهلاك والموت. فعندما رأوا مصيرهم وما أعدّ الله لهم من سوء الموئل جزاءً وفاقًا دعوا على أنفسهم بالهلاك والموت حتى لا يصيبهم عذاب جهنم. ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم عليه السلام لما قتل قابيل هابيل، وكانت أول حادثة قتل، وأول ميت في ذرية آدم، لذلك بعث الله له غرابًا يُعلِّمه كيف يدفن أخاه، ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31]. يا هلاكي يتحسَّر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة، لكيلا نظلم هذه المخلوقات ونقول: إنها بهائم لا تَفهم، والحقيقة: ليتنا مثلهم.

﴿**مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ بالإضافة إلى دعائهم على أنفسهم فهم يشتكون بقولهم ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: ما شأنُ هذا الكتابِ لا يَترُكُ صَغيرةً مِن ذُنوبِنا ولا كبيرةً منها إلَّا حَفِظَها وعَدَّها فعالِنا وأثبَتَها؟! يشتكون إحصاء وحفظ ذنوبهم صغيرها وكبيرها. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿10﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿11﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12]. وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿17﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 17-18]. والذنوب تنقسم إلى قسمين: صغائر وكبائر. فالكبائر جمع "كبيرة" وهي الذنب الذي يترتب عليه حد في الدنيا وقصاص، وعقوبة في الآخرة. أما الصغائر فهي جمع "صغيرة" ولا يترتب عليها حد في الدنيا. والصغائر أشد ضررا على الإنسان من الكبائر إذ أن الإنسان يستهين بها ولا يلقي لها بالا وهي تتراكم وتتجمع عليه حتى تهلكه. وجاء في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إيَّاكُم ومُحقَّراتِ الذُّنوبِ، فإنَّهنَّ

يجتمِعنَ على الرَّجلِ حتَّى يُهْلِكْنَهُ وإنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ضربَ لَهُنَّ مثلًا: كمثلِ قومٍ نزلوا بأرضٍ فلاةٍ، فحضرَ صَنيعُ القومِ، فجعلَ الرَّجلُ ينطلقُ، فيجيءُ بالعودِ، والرَّجلُ يجيءُ بالعودِ، حتَّى جمَعوا سَوادًا، وأجَّجوا نارًا، فأنضَجوا ما قذَفوا فيها" [244].

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي وجدوا كل ما فعلوه في الدنيا من خيرٍ وشرٍ مُسجَّلًا مُسطّرًا مُثبَتًا ومحفوظًا حاضِرًا في صُحُفِ أعمالِهم فجُوزُوا به. ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: 9] أي تظهر المخبآت والضمائر. وقال أيضا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أن بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]. وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿7﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7-8].

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: ولا يَظلِمُ رَبُّك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن عبادِه مثقال ذرة، سواء مِن هؤلاء المُجرِمينَ أم مِن غَيرِهم، فلا يَنقُصُ أحدًا من حَسَناتِه، أو يزيدُ في سَيِّئاتِه، أو يُعاقِبُه بذنبٍ لم يفعَلْه، ونحو ذلك من الأفعالِ التي يُنزَّهُ عنها الرَّبُّ سُبحانه لكَمالِ عَدلِه وغِناه ورَحمتِه، وإنَّما يُجازي كلًّا بما يستَحِقُّه، فلا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا في عقابه بل يعفو ويصفح ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]. وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31] [245]. وعن عبد اللهِ بنِ أُنَيسٍ رَضِيَ الله عنه، أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

244- الراوي: عبد الله بن مسعود - المحدث: أحمد شاكر - المصدر: عمدة التفسير، الصفحة أو الرقم - 1/130 :خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

245- تفسير ابن جرير 283/15، تفسير السعدي ص: 479، تفسير ابن عاشور 337/15، أضواء البيان للشنقيطي 287/3، نظم الدرر للبقاعي 73/12 تفسير القرطبي 419/10.

"يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ -أو قال: العِبادُ- عُراةً غُرْلًا بُهْمًا. قال: قُلْنا: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شَيءٌ، ثُمَّ يناديهم بصَوتٍ يَسمَعُه مَن بَعُدَ كما يَسمَعُه مَن قَرُب: أنا المَلِكُ، أنا الدَّيَّانُ، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ أن يَدخُلَ النَّارَ وله عندَ أحدٍ مِن أهلِ الجَنَّةِ حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، ولا ينبغي لأحدٍ مِن أهلِ الجنَّةِ أن يَدخُلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِن أهلِ النَّارِ عندَه حَقٌّ حتى أُقُصَّه منه، حتى اللَّطمةُ. قال: قُلْنا: كيف وإنَّا إنَّما نأتي اللهَ عَزَّ وجَلَّ عُراةً غُرلًا بُهمًا؟ قال: بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ" [246].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فلا مالَ، ولا أهلَ، ولا عَشيرةَ، ما معهم إلَّا الأعمالُ التي عَمِلوها، والمكاسِبُ في الخيرِ والشَّرِّ التي كَسِبوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: 94]. [247]

2- عن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ قال: يَشتَكي القَومُ -كما تَسمَعونَ- الإحصاءَ، ولم يَشتَكِ أحَدٌ ظُلمًا، فإيَّاكم والمُحَقَّراتِ مِن الذُّنوبِ فإنَّها تجتَمِعُ على صاحبِها حتى تُهلِكَه [248].

246- الراوي: عبد الله بن أنيس. المحدث: الهيتمي المكي - المصدر: الزواجر، الصفحة أو الرقم: 2/243 - خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.
247- يُنظر: تفسير السعدي ص: 479.
248- أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي 401/5.

3- عن عَونِ بنِ عبدِ اللهِ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، قال: "ضجَّ -واللهِ- القَومُ مِن الصِّغارِ قبلَ الكِبارِ[249].

4- قولُ الله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ليس المرادُ حصولَ المساواةِ مِن كلِّ الوجوهِ لأنهم خُلِقوا صِغارًا ولا عقلَ لهم ولا تكليفَ عليهم، بل المرادُ أنَّه قال للمُشرِكين المُنكِرين للبَعثِ، المفتَخِرين في الدُّنيا على فُقراءِ المؤمنينَ بالأموالِ والأنصارِ: قد جئتُمونا كما خلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ عراةً حُفاةً بغيرِ أموالٍ ولا أعوان[250].

5- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ يَدُلُّ على إثباتِ صَغائِرَ وكبائِرَ في الذُّنوبِ، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بينَ المُسلِمينَ[251].

6- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ فيه سؤالٌ: لماذا قال: "لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً" مع أن الصَّغائِرَ تكَفَّرُ باجتنابِ الكبائِرِ لِقَولِه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31]؟ الجوابُ: أن الآيةَ الأولَى في حَقِّ الكافرينَ، بدَليلِ قَولِه تعالى: "فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ"، والثانيةُ في حقِّ المؤمنينَ لأن اجتنابَ الكبائِرِ لا يتحقَّقُ مع الكُفرِ. أو يقال: إن الأُولى في حقِّ المؤمنينَ أيضًا، لكِنْ يجوز أن تُكتَبَ الصَّغائِرُ لِيُشاهِدَها العبدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُكَفَّر عنه، فيَعلَم قَدْرَ نِعمةِ العَفوِ عليه[252].

249- يُنظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر 84/2.
250- يُنظر: تفسير الرازي 470/21.
251- نفس المصدر السابق.
252- يُنظر: فتح الرحمن للأنصاري ص: 342.

7- القرآنُ مملوءٌ مِن الأخبارِ بأنَّ دُخولَ النَّارِ إنَّما يكونُ بالأعمالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وقولِه تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 90]، وقَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: 76]، وغيرِ ذلك من النُّصوصِ.

8- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يُستفادُ مِن ذلك أن النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تَعُمُّ.

9- إنَّ نفيَ الظُّلمِ عنه سُبحانه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ يتضَمَّنُ كمالَ عَدلِه، فهو سبحانَه حكمٌ عدلٌ لا يضعُ الأشياءَ إلا مواضعَها، ووضعُها غيرَ مواضعِها ليس ممتنعًا لذاتِه بل هو ممكنٌ لكنَّه لا يفعلُه لأنه لا يريدُه بل يكرهُه ويبغضُه، إذ قد حرَّمه على نفسِه، فاستحقَّ الحمدَ والثناءَ لأنه ترَك هذا الظلمَ وهو قادرٌ عليه، وكما أن الله منزهٌ عن صفاتِ النقصِ والعيبِ، فهو أيضًا منزهٌ عن أفعالِ النقصِ والعيبِ.

10- قولُه تعالى: "وَحَشَرْنَاهُمْ" فيه إيثارُ صِيغَةِ الماضي بعدَ "نُسَيِّرُ"، "وَتَرَى" للدَّلالةِ على تحقُّقِ الحشرِ المُتفرِّعِ على البعثِ الَّذي يُنكِرُه المُنكِرون. وقيل: هو للدَّلالةِ على أن حشْرَهم قبْلَ التَّسييرِ والبُروزِ ليُعاينوا تلك الأهوالَ، كأنَّه قيلَ: وحشرْناهم قبْلَ ذلك[253].

11- جُملةُ: "وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ" معطوفةٌ على جُملةِ "وَحَشَرْنَاهُمْ"، فهي في موضعِ الحالِ من الضَّميرِ المنصوبِ في "وَحَشَرْنَاهُمْ"،

253- يُنظر: تفسير الزمخشري 726/2، تفسير البيضاوي 283/3، تفسير أبي حيان 187/7، تفسير أبي السعود 226/5، فتح الرحمن للأنصاري ص: 341.

أي: حشَرْناهم وقد عُرِضوا تَنبيهًا على سُرعةِ عَرْضِهم في حينِ حشْرِهم [254].

12- في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ عُبِّرَ بالمضارعِ "يَقُولُونَ" لاستِحضارِ الحالةِ الفظيعةِ، أو لإفادةِ تَكرُّرِ قولِهم ذلك وإعادتِه، شأْنَ الفَزِعينَ الخائفينَ [255].

13- والاستفهامُ في قولِهم: "مَالِ هَذَا الْكِتَابِ" مُستعملٌ في التَّعجُّبِ؛ لأن "ما" اسمُ استفهامٍ، ومعناها: "أيُّ شَيءٍ"، و "لِهَذَا الْكِتَابِ" صِفَةٌ ل "ما" الاستفهاميَّةِ لِما فيها من التَّنكيرِ، أي: ما ثبَتَ لهذا الكتاب [256].

14- قولُه تعالى: "لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" قُدِّم الصغيرةُ اهتمامًا بها ليُنبِّهَ منها، ويدلَّ أن الصغيرةَ إذا أُحصيتْ، فالكبيرةُ أحْرَى بذلك.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ الآياتِ المتقَدِّمةِ الرَّدُّ على القَومِ الذين افتَخَروا بأموالِهم وأعوانِهم على فُقَراءِ المُسلِمينَ، وهذه الآيةُ المقصودُ مِن

254- يُنظر: تفسير ابن عاشور 336/15.
255- نفس المصدر السابق.
256- يُنظر: تفسير البيضاوي 284/3.

ذِكرِهـا عَـينُ هـذا المعنـى، وذلـك لأن إبلـيسَ إنمـا تكبَّـرَ علـى آدمَ لأنـه افتخـر بأصـلِه ونَسَـبِه، وهـؤلاء المُشـرِكونَ عـامَلوا فُقَـراءَ المُسـلِمينَ بعَـينِ هـذه المُعاملـة، فـاللهُ تعـالى ذكَـرَ هـذه القِصَّـةَ هاهنـا تنبيهًـا علـى أن هـذه الطَّريقـةَ هـي بعينِهـا طريقـةُ إبلـيسَ، ثـمَّ إنَّـه تعـالى حَـذَّرَ عنهـا وعـن الاقتـداءِ بهـا فـي قَولِـه تعـالى :أَفَتَتَّخِذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيَـاءَ. وأيضًـا فإنَّـه لَمَّـا ذكَـرَ الله تعـالى يـومَ القيامـةِ والحَشـر، وذكَـرَ خَـوفَ المُشـرِكينَ مِمَّـا سُـطِرَ فـي ذلـك الكِتـابِ، وكـان إبلـيسُ هـو الـذي حمَـلَ المُجـرِمينَ علـى مَعاصـيهم، واتِّخـاذِ شُـرَكاءَ مـع الله ناسـب ذِكـرُ إبلـيسَ والنَّهـي عـن اتِّخـاذِ ذُرِّيتِـه أوليـاءَ مِـن دُونِ الله تبعيـدًا عـن المعاصـي، وعـن امتِثالِ ما يُوسوِسُ به.

وأيضًـا فإنَّـه لَمَّـا ذكـر الله تعـالى البَعـثَ، وختَمَـه بإحسـانِه بالعَـدلِ المثمِـرِ لإعطـاءِ كُـلِّ أحـدٍ مـا يسـتحقُّه أتبَعَـه -بمـا لـه مِـن الفَضـلِ- بابتـداءِ الخَلـقِ الـذي هـو دليلُـه، فـي سـياقٍ مـذَكِّرٍ بوَلايتِـه الموجِبـةِ للإقبـالِ عليـه، وعـداوةِ الشَّـيطانِ الموجِبـةِ للإدبـارِ عنـه، مُبَـيِّنٍ لِمـا قـابلوا بـه عَدْلَـه فـيهم وفـي عـدُوِّهم مـن الظُّلـمِ بفِعلِهـم، كمـا فعَـلَ مِـن التكَبُّـر علـى آدَمَ عليـه السـلامُ بأصـلِه، فتكَبَّـروا علـى فُقَـراءِ المـؤمنينَ بأصـلِهم وأمـوالِهم وعشـائِرِهم، فكـان فِعلُهـم فِعْلَـه سـواءً، فكـان قـدوتَهم وهـو عـدوُّهم، ولـم يقتَـدوا بخيـرِ خَلْقِـه وهـو ولـيُّهم وهـو أعـرَفُ النَّـاسِ بـه. وأيضًـا لمَّـا بـيَّنَ حـالَ المغـرورِ بالـدُّنيا والمُعـرِضِ عنهـا، وكـان سـبَبُ الاغتـرارِ بهـا حُـبَّ الشَّـهواتِ وتَسـويلَ الشَّـيطانِ، زهَّـدَهم أوَّلًا فـي زخـارفِ الـدُّنيا بأنَّهـا عُرضـةُ الـزَّوالِ، والأعمـالُ الصَّـالحةُ خيـرٌ وأبْقَـى مِـن أنْفَسِـها وأعْلاهـا، ثـمَّ نفَّـرَهم عـنِ الشَّـيطانِ بتَـذكيرِ مـا بيـنهم مِـن العداوةِ القديمةِ:

﴿وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِـيسَ﴾ يقـولُ تعـالى مبينًـا عـداوةَ إبلـيسَ لآدمَ، محـذرًا مِـن تولِّيـه وذريتِـه: واذكُـرْ -يـا مُحَمَّـدُ- حـينَ أمَرْنـا الملائِكـةَ بالسُّـجودِ لآدَمَ امتثـالًا لأمـرِ اللهِ سُـجودَ تشـريفٍ وتكـريمٍ، فسـجَدَ الملائكـةُ جَميعًـا إلَّا إبلـيسَ كـان مـن الجِـنِّ فخـرج عـن طاعـةِ رَبِّـه، ولـم يَسـجُدْ معهـم اسـتكبارًا علـى اللهِ وحَسَـدًا لآدمَ. كمـا قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلَائِكَـةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِـيسَ أَبَـى وَاسْـتَكْبَرَ وَكَـانَ مِـنَ

الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]. وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61].

﴿**لِلْمَلائِكَةِ**﴾ أي جميع الملائكة لأنهم أشرف المخلوقات، حيث لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمَرُون. وحين يأمر الله تعالى الملائكة الذين هذه صفاتهم بالسجود لآدم، فهذا يعني الخضوع، وأن هذا هو الخليفة الذي آمُركُم أن تكونوا في خدمته. لذلك سمَّاهم: المدبّرات أمرًا، وقال تعالى عنهم: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، فكأن مهمة هؤلاء الملائكة أن يكونوا مع البشر وفي خدمتهم.

﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ والسجود هنا امتثالًا لأمرِ اللهِ، سجود احترام وإجلال، سجود تشريف وتكريم وتحية وتقدير وليس سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم جميعا.

﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**﴾ قال ابن عباس: قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: من خُزَّان الجنان، عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "خُلِقَت الملائكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم" [257]. وقال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر. وقال الضحاك عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازنًا من خُزَّان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال الضحاك أيضًا عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفًا على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كِبْرٌ لا يعلمه إلا الله، واستخرج الله ذلك

257- رواه مسلم 2996.

الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]. إبليس وحده مَن عصى الله ولم يسجد فلماذا هذا العصيان؟ قيل لأنه خانه أصله، فالله خلقه من مارج من نار فاستكبر قَالَ: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. وذكرنا سابقا في تفسير سورة البقرة أن العلماء اختلفوا كثيرًا على ماهية إبليس: أهو من الجن أم من الملائكة، وقد قطعت هذه الآية هذا الخلاف وحَسَمَتْه، فقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾. وطالما جاء القرآن بالنص الصريح الذي يُوضّح جنسيته، فليس لأحد أن يقول: إنه من الملائكة.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فسق أي: فخرج عن طاعة الله، والفسق هو الخروج وأصله مطلق الخروج في كلام العرب كما يقال: يقال فَسَقت الرُّطَبَة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها، يعني: خرجت للإفساد، والفاء هنا تفيد التعليل، فعلة خروجه عن أمر الله جلا جلاله أنه كان من الجن، وهذا توجيه لكلام ابن كثير رحمه الله. ولا شك أن الكِبْر كان سببا لعدم سجوده، فقد استكبر لأن أصله خانه فلو كان من الملائكة فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]. ولربما كان الجمهور من العلماء يقولون إن أصل إبليس من الملائكة، وإن اختلفوا في توجيه ذلك، ويستدلون على هذا بأن عامة الآيات التي وردت في ذلك، الله تبارك وتعالى استثناه منهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50]، قالوا: والأصل في الاستثناء أنه متصل، ومعنى الاستثناء المتصل أن المستثنى من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع فإن المستثنى لا يكون من جنس المستثنى منه، فالذين يقولون إنه من الملائكة يقولون: الله يقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فهو داخل معهم في الأمر بالسجود، فهو منهم، والله جلا وعلا استثناه منهم، والأصل في الاستثناء الاتصال. فهذا كله يدل على أن إبليس ليس من الملائكة وإنما هو من الجن، وهذا الذي تدل عليه ظواهر النصوص، والله تعالى أعلم، وأن ذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾

[الصافات: 158] وهم قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ودخول إبليس في الأمر "اسْجُدُواْ لآدَمَ" لأنه كان مع الملائكة ومن جملتهم، ومخالطا لهم، وليس المراد أنه كان منهم.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾: ينبه الله سبحانه بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، فيُحذّرنا منه ويُذكِّرنا ما كان منه لأبينا آدم واستكباره عن السجود له، يقول لنا: أبعْدَ ما ظهَرَ من إبليسَ مِن الفِسقِ والاستكبارِ، فرفَضَ السُّجودَ لأبيكم -يا بني آدَمَ- وحَسَدَه، وأخرَجَه من الجنَّةِ، تتَّخِذونَه وذُرِّيَّتَه من الشياطينِ أولياءَ تُطيعونَهم وتُوالونَهم في خِلافِ مَرضاتي، والحالُ أنَّهم لكم أعداءٌ يُضِلُّونَكم، بدلًا مِن طاعتي، وأنا ربُّكم الذي أنعَمَ عليكم وأكرَمَكم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 60–62]، تذكّروا جيدًا عداوة إبليس لأبيكم آدم، وأنه أخذ العهد على نفسه أمام الله تعالى أن يُغويكم أجمعين، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]. فكيف بعد ما حدث منه تجعلونه وليًا من دون الله، الذي خلقكم ورزقكم، فهو أوْلَى بهذه الولاية. ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ تدل على تناسل إبليس، وأن له أولادًا، وأنهم يتزاوجون، ويمكن أن نقول إن ذريته: كل مَنْ كان على طريقته في الضلال والإغواء، ولو كان من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]. فكيف يا بني آدم تتخذون الشياطين أولياءَ لكم بدلًا عن الله عز وجل المستحق لهذا الولاء. بئس البدل أن تتخذوا إبليس الذي أبى واستكبر أن يسجدَ لأبيكم، وَليًا، وتتركوا ولاية الله الذي أمر الملائكة أن تسجدَ لأبيكم فبئس إبليس بدلًا عن الله، وبئس عبادة الشياطين بدلا عن عبادة الله.

﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الشريكُ لا يستأثِرُ بفِعلِ أمرٍ عَظيمٍ في المُشتَرَكِ فيه مِن غيرِ عِلمٍ لشريكِه به قال معلِّلًا للذمِّ على الظُّلمِ المذكورِ في الآية السَّابقةِ بما يدُلُّ على حقارتِهم عن هذه الرُّتبة:

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: ما أحضَرْتُ الشَّياطينَ والذين اتخذتموهم أولياء من دوني خَلْقَ السماوات والأرضِ لأستعينَ بهم على خَلقِها أو أشاوِرَهم في ذلك، فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئًا بل لم يكونوا موجودينَ حينذاك فأنا المستَقِلُّ بخَلقِ السماوات والأرضِ، ومُدَبِّرُها وَحدي، ليس معي في ذلك شَريكٌ، ولا وزيرٌ، ولا مُشيرٌ. كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: 22].

﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾: أي: ولا أشهَدْتُ بَعضَهم خَلْقَ بَعضٍ، بل تفَرَّدتُ بخَلقِهم بغيرِ مُعينٍ ولا ظهيرٍ، فكيف تَصرِفونَ لهم حَقِّي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وأنا خالِقُ كُلِّ شَيءٍ؟!

﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾: أي: ما كنت متخذ الشياطين، وقيل الكافرين عضدًا أي أعوانًا وأنصارًا، مساعدين ومعاونين ومساندين وما ينبغي ولا يليقُ أن أتَّخِذَ الذين يُضِلُّونَ الخلقَ عن طريقِ الحَقِّ أعوانًا لي في أيِّ شأنٍ مِن الشُّؤونِ. أصل العضد مأخوذ من عَضُدِ الإنسان، وهو ما بين المرفق والكتف في الإنسان، فهذا الجزء هو العضد وهو محل القوة التي تُسعف وتسند، فاستُعِيرَ للمعين والنصير كما في قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: 35].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ بيَّن في سورةِ "الحِجر" وسورة "ص" أن أصلَ الأمرِ بالسُّجودِ متقَدِّمٌ على خَلقِ آدَمَ مُعلَّقٌ عليه؛ قال في "الحِجر": ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿28﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28، 29]، وقال في "ص": ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ﴿71﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: 71، 72]، ولا ينافي هذا أنَّه بعد وجودِ آدَمَ جَدَّد لهم الأمرَ بالسُّجودِ له تنجيزًا.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ فيه الحثُّ على اتِّخاذِ الشَّيطانِ عَدُوًّا، والإغراءُ بذلك، وذِكرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لذلك، وأنَّه لا يتَّخِذُ الشيطانَ وليًّا إلا ظالمٌ، وأيُّ ظُلمٍ أعظَمُ مِن ظُلمِ مَن اتَّخذ عَدُوَّه الحقيقيَّ وليًّا، وتَرَك الوليَّ الحميدَ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ الأصلُ أن سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، وإذا وقع ذلك امتِثالًا لأمرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، ولم يكُنْ شِركًا؛ فالسُّجودُ لآدَمَ لولا أمْرُ الله لكان شِرْكًا، لكِنْ لَمَّا كان بأمرِ الله كان طاعةً لله، كما أن قَتْلَ النفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ صار طاعةً.

3- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ استدلَّ به الجمهورُ على أن إبليسَ لم يكُنْ مِن الملائِكةِ.

4- قولُه تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خانه أصلُه فإنَّه خُلِقَ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وأصلُ خَلقِ الملائكةِ مِن نورٍ، فعند

الحاجةِ نضَحَ كُلٌّ وعاءٍ بما فيه، وخانه الطَّبعُ عند الحاجة وذلك أنَّه كان قد توسَّم بأفعالِ الملائكةِ وتشَبَّه بهم، وتعَبَّد وتنَسَّك فلهذا دخَلَ في خطابِهم، وعصى بالمُخالفةِ.

5- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فيه دَليلٌ على أن الملَك لا يَعصي البتَّةَ، وإنَّما عصى إبليسُ لأنه كان جنيًّا في أصلِه.

6- قولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ دليلٌ على أن للشيطانِ ذريةً.

7- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّنبيهُ على أن الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ لا تنبغي الاستعانةُ بهم، ولا ينبغي الاعتمادُ على السُّفَهاءِ، ولا أهلِ الأهواءِ المُنحَرِفةِ لأنهم لا خيرَ فيهم، فإذا كان اللهُ لم يتخذِ المضلِّين عَضُدًا، فنحن كذلك لا يَليقُ بنا أن نتَّخِذَ المضلِّينَ عَضُدًا، وفي هذا: النهيُ عن بطانةِ السُّوءِ، وعن مُرافقةِ أهلِ السُّوءِ، وأنْ يَحذرَ الإنسان مِن جُلَساءِ السوءِ.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف:52]

يعني: واذْكر يا محمد، ولتذْكُرْ معك أمتك هذا اليوم، يوم القيامة، اليَوْمَ الذي يخاطب الله سبحانه فيه الكفار والمشركين على رؤوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا قائلا:

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ ادعوا شركائي الذين اتخذتموهم أولياء من دوني في الدنيا وزعمتم: أي كذبتم في ادعائكم أنهم آلهة،

فليمنعوكم من عذابي، ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 94].

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي فعلوا ذلك استجابوا لهذا الأمر لما قال لهم: ﴿نَادُواْ شُرَكَائِيَ﴾ دعوهم فلم يستجيبوا لهم. ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: 64]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿5﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5-6]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 81-82] لم ينصروهم ولم يركعوا لهم فقد تقطعتْ بينهم الصلات، وانقطعت حجتهم.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ ثم جعل الحق سبحانه بَيْنَهُم مَّوْبِقًا، بين الداعي والمدعو أي هؤلاء الذين أَشركوا، والذين أُشركوا، هؤلاء الذين عَبدوهم من دون الله، والذين عُبدوا من دون الله، مَّوْبِقًا، مكانًا مُهْلِكًا وواديًا سحيقا حاجزًا، الموبق، أي المهلك وهو الهلاك أو المكان الذي يحصل فيه الهلاك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ [الشورى: 34]. يعني: يهلكهن.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات"[258]. أي المهلكات. جعلنا لهم مهلكًا في جهنم وقيل إنه سَدٌ من نار فرق الله به بين المشركين وبين شركاؤهم في الدنيا، وقيل موعدًا للهلاك، وقيل إنه وادٍ من نار في جهنم، أو وادٍ من قيحٍ ودمٍ في جهنم يهلكون فيه جميعًا، والمعنى أن الله تعالى بيَّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، وقد يكون الضمير في قوله: بينهم، عائدًا إلى

258- أبو هريرة - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 2766 - خلاصة حكم المحدث: صحيح. أخرجه البخاري 2766، ومسلم 89.

المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: 14]. وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: 43]. وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: 59]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: 28]. فلا الداعي يستطيع أن يلوذَ بالمدعو، ولا المدعو يستطيع أن ينتَصرَ للداعي ويُسعفه، لأن بينهم منبع هلاك، جميعًا هالكون، تجمعهم نار جهنم التي تلفح بلهيبها وجوههم. فالله سبحانه هو وحده المستحق للعبادة، ولا يستحق العبادة غيره فهو الله لا إله إلا هو لا معبود بحق إلا هو، وهو المدبر المتصرف الخالق الرازق ليس له شريك ولا نظير.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: 53]

﴿رأى﴾: الرؤية: وقوع البصر على المرئيّ، والرؤية هنا مِمّن سيُعذّب في النار، وقد تكون الرؤية من النار التي ستعذبهم، لأنها تراهم وتنتظرهم وتناديهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: 30]. أي: ها أنا ذا أنتظِرهم ومستعدة لملاقاتهم. والمجرمون: الذين ارتكبوا الجرائم، وعلى رأسها الكفر بالله. إذن: فالرؤية هنا متُبَادلة: المعذِّب والمعذَّب، كلاهما يرى الآخر ويعرفه.

﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: الظن هنا بمعنى اليقين والجزم. أي: أيقنوا أنهم واقعون فيها، كما جاء في قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46]. أي: يوقنون. لما رأى المجرمون النار وعاينوها حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم وهم كانوا يظنون أنهم لن يروها، وتحققوا لا محالة أنهم سيقعون فيها ويعذبون بها.

﴿**وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**﴾ أي لم يجدوا عنها مهربا ولا مَكانًا يَنصَرِفونَ إليه، فيَصرِفُهم عن الوقوعِ فيها ولا ينقذهم منها ولم يجدوا من عقاب الله ملجأ ولا مفرا أو طَريقًا يعدِلون عنها إليه، فلا بدَّ لهم منها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:54]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكافرينَ لَمَّا افتخَروا على فُقَراءِ المسلمينَ بكثرةِ أموالِهم وأتباعِهم، وبيَّن تعالى بالوجوهِ الكثيرةِ أن قولَهم فاسِدٌ، وشُبهَتَهم باطِلةٌ، وذكر فيه المَثَلينِ المتقَدِّمين، قال بعدَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: 54].

﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا**﴾ يعني نوعنا، تصريف الشيء يعني تنويعه كما قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [البقرة: 164]. أي تنويعها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب، فلا تأتي من ناحية واحدة، كذلك صَرّف الله في هذا القرآن بعِباراتٍ مُختَلفةٍ، وأساليبَ مُتَنوِّعةٍ، ومِن

كُلِّ جِنسٍ وصِنفٍ ومن كل مثل، متنوعة، فتارة لإثبات البعث، وتارة لإثبات وحدانية الله، وتارة لبيان حال الدنيا، وتارة لبيان حال الآخرة، وتارة تكون مطولة، وتارة مختصرة، فهي أنواع كل نوع في مكانه من البلاغة والفصاحة لِيَعقِلوا ويتذَكَّروا، ويتَّعِظوا ويَهتَدوا إلى الحَقِّ. والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال كأنه يقرع بها آذان الناس لأمر قد يكون غائبًا عنهم، فيمثله بأمر واضح لهم محسوس ليتفهموه تفهّمًا دقيقًا ويتذكروا ويتعظوا ويعقلوا. وما دام أن الله سبحانه وتعالى صرّف في هذا القرآن من كل مثَل فلا عُذْر لمن لم يفهم، فالقرآن قد جاء على وجوه شتّى ليُعلّم الناس على اختلاف أفهامهم ومواهبهم، لذلك نرى الأمي يسمعه فيأخذ منه على قدر فَهْمه، والنصف مثقف يسمعه فيأخذ منه على قدر ثقافته، والعالم الكبير يأخذ منه على قدر علمه ويجد فيه بُغْيته، بل وأكثر من ذلك، فالمتخصص في أيِّ علم من العلوم يجد في كتاب الله أدقّ التفاصيل، لأن الله سبحانه وتعالى بيَّن فيه للناس القصص والأمثال والأخبار وبين لهم الأوامر والنواهي والترهيب والترغيب والحكمة والأمور كلها، لكيلا يضل الناس عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ولكي يخلصوا أنفسهم لله تعالى ويتجنبوا عذاب الله عز وجل وعقابه.

﴿وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: يقول الله جل وعلا: مع هذا التنوع في القرآن، مع التوضيح، مع ذكر القصص والأوامر والنواهي والترغيب والحكمة، مع هذا كله كان الإنسان أكثر شيئا جدلا، أي كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة والتنازع في الرأي فيُعارِضُ الحَقَّ بالباطِلِ، فلا يُنيبُ إلى الحَقِّ، ولا يَنزَجِرُ بالمواعِظِ. والجدل: هو المحاورة ومحاولة كل طرف أن يثبت صِدْق مذهبه وكلامه، والجدل نوعان: إما أن يكون بالباطل لتثبيت حجة الأهواء، يراوغ الإنسان فيه ليبرر مذهبه ولو خطًا، وهذا هو الجَدل المعيب القائم على الأهواء والمنهي عنه المحظور، وهو الذي ذكره الله جل وعلا في جدال الكافرين المعاندين.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: 56]

﴿وَيُجَادِلُ﴾: إما أن يكون الجدل بالحق وهو الجدل البنّاء الذي يستهدف الوصول إلى الحقيقة، وهذا بعيد كل البعد عن التحيّز للهوى، وهذا جائز أو مباح، أو يكون الجدل بالباطل. ولما تحدَّث القرآن الكريم عن الجدل قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]. وقال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. ولكن لو كان المقابل المخاطب معاندًا ولم يقبل الجدال، علينا أن نصرف الجدال ونترك المِراءَ، كما روى أبو داود عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان محقًّا"[259].

والمؤمن لا يكون مجادلًا، بل يكون مستسلمًا للحق ولا يجادل فيه، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "ما أوتي قوم الجدل إلَّا ضلوا". ولو تدبرنا حال الصحابة رضي الله عنهم نجد أنهم كانوا مستسلمين غاية الاستسلام لما جاءت به الشريعة، ولم يجادلوا ولم يقولوا لِمَ؟ ولمَّا قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم مثلًا: "توضؤوا من لحوم الإبل ولا توضؤوا من لحوم الغنم"[260]، هل قال الصحابة "لِمَ"؟ بل قالوا: سمعنا وأطعنا، ما جادلوا، وكذلك في بقية الأوامر. طبيعة الإنسان بفطرته بجبلته يحب الجدال، لذلك وصف الله جل وعلا الإنسان أكثر شيئاً جدلا، ولا يُذم بكونه مجادلًا، ولكن يُذم أن كان جداله في الباطل، أن يجادل الحق بالباطل. وهذا وقع في قول الرسول صلّى الله عليه وسلّم لعلي بن أبي طالب وزوجته فاطمة رضي الله عنهما حين جاء إليهما ذات ليلة ووجدهما نائمين، فقال: "ألا تُصَليان؟" قال علي رضي الله عنه: "إنَّ أنفُسَنا بيد الله ولو شاء لأيقظنا". فانصرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم وهو يضرب على

259- رواه أبو داود في كتاب الأدب – باب في حسن الخلق، رقم الحديث 4800.
260- أخرجه أبو داود 184 مطولًا، والترمذي 81 واللفظ له، وابن ماجة 494 مختصرًا، وأحمد 18725 مطولًا باختلاف يسير.

فخذه ويقول: "وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"[261]. ولا شك أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول عليه الصلاة والسلام قال في الفريضة: "من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها"[262]. فعذر الناسي والنائم، وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ذلك ولكنه يريد أن يَحُثَّهُما، وأراد علي رضي الله عنه أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة رضي الله عنها[263].

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف:55]

يوضح الله عز وجل المانع الذي منع الناس من قبول الإيمان وقبول الدعوة وقبول الهدى، ما الذي منع هؤلاء الكفرة المتمردين عن الإيمان؟ ما الذي منعهم أن يؤمنوا بعد أن أنزل عليهم القرآن، وصرّفنا فيه من الآيات والأمثال؟ ما كان مانعهم إلا أنهم طلبوا أن يروا العذاب، أي يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانًا بأنفسهم كما قال تعالى في قول الكافرين الذين قالوا لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 187]. وآخرون ﴿قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: 29]. وقالت قريش ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]. وفي آية أخرى، أوضح الله سبحانه وتعالى سبب إعراضهم عن الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

261- صحيح البخاري.
262- صححه الألباني.
263- ينظر: تفسير ابن جرير 299/15، تفسير القرطبي 4/11، تفسير ابن كثير 171/5، نظم الدرر للبقاعي 86/12، تفسير السعدي ص: 480، أضواء البيان للشنقيطي 299/3.

﴿89﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿90﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿91﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿92﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: 89-93]. فكُلُّ هذه التعنّتات وهذا العناد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان بالله.

﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: على ما فات من المهاترات والتعنُّتات والاستكبار على قبول الحق.

﴿إِلَّا أن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: وما هي سنة الأولين؟ هي هلاك المكذبين، الله سبحانه وتعالى حينما يأتي بآية طلبها القوم، ثم لم يؤمنوا بها يُهلكهم، فهذه هي الآية التي تنتظرهم: أن تأتيهم سُنَّة الله في إهلاك مَنْ كذَّب الرسل. أخذهم بالعذاب العام، لكن الله لم يأخذ هذه الأمة بعذاب شامل لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم دعا ربه ألا يهلك أمَّته بسنة عامة فأجاب الله دعاءه.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾ أي مُقابِلًا لهم ومواجها وعيانًا أمامهم. أو ﴿قُبُلًا﴾ جمع قبيل مثل سُبُل وسَبِيل، وهي ألوان متعددة من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: 47]. أي: لهم عذاب غير النار، فألوان العذاب لهم متعددة. وقيل جميعًا أي أصناف العذاب كلها وقيل متفرقًا يتلو بعضه بعضًا. المانع الآخر عن الإيمان هو أنهم لا يتقبلون الأمر، كيف أن الله جل وعلا أرسل إليهم رسولًا منهم من البشر، كانوا يظنون أنه لا يمكن أن يبعث الله رسولًا بشرًا كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94]، كانوا يقولون لماذا لم يرسل لنا الله بملائكة؟ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فكان أحد الموانع عدم قبولهم الإيمان وعدم قبولهم الهدى هو أن الله جل وعلا بعث إليهم بشرًا رسولًا ولم يبعث من الملائكة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾
[الكهف: 56]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن أشارَ اللهُ تعالى إلى جِدالِ الكافرينَ في هُدى القُرآنِ، بما مهَّدَ له مِن قَولِه: ﴿وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وأشار إلى أن الجِدالَ فيه مُجَرَّدُ مُكابَرةٍ وعِنادٍ، وأنَّه لا يَخُفُّ بالقُرآنِ ما يَمنَعُ مِن الإيمان به، كما لم يَخُفَّ بالهُدى الذي أُرسِلَ إلى الأُمَمِ ما يمنَعُهم الإيمان به- أعقَبَ ذلك بأنَّ وظيفةَ الرُّسُلِ التَّبليغُ بالبِشارةِ والنِّذارةِ، لا التَّصدِّي للمُجادَلة لأنها مُجادَلةٌ لم يُقصَدْ منها الاستِرشادُ، بل الغاية منها إبطالُ الحَقِّ [264]. هذه وظيفة الرسل، أي: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ من أولهم نوح عليه السلام إلى آخرهم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، إلَّا لهذين الأمرين: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ منصوبة على الحال من المرسلين، يعني إلَّا حال كونهم مبشرين ومنذرين، لِيُبَشِّروا المُؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، مبشرين لهم بجنة عرضها كعرض السماوات والأرض فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويُنذِروا الكافِرينَ بالعِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ولم نُرسِلْهم عَبَثًا، ولا لِيَتَّخِذَهم النَّاسُ أربابًا، ولا لِيدْعوا إلى أنفُسِهم، ولا لِيَجبُروا النَّاسَ على الإيمانِ، ولا لِيُجيبوا أقوامَهم إلى طَلَبِ الآياتِ المُقتَرَحةِ أو إتيانِهم بالعَذابِ والهَلاكِ، فليس لهم ذلك ولا هو مِن مَهامِّه.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾: المجادلة هي المخاصمة وسميت المخاصمة مجادلة لأن كل واحد يَجْدُلُ حجته للآخر، والجَدْل هو فتل الحبل حتى يشتد ويقوى، هذا أصل المجادلة، إذن يجادل أي يخاصم، والمخاصمة بالباطل باطلة، وهذا شأن

264- يُنظر: تفسير ابن عاشور 352/15.

الكافرين من البشر لأنهم كانوا دائمًا يُخاصِمونَ رُسُلَهم بالباطِلِ ليدحضوا أي ليضعفوا وليُزيلوا ويُبطِلوا بجِدالِهم الحقَّ الذي جاءَت به الرُّسُلُ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32] وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: 5]، ويستخدمون كل الحِيَل لدحْضِ الحق، مثال ذلك أنهم يجادلون في الرسل يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: 6]، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 24]، ويجادلون في البعث فيقولون: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78]، ويجادلون في الآلهة يقولون: إذا كان المشركون وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، فعيسى عليه السلام من حصب جهنم، وغير ذلك من المجادلة، وقد أبطل الله مجادلتهم بعيسى عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]، ومنهم عيسى عليه السلام. ويستفاد من الآية أن كل إنسان يجادل من أجل أن يدحض الحق فإن له نصيبًا من هذه الآية، يعني أن فيه نصيبًا من الكفر والعياذ بالله لأن الكافرين هم الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، والله تعالى توعدهم بالعذاب المهين كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: 8–9]. وَاتَّخَذُوا آياتي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا.

﴿**وَاتَّخَذُوا**﴾ أي صيروا، ﴿**آياتي**﴾ حُجَجي وبَراهيني، وما أيَّدتُ به رُسُلي من المُعجِزاتِ، وما خُوِّفوا به مِن العذابِ، الآيات الكونية التي جاءت لتصديق الرسل، وكذلك آيات القرآن، وآيات الأحكام، اتخذوها موضعَ سُخْرية واستخفافٍ واستهزاءً، ولم يعبؤوا بما فيها من نذارة. مثال ذلك أن الكفار استهزأوا لما أخبر الله عزّ وجل عن شجرة الزقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 64]، يعني في قعره، فصاروا يضحكون كيف تخرج في أصل الجحيم، وهي شجرة

أبعد ما يكون عن النار، النار حارة جافة والشجرة رطبة، فجعلوا يستهزئون ويقولون: هذا من هذيان محمد، صلّى الله عليه وسلّم، فاتخذوا ما أنذروا به هزوًا والله عزّ وجل قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: 66]. وقال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿54﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: 54-55]، يملؤون بطونهم من هذه الزّقوم ملأ تامًا ثم تحترق من العطش، فماذا يسقون؟ يسقون ماءً حارًا ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي على ما في بطونهم ﴿مِنَ الْحَمِيمِ﴾، ومع ذلك يشربون شربًا ليس عاديًا بالنسبة إلى البشر، ولكنه شرب الإبل الهيم، العطاش، هذه الشجرة التي يهزؤون بها هي التي يملؤون بها بطونهم في جهنم. وأشد أنواع الكفر الاستهزاء بالحق أن يتخذ الإنسان الحق هزؤًا، أن يتخذ آيات الله لعبًا، أو أن يهزأ بدين الله، ويلعب بأحكامه فهؤلاء اتخذوا القرآن وما أنذروا فيه من الوعيد والحجج والبراهين التي جاءتهم بها الرسل هزوا أي لعبًا وباطلًا وسخروا منهم وقالوا عن القرآن إنه سحر وقالوا أضغاث أحلام وقالوا أساطير الأولين وقالوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: 33]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يخبِرُ الله تعالى عن عَظَمَةِ القرآنِ، وجلالتِه، وعُمومِه، وأنَّه صَرَّف فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ، أي: من كلِّ طريقٍ مُوصِلٍ إلى العلومِ النَّافعةِ، والسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وكلِّ طريقٍ يَعصِمُ مِن الشَّرِّ والهلاكِ، ففيه أمثالُ الحلالِ والحرامِ، وجزاءُ الأعمالِ، والترغيبُ والترهيبُ، والأخبارُ الصَّادقةُ النافعةُ للقُلوبِ؛ اعتقادًا، وطُمأنينةً، ونورًا، وهذا مما يوجِبُ التَّسليمَ لهذا القرآنِ وتلقِّيَه بالانقيادِ والطاعةِ، وعدمَ المنازعةِ له في أمرٍ مِن الأمورِ، ومع ذلك كان كثيرٌ مِن النَّاسِ يجادِلونَ في الحَقِّ بعد ما تبَيَّن، ويجادِلونَ بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ

الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلةً ومُنازعةً فيه، مع أن ذلك غيرُ لائقٍ بهم، ولا عَدلٌ منهم، والذي أوجب له ذلك وعدمَ الإيمان باللهِ إنَّما هو الظُّلمُ والعِنادُ، لا لقُصورٍ في بيانِه وحُجَّتِه وبُرهانِه، وإلَّا فلو جاءهم العذابُ، وجاءهم ما جاء قَبلَهم لم تكُنْ هذه حالَهم.

2- الجدالُ مذمومٌ إذا استُعمِلَ عندَ عدمِ الحاجةِ إليه، فيكونُ حينئذٍ شاغلًا عن الدعوةِ ومؤديًا - في الأكثرِ- إلى الفسادِ والفتنةِ، فإذا كان الجدالُ لمجردِ الغلبةِ والظهورِ فهو شرٌّ كلُّه، وأشدُّ شرًّا منه إذا كان لمدافعةِ الحقّ بالباطلِ، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، فكلُّ إنسانٍ يُجادِلُ مِن أجلِ أن يُدحِضَ الحقَّ، فله نصيبٌ من هذه الآية أي: مِن الكُفرِ - والعياذُ باللهُ - لأن الكافرينَ هم الذين يُجادِلونَ بالباطِلِ لِيُدحِضوا به الحقَّ.

3- قال الله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ فهم تحقَّقوا لا محالةَ أنَّهم مُواقِعوها؛ لِيَكونَ ذلك من بابِ تَعجيلِ الهَمِّ والحَزَنِ لهم؛ فإنَّ توقُّعَ العذابِ والخَوفَ منه قبلَ وُقوعِه، عذابٌ ناجِزٌ.

4- وجهُ الجَمعِ بينَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، وبينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94] بما حاصِلُه: أن المانِعَ المذكورَ في سورة الإسراء، مانِعٌ عاديٌّ يجوزُ تخَلُّفُه لأن استِغرابَهم بَعْثَ رَسولٍ مِن البشَرِ مانِعٌ عادِيٌّ يجوزُ تخَلُّفُه لإمكانِ أن يستغرِبَ الكافِرُ بَعثَ رَسولٍ مِن البشَرِ، ثمَّ يُؤمِنَ به مع ذلك الاستغرابِ، فالحَصرُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94] حصرٌ في المانعِ العاديِّ، وأمَّا الحصرُ في قَولِه هنا: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى

وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ فهو حَصرٌ في المانعِ الحقيقيِّ، لأن إرادتَه جَلَّ وعلا عَدَمَ إيمانِهم، وحُكْمَه عليهم بذلك، وقضاءَه به: مانعٌ حقيقيٌّ مِن وقوعِ غيره [265].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 57]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ جِدالَهم بالباطِلِ، وصَفَهم بعدَه بالصِّفاتِ المُوجِبةِ للخِزيِ والخِذلانِ، وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ مِن مُجادَلةِ الرُّسُلِ، ومِن استهزائِهم بالإنذارِ، وعرَّضَ بحَماقتِهم، أتبَعَ ذلك بأنَّه أشَدُّ الظُّلمِ [266]. جاء الخبر من الله سبحانه وتعالى على صورة الاستفهام لتأكيد الكلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأيُّ عباد الله أظلم ممن ذُكِّر بآيات الله فَأَعْرَضَ عَنْهَا، لا أحدَ أظلمُ لِنَفسه، ولا أكبر جرما، من عبد ذكر بآيات رَبِّه الكونية، كأخذه الأمم المكذبين، أو الشرعية كالقرآن التي تَدُلُّه على طريقِ الحَقِّ والنَّجاةِ مِن الهَلاكِ فأعرضَ عنها، فلم يتدبَّرْها، ولم يتَّعِظْ ويتذكَّرْ بها، ونَسِيَ ما عَمِلَ مِن السيِّئاتِ مِن الكُفرِ والمعاصي، فلم يتفكَّرْ في عاقِبتِها، ولم يَتُبْ إلى اللهِ منها كما قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 124–125]، أي

265- يُنظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 97/3، أضواء البيان للشنقيطي 305/3، تفسير ابن كثير 171/5.
266- يُنظر: تفسير الرازي 476/21، تفسير ابن عاشور 354/15.

في الدنيا يصبح في هم وحزن ويمسي في غم ونكد لا يطمئن قلبه أبدًا ولا يهدأ له بال ولا يرتاح ضميره ولا يجد للسعادة طعمًا ولا يعرف لها أصلًا لأنه أعرض عن ذكر الله تعالى الذي هو أساس السعادة وأساس الطمأنينة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿36﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 36–37]، أي أن هؤلاء الذين إذا بلغهم القرآن وبلغتهم الآيات البينات وجاءتهم الرسل أعرضوا عن ذكر الله ولم ينتفعوا بالآيات وما جاءهم من النذير، سيسلط الله عليهم في الدنيا شيطانًا يجعله قرين لهم ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: 38]، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: 38]. هذا الشيطان ماذا يفعل؟ يصده عن سواء السبيل، يصده عن ذكر الله ويزين له سوء عمله فيراه حسنًا فيختم الله على قلبه ويجعل على بصره غشاوة فلم يهتدِ إذن أبدا ويوم القيامة يُحشر أعمى ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 125] فيرد الله عليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: 126].

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: نسي ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6] الكفر والمعاصي والاستكبار نسي السيئات وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق، تناساها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالًا، تركها ولم يقبلها لأن الإنسان والعياذ بالله كلما أوغل في المعاصي ازداد بعدًا عن الإقبال على الحق كما قال الله عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، ولذلك يجب أن يُعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب والعياذ بالله، كما قيل: والله ما خوفي الذنوب فإنها لعلى طريق العفو والغفران وإنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي والقرآن هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات وربما تزيد العبد إيمانًا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي صيرنا عَلَى قُلُوبِهِمْ، أي قلوب من ﴿ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، أكنة: أغطية جمع كِنّ، فجعل الله على قلوبهم أغطية محكمة، فلا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر، وليس هذا اضطهادًا منه تعالى لعباده، تعالى الله عن ذلك، بل استجابة لما طلبوا وتلبية لما أحبُّوا، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه، كما قال عنهم في آية أخرى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]. وقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]، عاقبهم بسبب إعراضهم عن آياته، ونسيانهم لذنوبهم، ورضاهم لأنفسهم، حالة الشر مع علمهم بها.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي هذه الأغطية تمنعهم من أن يَفْقَهُوهُ أن يفقهوا القرآن فلا يفهمونه، لأنهم سبق أن ذُكِّرُوا بها فأعرضوا عنها، فحرَمهم الله فقهها وفهمها. فليس في إمكانهم الفقه الذي يصل إلى القلب، فلم يفهموا القرآن، ولم يدركوا ما فيه من الخير. وفي هذا الحث على فقه القرآن، وأنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن ويتعلم معناه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي في آذانهم صمما وثقلا فلا يسمعون، تأملوا، والعياذ بالله، القلوب عليها غِطاء فلا تفقه، والآذان عليها صمم فلا تسمع، فلا يسمعون الحق ولا يفهمونه، صمم معنوي يمنعهم عن الرشاد ومن وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع، فلم يسمعوها ولم ينتفعوا بها وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يقول الله عزّ وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وَإِنْ تَدْعُ يا مُحَمَّد هؤلاء المعرضين عن آيات الله وأرشدتهم إلى الهدى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا، ما دامت قلوبهم في أكنة، وفي آذانهم وقرٌ لن يهتدوا، فمن أين يأتي الهدى، والآذان لا تسمع الحق والقلوب لا تنقاد للحق والعياذ بالله، فلن يستجيبوا لك ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه ولن يستقيموا على الحقّ، ولن يهتدوا إليه

أبـدًا،، لأن الله قـد طبـع علـى قلـوبهم، وسـمعهم وأبصـارهم وسَـدَّ علـيهم منافـذ العلـم والهدايـة لأنهـم أبصـروا ثـم عمـوا، ورأوا طريـق الحـق فتركـوه، وطريـق الضـلال فسـلكوه، فعـاقبهم الله بإقفـال القلـوب والطبـع عليهـا، فلـيس فـي هـدايتهم حيلـة ولا طريـق، وهـذا فـي أقـوام علـم الله منـهم أنهـم لا يؤمنـون، فقـدر علـيهم الضـلال - بسـبب اسـتهزائهم وإعراضـهم - فلـن يهتـدوا إذن أبـدا، فلِلهـدى قلـوب متفتحـة مسـتعدة للتلقـي، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ كَفَـرُوا سَـوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أَأَنـذَرْتَهُمْ أمْ لَـمْ تُنـذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ ﴿6﴾ خَـتَمَ اللَّهُ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَـى سَـمْعِهِمْ وَعَلَـى أَبْصَـارِهِمْ غِشَـاوَةٌ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِـيمٌ﴾ [البقـرة: 6- 7] وقـال سُـبحانَه: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ حَقَّـتْ عَلَـيْهِمْ كَلِمَـتُ رَبِّـكَ لَا يُؤْمِنُـونَ ﴿96﴾ وَلَـوْ جَـاءَتْهُمْ كُـلُّ آيَـة حَتَّـى يَـرَوُا الْعَـذَابَ الْأَلِـيمَ﴾ [يـونس: 96- 97]. وفـي هـذا تسـليةٌ للرسـول صـلّى الله عليـه وسـلّم، وتخويـفٌ لمـن تـرك الحـق بعـد علمـه، أن يحـال بيـنهم وبينـه، ولا يتمكن منه بعد ذلك[267].

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مِـن عـادةِ القُـرآنِ تَعقيـبَ التَّرهيـبِ بالتَّرغيـبِ والعكـس، فلمَّـا رمـاهم بقـوارعِ التَّهديـدِ والوعيـدِ عطَـفَ علـى ذلـك التَّعـريضَ بالتـذكيرِ بـالمغفرةِ لعلَّهـم يتفَكَّـرونَ فـي مرضـاتِه، ثـمَّ التَّـذكيرَ بأنَّـه يَشـمَلُ الخَلـقَ برَحمتِـه فـي حـينِ الوعيـدِ، فيـؤخِّرُ مـا توعَّـدَهم بـه إلـى حَـدٍّ معلـومٍ إمهـالًا للنَّـاسِ لعلَّهـم

267- يُنظر: تفسير ابن جرير 303/15، تفسير البيضاوي 285/3، تفسير ابن كثير 172/5-173، نظم الدرر للبقاعي 90/12-91، تفسير السعدي ص: 481، أضواء البيان للشنقيطي 309/3.

يَرجِعونَ عن ضلالِهم، ويتدبَّرونَ فيما هم فيه مِن نِعَمِ الله تعالى فلعَلَّهم يَشكُرونَ. [268]

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يخاطب الله عز وجل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يقول له: ربك يا محمد كثيرُ السَّترِ على ذُنوبِ عِبادِه، والتَّجاوُزِ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهم غفور ذو رحمه واسعة.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي لو أراد اللهُ أن يُعاقِبَ هؤلاء الكفارَ، المُعرِضينَ عن آياته، بما عَمِلوا من الذُّنوبِ والآثامِ التي من جُملتِها: الكُفرُ، والمُجادلةُ، والإعراضُ لعجَّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا، ولكِنَّه تعالى لاتِّصافِه بالمغفرةِ والرَّحمةِ، ترَكَ معاجَلَتَهم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: 45]. ولا شكَّ أن في إمهالهم في الدنيا حكمة لله بالغة، ولعل الله يُخرِج من ظهور هؤلاء مَنْ يؤمن به، ومَنْ يحمل راية الدين ويدافع عنه، وقد حدث هذا كثيرًا في تاريخ الإسلام، فمِنْ ظَهْر أبي جهل جاء عكرمة، وأمهل الله خالد بن الوليد، فكان أعظمَ قائد في الإسلام. وهذا فيه تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم، لأنه صلّى الله عليه وسلّم قد يقول: لماذا لم يعاجَلوا بالعقوبة، كيف يكذبونني وأنا رسول الله ولم يعاقبهم؟ ولكن بَيَّن الله له أنه هو "الْغَفُورُ" أي الذي يستر الذنوب ويتجاوز عنها. "ذُو الرَّحْمَةِ" أي صاحب الرحمة الذي يلطف بالمذنب وأن رحمته وسعت كل شيء كما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82]. ومن رحمة الله بالكفار أنه لم يعاجلهم بالعقوبة وبعذاب يستأصلهم، بل يصبر عليهم جل وعلا ويتركهم، لأنه يمهل ولا يهمل، يمهل الكافرين والظالمين، كما قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: 129]. أي أنه حدد موعدًا وسمَّى أجلًا مسمًّى لهؤلاء الظالمين الكفار لهلاكهم، ولولا هذه التسمية لهذا

268- يُنظر: تفسير ابن عاشور 356/15.

الموعد، لهذا الأجل، لولا كلمة سبقت من ربك بتأخير هذا العذاب عنهم لكان لزامًا وأجلًا مسمًى. فإذا جاءهم الأجل الذي سماه الله لهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾: أي: ولكنْ لهم مَوعِدٌ مَضروبٌ، وأجلٌ مقدَّرٌ لعذابِهم يُؤَخِّرُهم اللهُ إليه، ولن يَجِدوا مَلجَأً يَلجَؤون إليه مِنَ العذابِ أو مكانًا يؤولون إليه لن يهربوا منه، ولن يُفلِتوا، وليس لهم عنه محيص. "مَوْئِلًا" اسم مكان من: آلَ ويَئِلُ وألَا وُؤُولًا بمعنى لجأ. والعرب تقول: لا وألت نفسه أي لا نجت، وهذا يوم القيامة يوم البعث والحساب.[269]

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾

[الكهف: 59]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعد أن أُزيلَ غُرورُ الكافِرينَ بتأخُّرِ العذابِ، وأُبطِلَ ظَنُّهم الإفلاتَ منه ببيانِ أن ذلك إمهالٌ مِن أثَرِ رَحمةِ الله بخَلقِه، ضرَبَ لهم المثَلَ في ذلك بحالِ أهلِ القُرى السَّالفينَ الذين أُخِّرَ عنهم العذابُ مُدَّةً، ثمَّ لم يَنجُوا منه بأَخَرَةٍ، فالجُملةُ معطوفةٌ على جُملة ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾.
وأيضًا لَمَّا كانت هذه سُنَّتَه في القُرونِ الماضيةِ والأُمَمِ الخاليةِ قال تعالى عاطِفًا على قَولِه: "لَهُم مَّوْعِدٌ" مُرَوِّعًا لهم بالإشارةِ إلى ديارِهم، المُصَوِّرةِ لدمارِهم.[270]

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾: تلك: أداة إشارة لمؤنث هو: "القُرَى"، والكاف للخطاب، والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمتُه مُنْضوية في خطابه، لأن خطابَ الرسول خطابٌ لأمته. لكن

269- ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي جزء 3 ص 317.
270- يُنظر: تفسير ابن عاشور 358/15، نظم الدرر للبقاعي 94/12.

الإشارة لا تكون إلا لشيء معلوم موجود مُحَسٍّ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 17] فأين هذه القُرَى؟ وهل كان لها وجود على عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ نعم، قرى الأمم السابقين قُرى قَومِ نُوحٍ، وعاد قوم هُودٍ وثمود قوم صالح، وقرى قوم لوط، وَأَصْحَاب الأَيْكَة، كان لهذه القرى آثار وأطلال تدل عليها ويراها النبي صلى الله عليه وسلم ويراها الناس في رحلاتهم إلى الشام وغيرها وقد قال تعالى عنها: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿137﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137-138]. إذن، فتلك إشارة إلى موجود مُحَسٍّ دَالٍّ بما تبقّى منه على ما حاق بهذه القرى من عذاب الله، وما حلَّ بها من بَأْسِه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظالمين. والقرية أو القرى قد يراد بها أهلها، الذي يهلك هم أهل القرى، وقد يراد بها البناء المجتمِع ﴿المساكن المجتمعة﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: 59]، فالمراد بالقرى هنا أهلها، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أن أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: 31]. والمراد بالقرية هنا المساكن المجتمعة. والمعنى أن القصص التي قصصناها عليك يا محمد من أنباء القرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط، ماذا فُعل بهم؟ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ المراد بالظلم هنا الكفر والمعاصي، أي: حين كفروا بِاللَّهِ وَآياته كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آية وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿37﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿38﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: 37-39]. وقال سُبحانَه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿100﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿101﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 100- 102].

﴿**وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ أي وجعلْنا لوَقتِ إهلاكِ القُرى الظَّالِمةِ مِيقاتًا مَعلومًا ومَوعِدًا مُقَدَّرًا لا يُتقَدَّمُ عنه ولا يُتأخَّرُ، فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدًا موعدًا، إذا جاءهم ذلك الموعد أهلكناهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]. وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61]، سُنَّتُنا في الذين خلوا من قبلهم من ضربائهم، في وقت معلوم، والله يفعل ما يشاء، أن شاء عجَّل العقوبة وإن شاء أخرها، لكن إذا جاء الموعد لا يتأخر: ولهذا قال نوح عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: 4]، فهو أجل معين عند الله في الوقت الذي تقتضيه حكمته. وهنا يريد الله منّا الاعتبار بوحدة المصير للمكذبين والظالمين فيخاطب في هذه الآية المشركين الذين أعرضوا عن الإيمان: احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم.[271]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فيه مِنَ التَّخويفِ لِمَن تَرَكَ الحَقَّ بعد عِلْمِه أن يُحالَ بينَهم وبينَه، ولا يتمَكَّنَ منه بعدَ ذلك، ما هو أعظَمُ مُرَهِّبٍ وزاجرٍ عن ذلك.وأنَّه لا أعظَمَ ظُلمًا، ولا أكبَرَ جُرمًا، مِن عَبدٍ ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ وبُيِّنَ له الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهدَى مِنَ الضَّلالِ، وخُوِّفَ ورُهِّبَ ورُغِّبَ؛ فأعرض عنها، فلم يتذكَّرْ بما ذُكِّرَ به، ولم يَرجِعْ عمَّا كان عليه، ونَسِيَ ما قَدَّمَت يداه مِن الذُّنوبِ، ولم يُراقِبْ علَّامَ الغُيوبِ؛ فهذا أعظَمُ ظُلمًا مِن المُعرِضِ الذي لم تأتِه آياتُ الله ولم يُذَكَّرْ بها، وإن

271- يُنظر: تفسير ابن جرير 306/15، تفسير القرطبي 8/11، تفسير ابن كثير 173/5، تفسير السعدي ص: 481، تفسير ابن عاشور 358/15.

كان ظالِمًا، فإنَّه أخَفُّ ظُلمًا مِن هذا؛ لكَونِ العاصي على بصيرةٍ وعلمٍ أعظَمَ مِمَّن ليس كذلك.

2- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ﴾ حَثٌّ على فِقْهِ القرآنِ، وأنَّه ينبغي للإنسانِ أن يقرأَ القرآنَ، ويَتَعَلَّمَ معناه، كما كان الصَّحابةُ -رضوانُ الله عليهم- لا يتجاوَزونَ عَشرَ آياتٍ حتى يتعَلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ، فقَولُه: "أَن يَفْقَهُوهُ" يعودُ إلى القرآنِ كُلِّه، فعُلِمَ أن الله يحِبُّ أن يُفقَه؛ ولهذا قال الحسَنُ البَصريُّ: "ما أنزل اللهُ آيةً إلَّا وهو يحِبُّ أن يُعلَمَ في ماذا أنزِلَت وماذا عَنى بها، وما استَثنى مِن ذلك لا مُتَشابِهًا ولا غيرَه". وقال مجاهِدٌ: "عرَضْتُ المُصحَفَ على ابنِ عبَّاسٍ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه مرَّاتٍ، أقِفُ عند كلِّ آيةٍ وأسألُه عنها".

3- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ مَغفِرتِه ورَحمتِه، وأنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ، ويتوبُ اللهُ على من يتوبُ، فيتغَمَّدُه برَحمتِه، ويَشمَلُه بإحسانِه، وأنَّه لو آخَذَ العِبادَ على ما قَدَّمَت أيديهم من الذُّنوبِ، لعجَّلَ لهم العذابَ، ولكِنَّه تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ بالعقوبةِ، بل يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، والذنوبُ لا بُدَّ مِن وقوعِ آثارِها وإن تأخَّرَت عنها مُدَّةً طويلةً ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾.

4- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فيه تحذيرٌ مِن الظُّلمِ إذ نتيجتُه الإهلاكُ [272].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60]

272- يُنظر: تفسير السعدي ص: 480، تفسير أبي حيان 195/7.

مُناسَبَةُ الآيَة لِما قَبلَها:

بعدَ أن ذكَرَ اللهُ سُبحانَه قَصَصَ المُشرِكين الذين افتَخَروا على فُقَراءِ المؤمِنينَ بكَثرةِ الأموالِ والأنصارِ، وامتَنَعوا عن حضورِ مجلِسِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يشتَرِكوا معهم في مجلِسٍ واحدٍ- قفَّى على ذلك بذِكرِ قَصَصِ موسى عليه السَّلامُ مع الخَضِر لِيبيِّنَ بها أن موسى مع كونِه نبيًّا صادِقًا أرسَلَه اللهُ إلى بني إسرائيلَ بشيرًا ونذيرًا، وهو كليمُ اللهِ، أُمِرَ أن يذهَبَ إلى الخَضِرِ ليتعَلَّمَ منه ما لم يعلَمْه، وفي ذلك دليلٌ على أن التواضُعَ خيرٌ مِن التكبُّرِ.
وأيضًا فإنه لَمَّا جَرى ذِكرُ قصَّةِ خَلْقِ آدمَ وأمْرِ اللهِ الملائكةَ بالسُّجودِ له، وما عَرَضَ للشَّيطانِ مِن الكِبْرِ والاعتِزازِ بعُنصُرِه جهلًا بأسبابِ الفضائلِ، ومُكابَرةً في الاعْتِرافِ بها، وحسَدًا في الشَّرفِ والفَضْلِ، فضرَب بذلك مَثلًا لأهلِ الضَّلال عَبيدِ الهَوى والكِبْرِ والحسَدِ، أعقَب تلك القِصَّةَ بقِصَّةٍ هي مَثلٌ في ضِدِّها لأن تَطلُّبَ ذي الفضلِ والكمالِ للازديادِ منهما وسَعْيه للظَّفرِ بمَن يُبلِّغُه الزِّيادةَ مِن الكَمالِ، اعتِرافًا للفاضلِ بفَضيلتِه. وفي ذلك إبداءُ المقابَلةِ بين الخلقَيْن، وإقامةُ الحُجَّةِ على المماثَلةِ والمخالَفةِ بين الفريقَينِ المؤمِنين والكافِرين، وفي خلالِ ذلك تَعليمٌ وتنويهٌ بشَأنِ العِلم والهُدى، وتربيةٌ للمتَّقين.

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ يبين لنا الله تعالى رحلة موسى عليه السلام مع فتاه في طلب العلم، وسيدنا موسى نبيٌ عظيم، ورسول كريم من أولي العزم، وهو أعلم علماءِ الأرض في وقته في الشريعة.

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ**﴾ أي: واذكُرْ يا مُحمَّدُ، حينَ قال موسَى لفتاه يُوشَعَ بنِ نون لا أزالُ أسيرُ في طَلَبِ العَبدِ الذي أخبَرَني اللهُ بعِلمِه وفَضلِه، حتى أصِلَ إلى مَوضِعِ مُلتقَى البَحرينِ الذي أعرِفُه فألقاه هناك. ذكر الله قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار. ما قصة موسى مع فتاه؟ وما مناسبتها للكلام هنا؟ مناسبة قصة موسى هنا أن كفار مكة بعثوا ليهود

المدينة يسألونهم عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم أهل كتاب وأعلم بالسماء، فأرادوا رأيهم في محمد: أهو مُحِقٌّ أم لا؟ فقال اليهود لوفد مكة: اسألوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم فهو نبي: اسألوه عن الفتية الذين ذهبوا في الدهر، والرجل الطواف الذي طاف البلاد، وعن الروح، فما كان منهم إلا أن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأسئلة، فقال لهم: "في الغد أجيبكم". إذن: إجابة هذه الأسئلة ليست عنده، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم يضرب الكلام هكذا دون علم لأجابهم، لكنه سكت إلى أن يأتي الجواب من الله تعالى، ومرَّتْ خمسة عشر يومًا دون أن يُوحَى لرسول الله في ذلك شيء، حتى شَقَّ الأمر عليه، وفرح الكفار والمنافقون، لأنهم وجدوا على رسول الله مأخذًا فانتهزوا هذه الفرصة ليندِّدوا برسول الله، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يتكلم في هذه المسألة إلا بوحي من الله، لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يصدر عن رأيه. ولو كان لهؤلاء القوم عقول لفهموا أن البُطْءَ في هذه المسألة دليلُ صِدق النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك جاءت قصة موسى هنا لتردَّ على مهاترات القوم، وتُبيِّن لهم أن النبي لا يعلم كل شيء، جاءت هذه الآيات لتقول لليهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهم من كفار مكة: أنتم متعصبون لموسى وللتوراة ولليهودية، وها هو موسى يتعلم ليس من الله، بل يتعلم من عبد مثله، ويسير تابعًا له طلبًا للعلم. موسى عليه السلام يحمل علم الشريعة، بينما يحمل "الخِضْرُ" عليه السلام الحقيقة، وهناك تكامل بين الحقيقة والشريعة. جاءت الآيات لتقول لهم: يا مَنْ لقنتم كفار مكة هذه الأسئلة وأظهرتم الشماتة بمحمد حينما أبطأ عليه الوحي، اعلموا أن إبطاء الوحي لتعلموا أن محمدًا لا يقول شيئًا من عند نفسه، فكان من الواجب أن تلفتكم هذه المسألة إلى صدق محمد وأمانته، وما هو على الغيب بضنين. فقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام، قصة تؤكد أن الفعل بيد الله، وأن فعل الله كُلُّهُ حِكمة، ورحمة، وعدل وعلم. قيل أن موسى عليه السلام كان يومًا خطيبًا ببني إسرائيل فذكرهم ووعظهم وكانت موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فلما رأى موسى عليه السلام تأثُّرَ القوم بموعظته ورأى خشيتهم وحزنهم وخوفهم، رق لهم قلبه فأنهى حديثه فتوقف وانصرف

فاتبعه رجل ممن استمع إليه فقال له: يا موسى هل على وجه الأرض أحدٌ أعلم منك؟ قال لا، وقيل إنه سئل أي الناس أعلم؟ فظن موسى عليه السلام - لكونه رسولَ رب العالمين - أنه أعلم أهل الأرض، فأجاب ذلك السائل بقوله: أنا. وقد كان الْأَوْلى به عليه السلام أن يقول: "الله أعلم"، فغضب الله عليه لأنه لم يرد العلم إلى الله لأن الإنسان مهما بلغ من درجة العلم يوقن أن هناك من هو أعلم منه ومن هو فوقه ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. وقيل إنه أوحى إليه أن عبدًا في مجمع البحرين أعلم منك فقال موسى يا رب كيف لي به؟ قال خذ معك حوتًا فحيثُما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ، كما ورد في بعض الأحاديث الشريفة عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ"[273]. كما حَدَّثَنَا أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أن مُوسَى قَامَ خَطِيبًا في بَنِي إسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عليه، إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْهِ، فَقالَ له: بَلَى، لي عَبْدٌ بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هو أَعْلَمُ مِنْكَ قالَ: أَيْ رَبِّ ومَن لي بهِ؟ - ورُبَّما قالَ سُفْيَانُ، أَيْ رَبِّ، وكيفَ لي بهِ؟ - قالَ: تَأْخُذُ حُوتًا، فَتَجْعَلُهُ في مِكْتَلٍ، حَيْثُما فقَدْتَ الحُوتَ فَهو ثَمَّ، - ورُبَّما قالَ: فَهو ثَمَّهْ -، وأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ في مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ هو وفَتَاهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ، حتَّى إذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وضَعَا رُؤُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى واضْطَرَبَ الحُوتُ فَخَرَجَ، فَسَقَطَ في البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا، فأمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ، فَقالَ: هَكَذَا مِثْلُ الطَّاقِ، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِما ويَومَهُمَا، حتَّى إذَا كانَ مِنَ الغَدِ قالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا، لقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَبًا، ولَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حتَّى جَاوَزَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ، قالَ له فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وما أنسَانِيهِ إلَّا الشَّيْطَانُ أن أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا﴾ فَكانَ

273- الراوي: أبي بن كعب. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 74. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

لِلْحُوتِ سَرَبًا ولَهُما عَجَبًا، قالَ له مُوسَى: ﴿ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا علَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا، حتَّى انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بثَوْبٍ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عليه، فَقالَ وأنَّى بأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قالَ: أنَا مُوسَى، قالَ: مُوسَى بَنِي إسْرَائِيلَ قالَ: نَعَمْ، أتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي ممَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا، قالَ: يا مُوسَى: إنِّي علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لا تَعْلَمُهُ، وأَنْتَ علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أعْلَمُهُ، قالَ: هلْ أتَّبِعُكَ؟ قالَ: ﴿إنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿68﴾ وكيفَ تَصْبِرُ علَى ما لَمْ تُحِطْ بهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]- إلى قَوْلِهِ {إمْرًا} [الكهف: 71] فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ علَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بهِما سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أن يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بغيرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا في السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ علَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ في البَحْرِ نَقْرَةً أوْ نَقْرَتَيْنِ، قالَ له الخَضِرُ يا مُوسَى ما نَقَصَ عِلْمِي وعِلْمُكَ مِن عِلْمِ اللَّهِ إلَّا مِثْلَ ما نَقَصَ هذا العُصْفُورُ بمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ، إذْ أخَذَ الفَأْسَ فَنَزَعَ لَوْحًا، قالَ: فَلَمْ يَفْجَأْ مُوسَى إلَّا وقدْ قَلَعَ لَوْحًا بالقَدُّومِ، فَقالَ له مُوسَى: ما صَنَعْتَ؟ قَوْمٌ حَمَلُونَا بغيرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إلى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أهْلَهَا، لقَدْ جِئْتَ شيئًا إمْرًا، قالَ: ﴿أَلَمْ أقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قالَ: لا تُؤَاخِذْنِي بما نَسِيتُ ولَا تُرْهِقْنِي مِن أمْرِي عُسْرًا﴾"[274].

فمن هنا نستفيد أن الإنسان مهما بلغ من العلم ألا يكتفي بما عنده من العلم بل يسعى في طلبه، فإن هناك من هو أعلم منه وهو بحاجة للاستزادة من العلم، فلم يأمر الله سبحانه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالاستزادة من شيء كما أمره بالاستزادة من العلم حيث قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، فموسى رغم أنه كان يظن إنه أعلم من في الأرض أوحى الله إليه أن هناك من هو أعلم منه فكان حريصًا على أن يذهب إلى هذا الذي هو أعلم منه ليتعلم منه. وقال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: "فلو كان هناك فقيه مُحّدث تقدّم في الفقه في الحديث وفاق فيهما غيره إلا أنّه لم يكن في النحو والصرف في مثل هذه المستوى من الفقه والحديث، وعلم

274- الراوي: أبي بن كعب - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 3401 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

أن هناك من هو أعلم بالنحو والصرف منه فينبغي له أن يتواضع وأن يأتي العالم الذي هو أعلم منه بالنحو والصرف ليستفيد من علمه ويتعلم منه ولا يأنف من الجلوس إليه لطلب العلم، وإن كان هو متفوقًا ومتقدمًا عليه في الفقه والحديث".

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ**﴾ الفتى في كلام العرب: جرت العادة في الناس أن يتخذوا خادمًا شابًا يتحمل العبء والصعاب ولا يتخذونه شيخًا مسنًا هرمًا، وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قول أحد لخادمه "عبدي أو أمتي"، فقال: "لا يقل أحدكم عبدي أو أمتي وليقل فتاي وفتاتي"[275]. وهذا من باب التواضع. وقيل إن فتى موسى هو خادمه يوشع بن نون، وكان من نَسْل يوسف عليه السلام، وكان يخدمه ويتبعه ويلازمه في الحضر والسفر ليتعلم منه، وقيل إنه ابن أخت موسى عليه السلام، وقيل إنه سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرًا وإنما سمى فتى لأنه بمقام الفتى وهو العبد.

﴿**لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ**﴾: لا أبرح أي لا أزال، والخبر محذوف والتقدير "لا أزال أسيرا" إلى أن أصل إلى مكان حدده الله عز وجل. لا أَبْرَحُ التصميم على بلوغ الهدف، حتى لو كان الثمن أن "أمضي حُقُبًا"، وكل حقبة أربعين عاما، فإن اجتمعت كانت أمدا طويلًا. لا أبرح حتى أبلغ غايتي ولو كانت بعيدة بعد "مجمع البحرين"، ولربما لقيت من سعيي هذا "نصبًا". ولربما أخطأت فعدت على آثاري "قصصًا" لكني لن أبرح. فإن وهبني الله قلما فلن أبرح حتى أبلغ به روعة التأثير، ولئن وهبني الله ريشة فلن أبرح حتى أبلغ بها لوحة خالدة، ولئن وهبني فرصة فلن أبرح حتى أبلغ بها القمة في الأداء. وقد وهبنا الله فرصة في الدنيا، فلن نبرح حتى نعمر الآخرة بما نبلغ به الجنة برحمته، نحدد المهمة ثم نتوكل على رب العباد ونعمل. حينما أوحى الله إلى سيدنا موسى قال: يا موسى تلتقي مع الخضر، مع هذا العبد الصالح في مجمع البحرين، وما دام الله عز وجل قد أخبر سيدنا موسى أن هذا العبد الصالح يراه في مجمع

275- متفق عليه.

البحرين، عندئذٍ قال هذا النبي العظيم: لا أبرح، أمشي، وأبحث، وأسير.

﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وقيل: إنه ملتقى البحر الأحمر مع البحر الأبيض.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾: "أو" هنا للتنويع، يعني إما أن أبلغ مجمع البحرين أو أمضي في السير حُقُبًا أي: دهورًا طويلة، سنوات وسنوات، إلى أن ألتقي بهذا العبد الصالح. تأملوا، كم هو ثمين هذا العلم في نظر هذا النبي العظيم، أحدنا يصرف نفسه عن حضور مجالس العلم لسبب تافه جدًا، قد يكون زيارة ضيف أو خروج لنزهة أو عمل، لسبب تافه نستغني عن حضور مجالس العلم التي هي مجالس الذكر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يذكرون الله فيه إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده، وما اجتمع قوم في مجلس فلم يذكروا الله فيه إلا قاموا عن أنتن من جيفة"[276]. فسار موسى وفتاه ومعهما الحوت، والحوت: نوع من السمك معروف، وفي بعض البلاد يُطلِقون على كل سمك حُوتًا، وقد أعدُّوه للأكل إذا جاعوا أثناء السير، وكان الفتى يحمله وهو مشويٌّ في مكتل، يتزودان منه ويأكلان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61]

﴿بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: موسى وفتاه حتى بلغا مكانِ اجتِماعِ البَحرينِ.

276- صححه الألباني.

﴿**نَسِيَا حُوتَهُمَا**﴾ أي: حدث النسيان منهما معًا، الذي جعَلَه اللهُ علامةً على وجودِ الخَضِرِ في المكانِ الذي يَفقِدانِه فيه. يفتقدان حوتًا لهما كانا قد أعداه للطعام، إذا افتقداه في مكان ما، فهذا المكان مكان اللقاء بالعبد الصالح. ويقال عنه "مجمع البحرين". وأن هناك عينًا يقال لها "عين الحياة" عندما وصلا مجمع البحرين عند صخرة نزلا عندها وناما وكان الحوت الذي كان معهما مملحًا جاهزًا ليأكله هو وفتاه، ولكن قدرة الله عز وجل أصابه رشاش من الماء في تلك المنطقة فاضطرب رغم أنه كان ميتًا وظفر إلى البحر.

روى البخاري عن قتيبة عن سفيان بن عيينة، فذكر نحوه، وفيه: "فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث عن عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر"[277].

﴿**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**﴾ أي: خرج الحوت المشوي من المكتل، وتسرَّب نحو البحر، فشقَّ طريقَه الذي سلَكَه في البَحرِ نفقًا ظاهرًا في الماءِ، لا يَلتَئِمُ بعده. والسَّرَب: مثل النفق أو السرداب، أو هو المنحدر، كما نقول: تسرب الماء من القِرْبة مثلًا، ذلك لأن مستوى الماء في القِرْبة أعلى فيتسرَّب منها، وهذه من عجائب الآيات أن يقفز الحوت المشويّ، وتعود له الحياة، ويتوجّه نحو البحر، لأنه يعلم أن الماء مسكنه ومكانه. فلما نظر الغلام فوجد الحوت نزل في البحر نظر إلى موسى ليخبره فرآه نائمًا فشق عليه أن يوقظه ليخبره، قال أتركه حتى يستريح ومتى استيقظ أخبره. فلما استيقظ موسى نسي الغلام أن يخبره ونسي موسى أن يسأله عن الحوت لذلك نسب الله تعالى النسيان إلى موسى والغلام. فسارا يومهما أو بقية يومهما وليلتهما مشيًا، معنى ذلك أنهما قطعا مسافة طويلة وبَعُدا عن هذا المكان بُعدًا شاسعًا، يقال أن موسى عليه السلام حين بدأ في السفر توجه قاصدًا الرجل الذي هو

277- متفق عليه واللفظ للبخاري.

أعلم منه حتى وصل مجمع البحرين وإلى أن وصل إلى الصخرة التي ناما عندها لم يتعب ولم يشق عليه السفر لا هو ولا فتاه من طول المسافة وأن الله يسر له السفر، ويقال كان عند الصخرة من هو أعلم منه وقيل أن المسافة الثانية التي مشيها موسى مع فتاه من مجمع البحرين بعد أن ناما إلى أن شعرا بالتعب والجوع، هذه هي المسافة التي أجهدت موسى وفتاه وشق عليهما السفر، هنا استدل العلماء على أن موسى في بداية سفره خرج في سبيل الله طالبًا للعلم والاستزادة منه، طالبا الرجل الذي هو أعلم منه، فيسر الله وهون عليه سفره وطوى عنه البعد حتى وصل إلى مجمع البحرين.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾
[الكهف: 62]

﴿جَاوَزَا﴾ أي تعديا ذلك المكان، مجمع البحرين، المكان الذي سيتعلم منه. وبعد ترك الرجل الذي هو أعلم منه مشيا ما يقرب يومًا وليلةً وبعدها شعر بتعب ومشقة، فقال موسى لفتاه:

﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ أحضِرْ طعامَنا لنأكُلَ منه فنتقَوَّى به. قال العلماء: في طلب موسى عليه السلام من الغلام أن يأتي بغدائهما ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ في ذلك تواضع موسى حيث لم يقل للفتى آتني غدائي ولم يقل أحضر لي الطعام وإنما قال ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ فيستفاد من ذلك أنه يجب إكرام الخادم، وعلى المسلم أن يحسن معاملته وأن يطعمه مما يأكل منه وأن يكسوه مما يكتسي.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي تعبًا، فقد تعبنا من السفر، والنَّصَب: هو التعب. ﴿مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ ليس المراد من حين ابتدأ السفر ولكن من حين ما فارقا الصخرة، فمعنى ذلك أنهما سارا حتى مجمع البحرين، ثم استراحا، فلما جاوزا هذا المكان بدا عليهما الإرهاق والتعب، لذلك طلب موسى الطعام، وفي قصةِ موسى والخضرِ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه: "قال موسى لفتاه: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ

لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قال: ولم يجِدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوَزا المكانَ الذي أمَرَ الله به" [278]. وهنا تذكَّر الفتى ما كان من نسيان الحوت.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63]

أي: قال يُوشَعُ لموسى: أرأيتَ ما حصل حين لجأنا إلى الصخرة، والمراد بالاستفهام: التعجب، حينَ أقَمْنا عندَ الصَّخرةِ التي في مَجمَعِ البَحرينِ، فإنِّي نَسِيتُ الحوتَ في ذلك المكانِ، يعني نسيت أن أتفقده أو أسعى في شأنه أو أذكره لك. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي اللهُ عنه قال: "فبينما هو في ظِلِّ صَخرةٍ في مَكانٍ ثَرْيانَ [279]، إذ تضرَّبَ الحوتُ وموسى نائمٌ، فقال فتاه: لا أوقِظُه، حتى إذا استيقظ نَسِيَ أن يخبِرَه، وتضرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحرَ، فأمسك اللهُ عنه جَريةَ البَحرِ، حتى كأنَّ أثَرَه في حَجَرٍ" [280]. وفي رواية قال: "فانطلق هو وفتاه حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فعُمِّيَ عليه، فانطلق وترك فتاه، فاضطرب الحوتُ في الماء، فجعل لا يلتَئِمُ عليه، صار مِثلَ الكوَّةِ، فقال فتاه: ألا ألحَقُ نبيَّ الله فأخبِرَه؟ قال: فنُسِّيَ". ونلاحظ أنه قال هنا "نَسِيتُ" وقال في الآية السابقة "نَسِيَا" ذلك لأن الأولى إخبار من الله، والثانية كلام فتى موسى، ثم يعتذر الفتى عما بَدَر منه من نسيان الحوت، ويقول:

278- رواه البخاري 4725 واللفظ له، ومسلم 2380.
279- ثَرْيان: أي: في ترابِه بلَلٌ ونَدى. يُنظر: النهاية لابن الأثير 211/1.
280- رواه البخاري 4726.

﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أن أَذْكُرَهُ﴾: "أَنْ أَذْكُرَهُ" هذه بدل من الهاء في "أنسانيه"، يعني ما أنساني ذكره إلا الشيطان، نسب النسيان إلى الشيطان فالنسيان الذي ضد الذكر يتسلط على الإنسان بسبب الشيطان، فالشيطان هو الذي لعب بأفكاره وخواطره حتى أنساه واجبه، وأنساه ذِكْر الحوت. كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68]. أي إذا جلست مع الذين يخوضون في آياتنا وأنساك الشيطان، بعد أن تتذكر عليك أن تنصرف عن مجالسة الذين يخوضون في آيات الله. وقال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]. تجنب مجالس الغيبة والنميمة ومجالس السوء والتي يُعصى فيها الله تعالى. ورويت قصة جرت في ولاية أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حيث أُتِيَ إليه بقوم شربوا الخمر ومعهم رجل صائم لم يشرب معهم فأمر بإقامة الحد عليهم قال: اجلدوهم حد الشرب. فقالوا إنه كان فيهم فلان كان صائمًا قال: به فابدؤوا، ابدؤوا بهذا الصائم في الجلد أولًا، كان صائمًا فلماذا جالس الذين يشربون الخمر؟ به فابدؤوا، مستدلًا بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140]، فالصائم لم ينج من شؤم المنكر حيث أمر عمر بالبدء به بالجلد.

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي اتخذ الفتى أو موسى سبيل الحوت في البحر عَجَبًا يعني محلَّ عجبٍ، في الآية السابقة قال: "سَرَبًا" وهذه حال الحوت، وهنا يقول "عَجَبًا" لأنه يحكي ما حدث ويتعجب منه، وكيف أن الحوت المشويّ تدبّ فيه الحياة حتى يقفز من المكتل، ويتجه صَوْبَ الماء، فهذا حقًا عجيبة من العجائب، لأنها خرجتْ عن

المألوف، ماءٌ سيالٌ يمر به هذا الحوت، ويكون طريقه سربًا، فكان هذا الطريق للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:64]

أي: قال موسى عليه السلام: **﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾** أي: ما كنا نطلب، ما كنا نبتغي من هذا السفر الطويل، وهذا هو الهدف، أمر فقد الحوت هو الذي كنا نطلبه وهو الذي سعينا من أجله وخرجنا من أجله لأن المكان الذي افتقدنا فيه الحوت هو مكان اللقاء كما أخبره الله بالوحي بأنه إذا فقد الحوت، فذاك محل اتفاقه مع الخضر، وهكذا عُرف عنوان المكان، وهو مَجْمع البحرين، حتى يلتقي البحران فيصيران بحرًا واحدًا.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾: يعني رجعا بعد أن أخذا مسافة تعبا فيها، ارتدا على آثارهما، يقصان ويتتبعان آثار أقدامهما في الرمال. "قَصَصًا" أي: بدقة كما يفعل قَصَّاصُو الأثر لئلا يضيع عنهما المحل الذي كانا قد أويا إليه، المكان الذي انتفض فيه الحوت وتسرَّب إلى البحر، وهو الموعد الذي ضربه الله تعالى لموسى عليه السلام حيث سيجد هناك العبد الصالح. ويستفاد من رحلة موسى عليه السلام وفتاه: استنبط العلماء: وجوب الرحلة في طلب العلم. وجوب التزود للسفر: لمن أراد السفر أن يعد الزاد ويتزود بالمال والطعام والشراب، وليس في إعداد الزاد تناقضًا مع التوكل، ويقال: كان بعض حجاج اليمن إذا خرجوا إلى الحج لا يتزودون لسفرهم ويقولون نحن ضيوف الرحمن

يطعمنا ويسقينا فأنكر الله تبارك وتعالى عليهم هذا وأمر بالتزود في سفرهم للحج ونزل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]. الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله. والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله، كصاحب الإبل الذي أراد أن يتركها ولم يعقلها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اعقلها وتوكل". عن عمرو بن أمية: قال رجُلٌ لِلنَّبيِّ ﷺ: أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال: "اعقِلْها وتوكَّلْ" [281].

ونستفيد أيضا من قصة موسى عليه السلام مع فتاه جواز اصطحاب الخادم في السفر ليكون عونًا لمخدومه يساعده فيما يشق عليه.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]

رأى موسى عليه السلام رجلًا نائمًا وهو الخضر كما صحَّ ذلك عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: "فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، قال: رجعا يقُصَّانِ آثارَهما حتى انتَهَيا إلى الصَّخرةِ، فإذا رجلٌ مُسجًّى ثوبًا، فسَلَّمَ عليه موسى" [282]. لم يذكر الله لنا اسمه، كل ما يذكره القرآن هو أنه ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾.

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إنَّما سُمِّي الخَضِرَ أنَّه جلَس على فَروةٍ بَيضاءَ، فإذا هي تهتَزُّ مِن خَلفِه خَضراءَ" [283]. والمراد بالفروة هنا الحشيش اليابس. سبق أن تحدثنا عن العبودية، أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن

281- أخرجه ابن حبان في صحيحه: 731.
282- رواه البخاري 4725 واللفظ له، ومسلم 2380.
283- رواه البخاري 3402.

يكون عبدًا لله، وأن تتحقق فيه العبودية لله عز وجل، والعبودية معرفة يقينية، تفضي إلى طاعة طوعية، تنتهي إلى سعادة أبدية، معرفة يقينية، فطاعة طوعية، فسعادة أبدية، فإنْ كانت لله تعالى فهي العزّ والشرف، وإنْ كانت لغير الله فهي الذلُّ والهوان، وقلنا إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ حَظْوة الإسراء والمعراج إلا لأنه عبدٌ لله، كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]. كما أن العبودية لله يأخذ فيه العبد خَيْر سيده، أما العبودية للبشر فيأخذ السيد خَيْر عبده. ثم وصف الله سبحانه هذا العبد الصالح، فقال:

﴿**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا**﴾ وقد تكلم العلماء في معنى الرحمة هنا، فقالوا: الرحمة وردتْ في القرآن بمعنى النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾﴿31﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: 31–32]. أي: النبوة، ومطلق الرحمة تأتي على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل، أما هذه الرحمة، فمن عندنا مباشرة دون واسطة الملَك، لذلك قال تعالى: "آتَيْنَاهُ" نحن، وقال: "منْ عِندِنَا" فالإتيان والعندية من الله مباشرة. ثم يقول بعدها:

﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ وعَلَّمْنا عَبْدَنا الخَضِرَ مِن عِندِنا عِلمًا نافِعًا خَصصْناه به، ومن ذلك ما أطلَعَه اللهُ عليه مِن عِلمِ الغَيبِ. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ رضي الله عنه: "قال له الخَضِر: يا موسى، إنَّك على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه، وأنا على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه اللهُ لا تَعلَمُه. قال: ووقع عُصفورٌ على حَرفِ السَّفينةِ فغَمَس مِنقارَه في البَحرِ، فقال الخَضِرُ لموسى: ما عِلمُك وعِلمي وعِلمُ الخلائِقِ في عِلمِ اللهِ إلَّا مِقدارُ ما غمَس هذا العُصفورُ مِنقارَه"[284].

284- رواه البخاري 4727 واللفظ له، ومسلم 2380.

"مِن لَّدُنَّا" أي: من عندنا أي من الله: لذلك يسمونه العلم اللدنيّ، وهو علم الله الذي يؤخذ من الله جل علا لا بواسطة الرسل وهذا العلم اللدني لا يعطيه الله إلا للأنبياء، لا يكون أبدًا للبشر. والعلم اللدنيّ ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به. العلم يكتسب بالمدارسة، والمطالعة، وحضور مجالس العلم، والتأمل، والتفكر، فإذا حاز الإنسان العلم بالأسباب فهذا العلم الذي نعرفه جميعًا، أما العلم الذي يحوزه الإنسان من دون أسباب أرضية هو العلم اللدنيّ، فهذا العبد الصالح، آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علما فقال جل علاه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا دليل على أنه نبي والله تعالى أعلى وأعلم. هل كان الخِضرُ نبيًا أم كان عبدًا صالحًا أم كان وليًا؟ اختلفت أقوال العلماء في ذلك، ومن قال من العلماء إنه نبي استدل ببعض الأدلة وهي: أن موسى عليه السلام جاءه ليتعلم منه، وموسى كان كليم الله ومن أولي العزم من الرسل الخمسة، ولا يصح أن يكون هذا العبد وليًا وجاءه النبي ليتعلم منه. قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والمراد بالرحمة في القرآن النبوة. قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] يعني علمًا لا يطَّلِع عليه الناس، لا يمكن إدراكه وليس شيئًا مبنيًا على المحسوس، وهو علم الغيب أطلعه الله عليه والله لا يطلع على علم الغيب أولياءَه وإنما يطلع على علم الغيب من ارتضاه من الرسل كما في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿26﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 26-27] لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات، ليبين الله بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علمًا وأنه يفوته من العلم شيء كثير. والله تعالى أعلى وأعلم.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]

قال موسى للخَضِر: هل أصحَبُك لتعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمَك اللهُ عِلمًا أهتدي به إلى الصَّوابِ؟ وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيّ: "أتيتُك لتعَلِّمَني مما عُلِّمْتَ رُشدًا، قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى، إنِّي على عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَنيه لا تَعلَمُه أنت، وأنت على علمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلَّمَكَه اللهُ لا أعلَمُه". ماذا طلب موسى من العبد الصالح؟ طلب أن يرافقه ويتبعه لكي يعلمه مما علمه الله **﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾** أي قال موسى للخضر: هل أتبعك؟ الاستفهام فيه أدب. هل تسمح لي بالتعلم؟ بأدب جم، عرض لطيف وتواضع، نبيٌ مرسل، ومع ذلك يتأدب مع من أعلمه الله أنه أعلم منه، وفوق كل ذي علمٍ عليم، تأمّلوا هذا الأدب من موسى عليه الصلاة والسلام مع أن موسى أفضل منه وكان عند الله وجيهًا، ومع ذلك يتلطف معه لأنه سوف يأخذ منه علمًا لا يعلمه موسى، كأن موسى عليه السلام يُعلِّمنا أدب تلقّي العلم وأدب التلميذ مع معلمه، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر، فلم يقُل له مثلًا: أن الله أمرني أن أتبعك، ولم يقل: أنا سأتبعك، فيجب أن تعلمني، بل تلطّف معه واستسمحه بهذا الأسلوب: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي أصاحبك وأرافقك. وفي هذا دليل أن على طالب العلم أن يتلطف مع شيخه ومع أُستاذه وأن يُعامله بالإكرام، وقد قال بعض العلماء لبعض الطلبة: يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك، ثم بين موسى أنه لا يريد أن يَتَّبِعَه ليأكل من أكله أو يشرب من شربه، ولكن ﴿عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي مما علمك الله شيئًا استرشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح، وقيل أن الله خص الخضِر بعلم لم يطلع عليه موسى ولم يعطه لموسى عليه السلام، ولا شك أن الخضر سيفرح بمن يأخذ عنه العلم، وكل إنسان أعطاه الله علمًا ينبغي أن يفرح أن يؤخذ منه هذا العلم، لأن العلم الذي يُؤخذ من الإنسان في حياته ينتفع به بعد وفاته كما جاء في

الحديث الصحيح: "إِذَا مَاتَ الإنسان انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِية أَوَ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[285].

والرشد: هو حُسْن التصرّف في الأشياء، والرُّشْد يكون في سنّ البلوغ، لكن لا يعني هذا أن كل مَنْ بلغ يكون راشدًا، فقد يكون الإنسان بالغًا وغير راشد، فقد يكون سفيهًا. لذلك لما تكلم الله سبحانه عن اليتامى قال: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: 6]. أي: اختبروهم، واختبار اليتيم يكون حال يُتْمه وهو ما يزال في كفالة المتكفل به، فعليه أن يكلّفه بعمل ما لإصلاح حاله، ويعطيه جزءًا من ماله يتصرَّف فيه تحت عينه وفي رعايته، ليرى المتكفل كيف سيكون تصرف اليتيم فيحرص على تدريبه لمواجهة الحياة، لا أن يجعله في مَعْزل عنها إلى أن يبلغَ الرشْد، ثم يدفع إليه بماله فلا يستطيع التصرف فيه لعدم خبرته ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ﴾ وهو سن البلوغ، ولم يقُلْ بعدها: فادفعوا إليهم أموالهم، لأن بعد البلوغ شرطًا آخر: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ فعلى الوصيّ أن يُراعِيَ هذا الترتيب فإن علم رشده بعد البلوغ فيدفع إليه بماله ليتصرف فيه، فإن لم يأنسْ منه الرشد وحُسْن التصرف فلا يترك له المال يُبدّده بسوء تصرفه. لذلك يقول تعالى في هذا المعنى ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: 5]. ولم يقُلْ: أموالهم، لأن السفيه لا مالَ له حال سَفَهه، بل هو مالكم لِتُحسِنوا التصرف فيه وتحفظوه لصاحبه لحين تتأكدون من رُشْده. إذن: فالرشد الذي طلبه موسى من العبد الصالح هو سداد التصرف والحكمة في تناول الأشياء، لكن هل يعني ذلك أن موسى عليه السلام لم يكن راشدًا؟ لا، بل كان راشدًا في مذهبه هو كرسول، راشدًا في تبليغ الأحكام الظاهرية، أما الرشد الذي طلبه فهو الرشد في مذهب العبد الصالح، وقد دلّ هذا على أنه طلب شيئًا لم يكن معلومًا له، وهذا لا يقدح في مكانة النبوة، لأن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا أوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. وقال الله تعالى

285- صححه الألباني.

للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]. فقال له الخضر:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿67﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 67-68]

أي إنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي، لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ، وباطِنُها بخِلافِ ذلك، سترى مني من الأفعال ما تخالف شريعتك لأني على علم من الله لا تعلمه وأنت على علم من الله لا أعلمه، فكل منا مُكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي. وبيّن له عذره في قوله هذا، وكأنه يلتمس له عُذْرًا على عدم صَبْره معه، لذلك يقول: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لم تحِط بِهِ خُبْرًا﴾ وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: "﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿67﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ شيءٌ أُمِرتُ به أن أفعَلَه، إذا رأيتَه لم تَصبِرْ"[286]، فلا تحزن لأني قُلت: لن تستطيع معي صبرًا، لأن التصرفات التي ستعترض عليها ليس لك خُبر بها، وكيف تصبر على شيء لا عِلْمَ لك به؟ فماذا قال موسى عليه السلام؟

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾

[الكهف: 69]

286- رواه مسلم 2380.

أي: قال موسى للخَضِر: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابِرًا على ما أرى منك، وإن كان على خلافِ ما أراه صَوابًا، هذا الذي قاله موسى عليه السلام فيما يعتقده في نفسه في تلك الساعة من أنه سيصبر، لكنه علَّقه بمشيئة الله لئلَّا يكون ذلك اعتزازًا بنفسه وإعجابًا بها ﴿سَتَجِدُنِي أن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ هو كقول إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام لما قال له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102]. وموسى قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أي سأصبر بمشيئة الله على ما تفعل وأمتثل لما تأمرني به ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. وعده بشيئين: الصبر على ما يفعل، والائتمار بما يأمر، والانتهاء عما ينهى عنه. ونلاحظ في هذا الحوار بين موسى والخضر عليهما السلام، أدبَ الحوار واختلافَ الرأي بين طريقتين: طريقة الأحكام الظاهرية، وطريقة ما خلف الأحكام الظاهرية، وأن كلًا منهما يقبَل رأْيَ الآخر ويحترمه ولا يعترض عليه أو يُنكره، كما نرى أصحاب المذاهب المختلفة ينكر بعضهم على بعض، بل ويُكفِّر بعضهم بعضًا، فإذا رأَوْا مثلًا عبدًا مَنْ عباد الله اختاره الله بشيء من الفيوضات، فكانت له طريقة وأتباع، نرى مَنْ ينكر عليه، وربما وصل الأمر إلى الشتائم والتجريح، بل والتكفير.

نستفيد من قول موسى عليه السلام أنه ينبغي على طالب العلم الذي يحضر مجالس العلم أن يتحلى بالصبر ويتحمل مشاق الطلب وألا يعترض، وأن يتأدب لأنه لو لم يكن معه زادًا عظيمًا من الصبر لم يستطع أن يتعلم ولم يستطع أن يصل إلى الذي يطلبه، وإذا استعجل الطلب فلن يحصل على شيء إذا لم يكن معه الصبر.

ورد في بعض الكتب أن سيدنا الخضر قد أعد لهذا النبي العظيم ألف مسألة، فلما كانت الثالثة فقد سيدنا موسى صبره، عندها قال عليه الصلاة والسلام: "يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا

مِنْ أَمْرِهِمَا"[287]. وفي رواية: "يرحم الله موسى وددنا أن صبر مع الخضِر حتى نرى من أمرهما عجبا". لكن موسى لم يصبر وحرمنا من العجب لو أنه صبر. كما قال الإمام الشافعي رحمه الله في الصبر على العلم:

أخي لن تنال العلم إلا بستة.... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة.... وصحبة أستاذ وطول زمان

هنا يبدأ العبد الصالح يُملي شروط هذه الصُّحْبَة لموسى عليه السلام.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾
[الكهف: 70]

أي: قال الخَضِرُ لموسى: فإنْ صَحِبْتَني فلا تبتَدِئْني بالسُّؤالِ عن أيِّ شَيءٍ أفعَلُه مِمَّا تَستَنكِرُه. وهذا تأكيد من الخضر لموسى، وبيان للطريقة التي يجب اتباعها في مصاحبته فاشترط على موسى لو رافقه وصاحبه ألا يسأله عن شيء من أفعاله أبدًا أي يصبر على ما يراه مخالفًا للشريعة، اتركني حتى أحدثك عما فعلت وأبين لك سر حقيقته التي علمني الله تبارك وتعالى، فهنا هذا الشرط من الخضِر كان بمثبت تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة وكأنه يُعلِّمه أدب تناول العلم والصبر عليه، وعدم العجلة لمعرفة كل أمر من الأمور على حِدة.

﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: أي: لا تَسألْني أبدًا إلى أن أُخبِرَك عن سَبَبِ فِعلي الذي تَستَنكِرُه، وأبَيِّنَ لك حقيقَتَه، ووجهَ صَوابِه. "حتى" هنا للغاية، يعني إلى أن أذكر لك السبب، وهذا توجيه من معلم لمن يتعلم منه، ألَّا يتعجل في الرد على معلمه، بل ينتظر حتى يحدث له

287- البخاري ومسلم عن أبي بن كعب.

بـذلك ذكـرًا، وهـذا مـن آداب المـتعلم ألَّا يتعجـل فـي الـرد حتـى يتبـين الأمر.[288]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَـال الله تعـالى: ﴿وَإِذْ قَـالَ مُوسَـى لِفَتَـاهُ لَا أَبْـرَحُ حَتَّـى أَبْلُـغَ مَجْمَـعَ الْبَحْـرَيْنِ أَوْ أَمْضِـيَ حُقُبًـا﴾ فموسَـى عليـه السـلامُ رحَـل مسـافةً طويلـةً، ولقِـي النَّصَـبَ فـي طلـبِ العلـمِ، وفـي ذلـك دَليـلٌ علـى فضـيلةِ العلـمِ، والحَـثِّ علـى الرِّحلـةِ فـي طَلَبِـه، واغتنـامِ لِقـاءِ الفُضَـلاءِ والعُلَمـاءِ وإن بَعُـدت أقطـارُهم، وذلـك كـان دأبَ السَّـلَفِ الصَّـالحِ، وبسـبَبِ ذلـك وصـلَ المرتَحِلـونَ إلـى الحَـظِّ الـرَّاجِحِ، وحصَـلوا علـى السَّـعيِ النَّـاجِحِ، فرسَـخَت لهـم فـي العُلـومِ أقـدامٌ، وصَـحَّ لهـم مِـن الـذِّكرِ والأجـرِ والفَضـلِ أفضَـلُ الأقسـامِ؛ قـال البخـاريُّ: ورحـل جـابرُ بـنُ عبدِ اللهِ مَسيرةَ شَهرٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُنَيسٍ في حديثٍ![289].

2- إخبارٌ مِـن موسـى بأنَّـه وطَّـن نَفسَـه علـى تحمُّـلِ التَّعَـبِ الشَّـديدِ والعَنـاءِ العَظـيمِ فـي السَّـفَرِ لأجـلِ طَلَـبِ العِلـمِ، وذلـك تنبيـهٌ علـى أن المـتعَلِّمَ لـو سـافرَ مِـن المَشـرِق إلـى المَغـربِ لطَلَـبِ مَسـألةٍ واحـدةٍ، لَحَـقَّ لـه ذلـك. رحَـل موسَـى عليـه السـلامُ لطلـبِ العلـمِ، وتـرَك القعـودَ عنـدَ بنـي إسـرائيلَ لتعلـيمِهم وإرشـادِهم، وفـي ذلـك دليـلٌ علـى البـداءةِ بـالأهمِّ فـالأهمِّ، فـإنَّ زيـادةَ العلـمِ، وعلـم الإنسـانِ: أهـمُّ مِـن تـركِ ذلـك، والاشـتغالِ بـالتعليمِ مِـن دونِ تـزوُّدٍ مِـن العلـمِ، والجمـعُ بـينَ الأمـرينِ أكمـلُ. وهـذا فيـه أن المُسـافِرَ لطَلَـبِ عِلـمٍ أو جِهـادٍ أو نحـوِه، إذا اقتَضَـت المَصـلحةُ الإخبـارَ بمَطلَبِـه، وأيـن يُريـدُه، فإنَّـه أكمَـلُ مِـن كَتمِـه، فـإنَّ فـي إظهـارِه فوائِـدَ، مِـن الإعـدادِ لـه عُدَّتَـه، وإتيـانِ الأمـرِ على بصيرةٍ، وإظهارِ شَرَفِ هذه العبادةِ الجَليلةِ.

288- يُنظر: تفسير ابن جرير 335/15، تفسير القرطبي 18/11، تفسير ابن كثير 181/5، تفسير السعدي ص: 482.
289- صحيح البخاري كتاب العلم، باب الخروجِ في طلبِ العلمِ.

3- إسنادُ النِّسيانِ إليهما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ حقيقةٌ -على أحد القولين- لأن يوشَعَ وإن كان هو الموكَّلَ بحِفظِ الحوتِ، فكان عليه مراقبَتُه، إلَّا أن موسى هو القاصِدُ لهذا العَمَلِ، فكان يُهِمُّه تَعهُّدُه ومراقَبتُه، وهذا يدُلُّ على أن صاحِبَ العَمَلِ أو الحاجةِ إذا وكَلَه إلى غيرِه، لا ينبغي له تَركُ تعَهُّدِه.

4- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فيه استحبابُ إطعامِ الإنسان خادِمَه مِن مأكَلِه، وأكلِهما جميعًا لأن ظاهِرَ قَولِه :آتِنَا غَدَاءَنَا إضافةً إلى الجَميعِ: أنَّه أكل هو وخادِمُه جميعًا. وفيه أن المعونةَ تَنزِلُ على العَبدِ على حَسَبِ قيامِه بالمأمورِ به، وأنَّ الموافِقَ لأمرِ اللهِ يُعانُ ما لا يُعانُ غَيرُه، فقد قال أهلُ العلمِ: أن هذا مِن آيات الله، فقد سارا قبلَ ذلك مسافةً طويلةً ولم يتعَبا، ولمَّا جاوزا المكانَ الذي فيه الخَضِرُ، تعِبا سريعًا مِن أجلِ ألا يتماديَا في البعدِ عن المكانِ لأن الله ميسرٌ أسبابَ الامتثالِ لأوليائِه.

5- لَمَّا سافَرَ موسَى إلى الخَضِرِ وجَدَ في طريقِه مَسَّ الجُوعِ والنَّصَبِ، فقال لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فإنَّه سفَرٌ إلى مخلوقٍ، ولَمَّا واعده ربُّه ثلاثين ليلةً وأتمَّها بعشرٍ، فلم يأكُلْ فيها، لم يجِدْ مَسَّ الجوعِ ولا النَّصَبِ، فإنَّه سفَرٌ إلى رَبِّه تعالى. وهكذا سَفَرُ القلبِ وسَيرُه إلى رَبِّه لا يجِدُ فيه مِن الشَّقاءِ والنَّصَبِ ما يجِدُه في سَفَرِه إلى بعضِ المخلوقينَ.

6- في قولِه: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ حُسنُ أدَبٍ، حيث نسَب النِّسيانَ إلى المتسبِّبِ فيه بوَسْوستِه، وهو الشيطانُ، فمِن وسوستِه أن يشغَلَ القلبَ بحديثِه حتى ينسيَه ما يريدُ أن يفعلَه، ولهذا يُضاف النسيانُ إليه إضافتَه إلى سببِه، والشرُّ وأسبابُه وسائرُ الأمورِ المكروهةِ تُنسَبُ إلى الشيطانِ تأدُّبًا عن نسبتِها إلى اللهِ تعالى، وإن كان الكُلُّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

7- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فيه دليلٌ على التواضُعِ للعالِمِ، فموسَى عليه السلامُ راعى في ذلك غايةَ التَّواضُعِ والأدَبِ، فاستجهَلَ نفْسَه، واستأذَنَ أن يَكونَ تابِعًا له، وسأَلَ مِنه أن يُرشِدَه ويُنعِمَ عليه بتَعليمِ بعضِ ما أنعَم اللهُ عليه. قال قتادة: لو كان أحدٌ يكتفي مِن العِلمِ بشَيءٍ، لاكتفى موسى عليه السَّلامُ، ولكنَّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

8- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾:

- فيه دليلٌ على حُسنِ التلَطُّفِ والاستنزالِ، والأدَبِ في طَلَبِ العِلمِ، فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرَج الكلامَ بصورةِ الملاطفةِ والمشاورةَ، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أو لا، وإقرارُه بأنَّه يتعلمُ منه، بخلافِ ما عليه أهلُ الجفاءِ أو الكِبرِ، لا يُظهِرُ الواحدُ منهم للمعلِّمِ افتقارَه إلى علمِه، بل يدَّعي أنَّه يتعاونُ هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنَّه يُعَلِّمُ معلِّمَه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذلُّ للمعلِّمِ، وإظهارُ الحاجةِ إلى تعليمِه، مِن أنفعِ شيءٍ للمتعلِّمِ، وبَيَّنَ موسى عليه السلامُ أنَّه لا يَطلُبُ من الخضر غيرَ العِلمِ، بقَولِه: ﴿عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ﴾، وزاد في التلَطُّفِ بالإشارةِ إلى أنَّه لا يَطلُبُ جميعَ ما عِندَه لِيَطولَ عليه الزَّمانُ، بل جوامِعَ منه يسترشِدُ بها إلى باقيه، فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.
- وفيه إشارةٌ إلى أن حقَّ المعلِّمِ على المتعلِّمِ اتِّباعُه والاقتداءُ به.
- وفيه دَليلٌ على أن المتعَلِّمَ تَبَعٌ للعالِمِ، وإن تفاوَتَت المراتِبُ.
- وفيه المُسافَرةُ مع العالِمِ لاقتباسِ فوائِدِه.
- وفيه تواضُعُ الفاضِلِ للتعَلُّمِ ممَّن دُونَه، فإنَّ موسى بلا شَكٍّ أفضَلُ مِن الخَضِر. قال بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ فيما عاناه موسى مِن الدَّأبِ والسَّفَرِ، وصَبَر عليه من التواضُعِ والخُضوعِ للخَضِر بَعدَ مُعاناةِ قَصْدِه، مع محلِّ موسى مِن اللهِ ومَوضِعه مِن كرامتِه، وشَرفِ نُبُوَّتِه- دَلالةً على ارتفاعِ قَدرِ العِلمِ، وعلوِّ مَنزلةِ أهلِه، وحُسنِ

التواضُعِ لِمن يُلتَمَس منه ويُؤخَذ عنه، ولو ارتفع عن التواضُعِ لِمخلوقٍ أحدٌ، بارتفاعِ دَرجةٍ، وسُمُوِّ منزلةٍ لسبق إلى ذلك موسى، فلما أظهرَ الجِدَّ والاجتهادَ، والحِرصَ على الاستفادةِ، مع الاعترافِ بالحاجةِ إلى أن يَصِلَ من العلمِ إلى ما هو غائبٌ عنه دلَّ على أنَّه ليس في الخَلقِ مَن يعلو على هذه الحالِ، ولا يَكبُرُ عنها.

- وفيه تعَلُّمُ العالِمِ الفاضِلِ للعِلمِ الذي لم يتمَهَّرْ فيه، ممَّن مهَرَ فيه، وإن كان دونَه في العِلمِ بدَرَجاتٍ كثيرةٍ، فإنَّ موسى -عليه السَّلامُ- مِن أُولي العَزمِ مِن المُرسَلينَ الذين منحَهم اللهُ وأعطاهم من العِلمِ ما لم يُعطِ سِواهم، ولكِنْ في هذا العِلمِ الخاصِّ كان عند الخَضِر ما ليس عندَه؛ فلهذا حَرَص على التعَلُّمِ منه.
- وفيه إضافةُ العِلمِ وغيرِه مِن الفضائِلِ لله تعالى، والإقرارُ بذلك، وشُكرُ الله عليها لِقَولِه: ﴿عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: ممَّا عَلَّمَك اللهُ تعالى.
- وفيه أن العِلمَ النَّافِعَ هو العِلمُ المُرشِدُ إلى الخيرِ، فكُلُّ عِلمٍ يكونُ فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطُرقِ الخيرِ، وتحذيرٌ عن طريقِ الشَّرِّ، أو وسيلةٌ لذلك؛ فإنَّه مِن العِلمِ النَّافِعِ، وما سوى ذلك فإمَّا أن يكونَ ضارًّا، أو ليس فيه فائِدةٌ.

9- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿67﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ في هذا أصلٌ مِن أصولِ التَّعليمِ: أن يُنَبِّهَ المعلِّمُ المتعَلِّمَ بعوارِضِ مَوضوعاتِ العُلومِ المُلَقَّنةِ، لا سيَّما إذا كانت في معالجَتِها مَشقَّةٌ.

وفيه أن مَن ليس له قُوَّةُ الصبرِ على صُحبةِ العالِمِ والعِلمِ، وحُسنِ الثَّباتِ على ذلك، أنَّه يفوتُه بحَسَبِ عَدَمِ صَبرِه كثيرٌ مِن العِلمِ، فمَن لا صَبْرَ له لا يُدرِك العِلمَ، ومن استعمل الصَّبرَ ولازَمَه، أدرك به كُلَّ أمرٍ سعى فيه، لِقَولِ الخَضِر يَعتَذِرُ من موسى بذِكرِ المانِعِ لموسى في الأخذِ عنه: إنَّه لا يصبِرُ معه.

10- السَّبَبُ الكبيرُ لحُصولِ الصَّبرِ على أمرٍ ما، هو إحاطةُ الإنسان عِلمًا وخِبرةً بذلك الأمرِ الذي أُمِرَ بالصَّبرِ عليه، وإلَّا فالذي لا يَدريه، أو لا يَدري غايتَه ولا نتيجَتَه، ولا فائِدَتَه وثمَرتَه، ليس عنده سَبَبُ الصبرِ عليه؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الخَضِرِ لموسى عليه السَّلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ فجعَلَ المُوجِبَ لعدَمِ صَبرِه عَدَمَ إحاطتِه خُبرًا بالأمرِ.

11- قَولُ الخَضِر لموسى عليه السَّلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ نِسبةٌ إلى قِلَّةِ العِلمِ والخُبرِ، وقَولُ موسى له: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ إظهارٌ للتحَمُّلِ التامِّ والتواضُعِ الشَّديدِ، وكلُّ ذلك يدُلُّ على أن الواجِبَ على المتعَلِّم إظهارُ التواضُعِ بأقصى الغايات، وأمَّا المعَلِّمُ فإنْ رأى أن في التَّغليظِ على المتعَلِّمِ ما يفيدُه نفعًا وإرشادًا إلى الخيرِ، فالواجِبُ عليه ذِكرُه فإنَّ السُّكوتَ عنه يُوقِعُ المتعَلِّمَ في الغُرورِ والنَّخوةِ، وذلك يمنَعُه من التعَلُّمِ.

12- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ تعليقَ الأمورِ المُستقبليَّةِ التي من أفعالِ العِبادِ بالمَشيئةِ، وألَّا يقولَ الإنسانُ للشَّيءِ: إني فاعِلٌ ذلك في المُستَقبلِ، إلَّا أن يقولَ: "إنْ شاء الله".

13- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه الأمرُ بالتَّأنِّي والتثَبُّت، وعَدَمُ المبادرةِ إلى الحُكمِ على الشَّيءِ حتى يُعرَفَ ما يُرادُ منه وما هو المَقصودُ. وفيه توجيهٌ مِن مُعَلِّمٍ لِمَن يتعلَّمُ منه ألَّا يَتعجَّلَ في الرَّدِّ على معلِّمِه، بل ينتظرُ حتى يُحدِثَ له بذلك ذِكْرًا، وهذا مِن آدابِ المُتَعَلِّمِ ألَّا يَتَعَجَّلَ في الرَّدِّ حتى يتبيَّنَ الأمْر.

14- في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿69﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ

﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قبولُ نصيحةِ الشيخِ لعلمِه منك ما لا تعلمُه مِن نفسِك، وإن كنتَ أفضلَ منه. [290]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: 71]

﴿**فانطَلَقَا**﴾ الفاعل موسى والخضر، سارا معًا، مرَّت سفينة، وهما يمشيان على شاطئ البحر، وكانت مُعَدَّة لنقل الركاب، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني: بغير أجرة، تكرمةً للخضر، وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيّ: "فانطلق الخَضِرُ وموسى يمشِيانِ على ساحِلِ البَحرِ، فمَرَّت بهما سَفينةٌ، فكَلَّماهم أن يحمِلوهما، فعَرَفوا الخَضِرَ، فحَمَلوهما بغَيرِ نَولٍ [291]، فعمَد الخَضِرُ إلى لوحٍ مِن ألواحِ السَّفينةِ فنَزَعه"[292]. وفي رواية: "وجدا معابِرَ [293] صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ. قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَيرٍ: خَضِرٌ؟ قال: نَعَم، لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا"[294]. فلما استقلت بهم السفينة البحر، وكانت تمشي بهدوء وأمان تجرى بهم بريح طيبة ولججت، أي: دخلت اللجة، إذ بالخضر يعمد إلى السفينة وينزع منها لوحًا من خشب

290- يُنظر: تفسير الرازي 479/21 تفسير ابن عاشور 366/15 - تفسير السعدي ص: 482 - تفسير أبي حيان 205/7 - تفسير البيضاوي 287/3.
291- بغَيرِ نَولٍ: أي: بغير أجرٍ ولا جُعْلٍ، والنَّولُ والنَّوالُ: العطاءُ. يُنظر: النهاية لابن الأثير 129/5، شرح النووي على مسلم 140/15.
292- رواه البخاري 122، ومسلم 2380 واللفظ له.
293- معابِرَ: أي: مَراكِبَ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 152/1.
294- وتَدَ فيها وتدًا: أي: جعل فيها وتدًا، والوَتدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: شرح القسطلاني 224/7، معجم اللغة العربية المعاصرة 2394/3.

والسفينة إذا نُزع منها لوحٌ حصل فيها خرق ﴿خَرَقَهَا﴾ والسفينة إذا خرقت ملئت بالماء وتعرض أهلها للغرق، فلم يُطِق موسى هذا الأمر وكبُرت هذه المسألة في نفسه ولم يصبر فقال متعجبا:

﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾ أي: أمرًا عجيبًا أو فظيعًا. وهذا إنكار من موسى على الخضر مع أنه قال له: ﴿سَتَجِدُنِي أن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ لكنه لم يصبر، ونسي ما أخذه على نفسه من طاعة العبد الصالح وعدم عصيانه والصبر على ما يرى من تصرفاته، فهو أنكر عليه، وبين أن فعله ستكون عاقبته الإغراق، ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. قال موسى للخَضِر: أخرَقْتَ السَّفينةَ لتُغرقَ ركَّابَها فإنَّ خرقَها سببٌ لدخولِ الماءِ فيها وغَرقِهم؟!

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: "فقال له موسى: قومٌ حَمَلونا بغيرِ نَولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتِهم فخَرَقْتَها لتُغرِقَ أهلَها؟"[295] لأن هذه مشكلة عظيمة، سفينة في البحر يخرقها فتغرق! واللام في قوله: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ليست للتعليل ولكنها للعاقبة، يعني أنك إذا خرقتها غرق أهلها، وإلَّا لا شك أن موسى عليه السلام لا يدري ما غرض الخضر، ولا شك أيضًا أنه يدري أنه لا يريد أن يغرق أهلها، لأنه لو أراد أن يغرق أهلها لكان أول من يغرق هو وموسى، لكن اللام هنا للعاقبة. ولام العاقبة ترد في غير موضع في القرآن، مثل قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8]. هل آل فرعون التقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا؟ أبدًا، ولكن اللام هنا للعاقبة. ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يكتف بالاستفهام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، بل تعدَّى إلى اتهامه بأنه أتى أمرًا منكرًا فظيعًا، لأن كلام موسى النظري شيء، ورؤيته لخرق السفينة وإتلافها دون مبرر شيء آخر، لأن موسى استحضر الحكم الشرعي إتلاف مال الغير، فضلًا عن إغراق ركاب السفينة، فرأى الأمر ضخمًا والضرر كبيرًا، فزاده توبيخًا في قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ وقيل إن العرب كانوا يسمون الأمر العظيم أو المصيبة "إمْرًا". والجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكدات: اللام، وقد،

295- رواه البخاري 122، ومسلم 2380 واللفظ له.

والقسم المقدر الذي تدل عليه اللام. والإمر بكسر الهمزة: الشيء العظيم، ومنه قول أبي سفيان لهرقل لما سأله عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وبين له حاله وصفاته وما كان من أخلاقه، فلما انصرف مع قومه، قال أبو سفيان: "لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشَة، إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر"، يعني "بابن أبي كبشة" الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وأَمِرَ أمرُه: يعني عَظُم أمره. [296]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿72﴾ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: 72-73]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال الخَضِرُ لِموسى: "أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ" استفهامُ تَقريرٍ وتعريضٍ باللَّومِ على عَدمِ الوَفاءِ بما الْتَزم، ألم أُخبِرْك بأنَّك لن تُطيقَ الصَّبرَ على اتِّباعي لِما تراه مِن أفعالي التي ظاهِرُها مُنكَرٌ قَبيحٌ؟ وأنَّك لن تَصبِرَ عن سؤالي عن أفعالي لأنك لم تُحِطْ بها خُبْرًا، أتُقِرُّ أنِّي قُلتُ: إنَّك لا تَستطيعُ مَعي صَبرًا؟ وهذا درس آخر من الخضر لموسى عليهما السلام، مَعِيَ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ "تَسْتَطِيع"، فاستِطاعةُ الصَّبرِ المنفيَّةُ هي الَّتي تَكونُ في صُحبتِه، لأنه يَرى أُمورًا عَجيبةً لا يُدرِكُ تأويلَها. وحذَف مُتعلَّقَ القولِ تنزيلًا له مَنزِلةَ اللَّازِم، أي: ألَم يقَعْ منِّي قولٌ فيه خِطابُك بعدَمِ الاستِطاعةِ؟ إن كلامي لك كان صادقًا، وقد حذرتُك أنك لن تصبرَ على ما ترى من تصرفاتي، وها أنت تعترض عليَّ، وقد اتفقنا وأخذنا العهد ألَّا تسألني عن شيء حتى أُخبرك أنا به. وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في حِكايةِ قَولِ الخَضِرِ لموسى عليهما السَّلامُ في خَرْقِ السَّفينةِ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ بحَذفِ "لك"، وفي قَتْلِ الغلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾ بذِكْرِه، لأن في ذِكْرِه قصْدَ زِيادةِ المواجَهةِ بالعِتابِ على تَرْكِ الوصيَّةِ مرَّةً ثانيةً، فإثباتُه فيه لومٌ أشدُّ على موسَى، فكان قولُ الخضرِ لموسَى في الثانيةِ أشدّ. وقيل: إن إثباتَه للتوكيدِ، واختزالَه له لوضوحِ المعنَى، وكلاهما

296- يُنظر: تفسير الماوردي 327/3، تفسير البيضاوي 288/3، تفسير ابن كثير 182/5، تفسير السعدي ص: 482.

معروفٌ عندَ الفصحاءِ. وقيل: إن الفَرقَ الموجِبَ لزِيادة "لك" في هذا القول الثَّاني: أن الخَضِرَ قد حينَ قال له موسى عليه السَّلامُ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فلَمَّا كان مِن موسى عندَ خَرْقِ السَّفينةِ ما كان مِن الإنكارِ بقولِه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ذَكَّره الخَضِرُ بما كان قدْ قاله له، مِن غيرِ أن يَزيدَه على إيرادِ ما كان قد قالَه، فاعتذَر موسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. فلمَّا وقَع منه بعدَ ذلك إنكارُ قتلِ الغُلامِ، وأبلَغ في وصْفِ الفَعْلةِ بقولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، قابَل الخَضِرُ ذلك بتأكيدِ الكلامِ المتقدِّمِ، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾؛ فهذه الزِّيادةُ "لَك" بيانٌ جيءَ به تأكيدًا لِيُقابِلَ بالكَلامِ ما وقَع جَوابًا له مِن قَولةِ موسى عليه السَّلامُ زيادةً للتَّناسُبِ.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ فاعتذر موسى عما بدر منه لمعلمه، وطلب منه مسامحته وعدم مؤاخذته، المؤاخَذةُ: مُفاعَلةٌ مِن الأخذِ، وهي هُنا للمُبالَغةِ؛ لأنها مِن جانبٍ واحدٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النحل: 61].

﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بنسيانه، ولهذا نقول في إعراب "ما" إنها مصدرية، أي: بنِسْياني ذلك، بالذي نسيتُه، أو بشيءٍ نسيتُه: أراد أنَّه نَسي وصيَّتَه، ولا مُؤاخَذةَ على النَّاسي. أو أخرَج الكلامَ في مَعرِضِ النَّهيِ عن المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، يُوهِمُه أنَّه قد نَسي لِيَبسُطَ عُذرَه في الإنكارِ، وهو مِن التوريةِ ومَعاريضِ الكلامِ الَّتي يُتَّقى بها الكَذِبُ، مع التَّوصُّلِ إلى الغرَضِ، وهو هنا إيهامُ خِلافِ المرادِ لِئلَّا يُلزَمَ الكَذِبَ، وهو فنٌّ ظَريفٌ مِن فُنونِهم، ولَعلَّه أجمَلُ أنواعِ التَّوريَةِ. وقيل: اعتذَر موسى بالنِّسيانِ، وكان قد نَسِي التزامَه بما غَشِي ذِهنَه مِن مُشاهدةِ ما يُنكِرُه. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّعطُّفِ والتماسِ عدمِ المؤاخذةِ، لأنه قد يُؤاخِذُه على النِّسيانِ مُؤاخذةَ مَن لا يَصلُحُ للمُصاحبةِ لِما يَنشأُ عن النِّسيانِ مِن خطَرٍ، فالحزامةُ الاحتِرازُ مِن صُحبةِ مَن يَطرَأُ عليه النِّسيانُ، ولذلك بُني كلامُ موسى على طلَبِ عدمِ المؤاخَذةِ بالنِّسيانِ، ولم يُبنَ على الاعتذارِ بالنِّسيانِ، كأنَّه رأى نفْسَه مَحقوقًا بالمؤاخَذةِ، فكان كَلامًا بَديعَ

النَّسيجِ في الاعْتِذارِ. وسبب نسيان موسى، أن الأمر عظيم اندهش له: أن تغرق السفينة وهم على ظهرها، وهذه توجب أن الإنسان ينسى ما سبق من شدة وقع ذلك في النفس.

﴿**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾ أي ولا تُضَيِّقْ عليَّ أمري معك، وتشدِّدْ عليَّ في صُحبتي لك، لا تثقل عليَّ وتعسر عليَّ الأمور، ولا تُحمِّلني من أمر اتباعك عُسْرًا ومشقة. وورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كانت الأولى من موسى نسيانًا"[297] فسامحه الخضر وعاود السير، وكأن هذا والله أعلم توطئة لما يأتي بعده.[298]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قولِه: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ نِسيانُ نَفسِه عندَما قال: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهو بينَ الرَّاكِبين، وهو جَديرٌ بأن يَنهمِكَ بأمرِ نفْسِه، وما هو مُقْدِمٌ عليه مِن سوءِ المصيرِ، وإنَّما حمَلَه على المبادَرةِ بالإنكارِ الالْتِهابُ والحَميَّةُ للحقِّ، فنَسِي نفْسَه واشتَغَل بغيرِه في الحالةِ الَّتي يقولُ فيها كلٌّ واحدٍ: نَفْسي نَفسي، ولا يَلْوي على مالٍ ولا ولَدٍ، وتلك حالةُ الغرَقِ تَذهَلُ فيها العقولُ، وتَغرُبُ الأحلامُ، ويَضيعُ الرُّشدُ مِن الألبابِ.

2- في قَولِه تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ دَلالةٌ على أن قُلوبَ المؤمنينَ مَجبولةٌ على إنكارِ المنكَرِ وغيرُ مالكةٍ للصَّبرِ على احتمالِه لأن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَعَد الخَضِرَ أن يَصْبِرَ على ما يراه منه، فلمَّا رأى منه ما يَعتقدُ أنه منكرٌ أنكَرَه عليه.

297- الراوي: أبي بن كعب - المحدث: ابن جرير الطبري - المصدر: تفسير الطبري الصفحة أو الرقم:9/1/347 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.
298- يُنظر: تفسير الزمخشري 735/2، تفسير أبي السعود 235/5، إعراب القرآن وبيانه لدرويش 12/6.

3- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يأخُذَ مِن أخلاقِ النَّاسِ ومُعامَلاتِهم العَفوَ منها، وما سَمَحَت به أنفُسُهم، ولا ينبغي له أن يُكَلِّفَهم ما لا يُطيقونَ، أو يَشُقَّ عليهم ويُرهِقَهم، فإنَّ هذا مَدعاةٌ إلى النُّفورِ منه والسَّآمةِ، بل يأخُذُ المُتيَسِّرَ ليتيسَّرَ له الأمر.

4- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فيه أن النَّاسيَ غيرُ مُؤاخَذٍ بنِسيانِه؛ لا في حقِّ اللهِ، ولا في حُقوقِ العِبادِ. [299]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: 74]

بعد أن رست السفينة على الميناء وصارا يمشيان في الطريق في الشاطئ المقابل نظرا فوجدا صبيانًا يلعبون في الشارع، فنظر الخضِر إلى أحسن الصبيان وجهًا وأجملهم صورة "غُلامًا"؛ والغلام هو الصغير. وعمد إليه فقتله ولم يقل "قتله"، وفي السفينة قال: "خَرَقَهَا" ولم يقل: "فخرقها"، يعني كأن شيئًا حصل قبل القتل فقتله.
وفي قِصَّةِ موسَى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: "فلمَّا خَرَجا مِن البَحرِ مَرُّوا بغُلامٍ يلعَبُ مع الصِّبيانِ، فأخَذَ الخَضِرُ برأسِه فقَلَعَه بيَدِه هكذا- وأومأ سُفيانُ بأطرافِ أصابعِه كأنَّه يَقطِفُ شَيئًا" [300]. وفي رواية: "وَجَدَ غِلمانًا يَلعَبونَ فأخذ غُلامًا كافِرًا ظَريفًا [301] فأضجَعَه ثمَّ ذبَحَه بالسِّكِّينِ" [302]. وفي رواية: "فانطلَقا حتى إذا لَقِيا غِلمانًا يَلعَبونَ، قال: فانطلَقَ إلى أحَدِهم باديَ الرَّأيِ فقتَلَه، فذُعِرَ

299- يُنظر: تفسير السعدي ص: 482 - إعراب القرآن وبيانه لدرويش 12/6.
300- رواه البخاري 3401.
301- الظَّرْفُ: حُسنُ الوَجْهِ والهَيئةِ. يُنظر: تاج العروس للزبيدي 112/24.
302- رواه البخاري 4726.

[303] عندها موسى عليه السَّلامُ ذَعرةً مُنكَرةً"[304]. فهنا موسى لم يصبر ولم يتحمل فعندما رأى الخضِر عليه السلام خرق السفينة لم يصبر واعترض مخافة حدوث الموت فكيف يصبر عندما رأى الموت؟ كيف يصبر عندما رأى الخضِر يقتل الغلام بلا ذنب ارتكبه؟ فغضب موسى أشد غضب:

﴿**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ أقتَلْتَ نفسًا طاهرةً من الذُّنوبِ بغيرِ حَقٍّ، وفي قراءة: "زاكية" لأنه غلام صغير، والغلام الصغير تكتب له الحسنات، ولا تكتب عليه السيئات، إذن فهو زكي لأنه صغير.

﴿**بِغَيْرِ نَفْسٍ**﴾ يعني أنه لم يقتل أحدًا حتى تقتله. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِرِ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه: "﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لم تعمَل بالحِنثِ".

﴿**لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ أي: لقد فعلتَ -بقَتلِك الغُلامَ بغيرِ ذَنبٍ- فِعلًا مُنكَرًا ظاهِرَ النَّكارةِ. نلاحظ أن الاعتداء الأول من الخضر كان على مال أتلفه، وهنا صعَّد الأمر إلى قَتْل نفس زكية دون حق، والنفس الزكية: الطاهرة الصافية التي لم تُلوِّثها الذنوب ومخالفة التكاليف الإلهية، فبأيِّ جريرة يُقتل هذا الغلام الذي لم يبلغ رُشْده؟ لذلك قال في الأولى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي عجيبًا. أما هنا فقال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، هذه العبارة أشد من العبارة الأولى. "نُكْرًا" أي منكرًا عظيمًا، لأن الجريمة كبيرة، والفرق بين هذا وذاك، أن خرق السفينة قد يكون به الغرق وقد لا يكون وهذا هو الذي حصل، لم تغرق السفينة، أما قتل النفس فهو منكر حادث ما فيه احتمال. وكذلك يأتي الرد من الخضر مخالفًا للرد الأول، ففي المرة الأولى قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: قلت كلامًا عامًا، أما هنا فقال وأكَّدها وأراده بالكلام أي: قُلْت لك أنت: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

303- الذعر: الفزع. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 161/2.
304- رواه مسلم 2380.

﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكَ**﴾ هنا فيها لوم أشد على موسى، يعني كأنك لم تفهم ولن تفهم، فقال له موسى لما رأى أنه لا عذر له:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: 77]

إن سألتُك عن أيّ شَيءٍ بعد هذه المرَّة، ففارِقْني، واترُك صُحبَتي، هنا اشترط موسى على نفسه أمام الخضِر بأنه لو سأله بعدها عن فعل يفعله الخضِر مخالفًا للشريعة، إذ لم يتحمل الشرط عليه أن يتركه ولا يصاحبه.

﴿**فَلَا تُصَاحِبْنِي**﴾ أي امنعني من صحبتك وأنا أعذرك في ذلك لأني أنا السبب، أنا لم أحتمل، وفي قول موسى: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام يرى أنه أعلى منه منْزِلة وإلَّا لقال: "إن سألتك عن شيء بعدها فلن أصاحبك" فكان اعتراض موسى في الأولى نسيانًا، والثانية كان شرطًا، والثالثة كان عمدًا.

﴿**قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**﴾: قد وصلتَ إلى حالٍ تُعْذَرُ فيها في مُفارَقتي، وتَرْكِ مُصاحَبتي وذلك باعتراضي مَرَّتَينِ، واحتِمالِك لي فيهما قد فعلت معي كل ما يمكن فعله، ووصلت إلى حال تعذر فيها وليس لي عُذْر بعد ذلك، لأنه أنكر عليه مرتين مع أن موسى عليه السلام التزم ألَّا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرًا. فلو صبر لرأى العجب ولكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق، وهكذا قطع موسى عليه السلام الطريق على نفسه، لذلك في الحديث أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال: "رحمنا الله، ورحم أخي موسى لو صبر لعرفنا الكثير"[305] فهذه هي الثالثة، وليس لموسى عذر بعد ذلك.[306]

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِرِ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ: "فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ هذا المكانِ: رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى، لولا أنَّه عَجَّلَ لرأى العَجَبَ، ولكِنَّه أخذَتْه مِن صاحِبِه ذِمامةٌ[307] قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا، ولو صبَرَ لرأى العَجَبَ"[308].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فيه أنَّه ينبغي للصَّاحِبِ ألَّا يُفارِقَ صاحِبَه في حالةٍ مِن الأحوالِ، ويَترُكَ صُحبَتَه، حتى يُعتِبَهُ[309]، ويُعذِرَ منه، كما فعل الخَضِرُ مع موسى.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ فيه أن القَتلَ قِصاصًا غيرُ مُنكَرٍ، وأنَّ القِصاصَ كان في شرعِ مَن قبلَنا. وفيه أن القَتلَ مِن أكبَرِ الذُّنوبِ.

3- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ لم يَعتذِرْ هنا موسى عليه السَّلامُ بالنِّسيانِ، إمَّا لأنه لم يَكُنْ نَسي، ولكنَّه رجَّح تغييرَ المنكَرِ العَظيمِ، وهو قَتْلُ النَّفسِ بدونِ موجِبٍ، على واجبِ الوفاءِ بالالْتِزامِ، وإمَّا لأنه نَسي وأعرَضَ عن الاعتِذارِ بالنِّسيانِ لِسَماجَةِ تَكرُّرِ الاعْتِذارِ به، وعلى الاحْتِمالَينِ فقد عدَلَ إلى المبادَرةِ باشْتِراطِ ما تَطمئِنُّ إليه

305- صحيح البخاري وصحيح مسلم.
306- ينظر تفسير ابن جرير 342/15، تفسير ابن كثير 183/5، تفسير السعدي ص: 482 تفسير القرطبي نظم الدرر للبقاعي 113/12، تفسير ابن عاشور 6/16.
307- ذِمامةٌ: أي: حَياءٌ وإشفاقٌ، مِن الذَّمِّ واللَّومِ. يُنظر: النهاية لابن الأثير 170/2.
308- رواه مسلم 2380.
309- أعتبه: أي: أزال شكواه، والهمزةُ فيه للسَّلبِ. المصباح المنير للفيومي 391/2.

نفسُ صاحبِهِ بأنَّه أن عاد للسُّؤالِ الَّذي لا يَبْتَغيه صاحِبُه فقد جعَل له أن لا يُصاحِبَه بعدَه.

4- قولُ موسى للخَضِر: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ والتزامُ موسى بذلك ولم يكتُبا ذلك، ولم يُشهِدا أحدًا؛ فيه دَلالةٌ على العَمَلِ بمُقتضى ما دلَّ عليه الشَّرطُ؛ فإنَّ الخَضِرَ قال لموسى لَمَّا أخلَفَ الشَّرطَ: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولم يُنْكِرْ موسى ذلك.[310]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ أي: فانطلق موسى والخَضِرُ يَسيرانِ بعدَ قَتْلِ الغُلامِ إلى أن بَلَغا قريةً، ولم يعين الله عزّ وجل القرية فلا حاجة إلى أن نبحث عنها، بل نقول: قرية أبهمها الله فنبهمها.

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُما﴾ استطعم: أي طلب الطعام. فطَلَبا مِن أهلِها إطعامَهما، كانا جائعين جدًا، فامتَنَعوا عن أن يُنزِلوهما ويُطعِموهما لُؤمًا منهم، وفي حديثِ قِصَّةِ موسى والخَضِر: "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئامًا، فطافا في المجالِسِ فاسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا". فرفضوا أن يطعموهما وأن يضيفوهما ولا شك أن هذا خلاف الكرم، وهو نقص في الإيمان، لأن النبي صلّى الله عليه

310- ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم للمازري 373/7، تفسير السعدي ص: 482 تفسير ابن عاشور 6/16، فتح الباري لابن حجر 326/5.

وسلّم قال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ"[311]. قال العلماء: يجوز لصاحب الحاجة أن يطالب بما يسدها.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ﴾: فوجَد موسى والخَضِرُ في تلك القريةِ حائِطًا مائِلًا يُوشِكُ أن يَسقُطَ ويَنهَدِمَ، فأصلَحَه الخَضِرُ، وعدَّل مَيلَه فاستقامَ. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ: "﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ يقولُ: مائِلٌ، قال الخَضِرُ بيده هكذا، فأقامَه"[312]. وفي رواية: "أومَأَ بِيَدِه هكذا، وأشار سُفيانُ كأنَّه يَمسحُ شَيئًا إلى فوق"[313].

﴿جِدَارًا يُرِيدُ أن يَنْقَضَّ﴾ هل للجدار إرادة؟ نعم له إرادة، فإن ميله يدل على إرادة السقوط، ولا نتعجب أن كان للجماد إرادة فها هو "جبل أُحُد" قال عنه النبي صلّى الله عليه وسلّم إنه: "يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ"[314]. والمحبة وصف زائد على الإرادة، ألم يَقُل سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: 29]. فإذا كانت السماء تبكي فقد تعدَّتْ مجرد الكلام، وأصبح لها أحاسيس ومشاعر، ولديها عواطف قد تسمو على عواطف البشر، والآية دليل على أنها تبكي على فَقْد الصالحين. وقد سُئِل الإمام علي رضي الله عنه عن هذه المسألة فقال: "نعم، إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في السماء وموضع في الأرض، أما موضعه في الأرض فموضع مُصلَّاهُ، وأما موضعه في السماء فهو مصعد عمله". فهذه المخلوقات لها إحساس ولها بكاء، وتحزن لفقد الأحبة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث"[315].

ورُوِي في السيرة حنين الجذع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماع تسبيح الحصى في يده. وسبق أن أوضحنا هذه المسألة فقلنا:

311- متفق عليه.
312- رواه البخاري 122، ومسلم 2380 واللفظ له.
313- رواه البخاري 3401.
314- متفق عليه واللفظ للبخاري.
315- صحيح مسلم.

لا ينبغي أن نقول: سَبَّح الحصى في يد رسول الله، لأن الحصى يُسبِّح أيضًا في يد أبي جهل، لكن نقول: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسبيح الحصى في يديه.

﴿**فَأَقَامَهُ**﴾ أي أقامه الخضر، لكن كيف أقامه؟ الله أعلم، واختلف المفسرون في إقامة الجدار، منهم من قال هدمه ثم أعاد بناءَه، وقال البعض: أقامه بيده، وأن الله أعطاه قوة فاستقام الجدار. وقيل أشار بيده إليه أن اثبت مكانك فثبت الجدار. المهم أنه أقامه، ولم يبين الله تعالى طول الجدار ولا مسافته ولا نوعه فلا حاجة أن نتكلف معرفة ذلك. فلما رأى موسى أن الخضِر أقام لأهل القرية الجدار ولم يأخذ عليه أجرًا وأن أهل القرية رفضوا إطعامهما، فلم يستطع موسى الصبر ولم ينكر عليه أن يبنيه ولا قال: كيف تبنيه وقد أبوا أن يضيفونا؟ بل قال:

﴿**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ أي: قال موسى للخَضِر: لو شِئتَ لم تُصلِحْ جِدارَ أهلِ هذه القريةِ اللِّئامِ، حتى يعطوك أُجرةً على ذلك، ولم تُقِمْه لهم مجَّانًا، أي كيف تقيم لهم الجدار ولم تأخذ عليه أجرًا؟ وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ: "قال له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضَيِّفونا ولم يُطعِمونا، لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا"[316]. وفي رواية: "﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾: أجرًا نأكُلُه"[317].

﴿**لَوْ شِئْتَ**﴾ وهذا لا شك أنه أسلوب رقيق فيه عرض لطيف. "أَجْرًا" أي عِوَضًا عن بنائه، فهنا نقض موسى الشرط: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ فكان هذا العذر الثالث. فقال له الخضِر:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78]

316- رواه البخاري 122، ومسلم 2380 واللفظ له.
317- رواه البخاري 4726.

﴿هَـذَا فِـرَاقُ بَيْنِـي وَبَيْنِـكَ﴾ قـال الخَضِـرُ لموسـى: سُـؤالُك لـي واعتراضُـك علـى فِعلـي للمَـرَّةِ الثالثـةِ سَـبَبُ حُصـولِ الفِـراقِ بينـي وبينَـك، وقـد انتهـى ما بينَنا، فلن تَصحَبَني بعدَ الآن، أي انتهى ما بيني وبينك فلا صحبة.

﴿سَـأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيـلِ مَـا لَـمْ تَسْـتَطِع عَّلَيْـهِ صَـبْرًا﴾ أي: سـأُخبرُك قبـل مُفارَقتِـك بتفسـيرِ أفعـالي التـي أنكَرْتَهـا علـيَّ، ولـم تسـتَطِعْ أن تصـبِرَ عـن سـؤالي عنهـا حتـى أُخبِـرَك بحَقيقتِهـا. "سَـأُنَبِّئُكَ" السـين تـدل علـى القـرب بخـلاف سـوف، وهـي أيضًـا تفيـد مـع القـرب: التحقيـق، أي سـأخبرك عـن قُـربٍ قبـل المفارقـة بحقيقـة هـذه الأفعـال التـي اعترضْـتَ عليهـا. "بِتَأْوِيـلِ" أي بتفسيره وبيـان وجهـه. ثـم أخـذ الخضِـر يكشـف لموسـى أفعالـه التـي كانـت مخالفـة للشـريعة والتـي لـم يصـبر عليهـا موسـى، والحكمـة مـن هـذه الأفعـال واحـدًا تِلْـو الآخـر، وهـذا مـن أدب الصُّـحْبة، فـلا يجـوز بعـد المصـاحبة الافتـراق علـى الخـلاف، ينبغـي أن يكـون الافتـراق علـى وِفَـاق ورضا، لأن الافتراق على الخلاف يُنمِّي الفجوة ويدعو للقطيعة.[318]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قـال الله تعـالى: ﴿فَانطَلَقَـا حَتَّـى إِذَا أَتَيَـا أَهْـلَ قَرْيَـةٍ اسْـتَطْعَمَا أَهْلَهَـا فَـأَبَوْا أَن يُضَـيِّفُوهُمَا﴾ فمَـن لـم يُعْـطَ يَتَعَـزَّ بهـذه القصـةِ، وكـم ممـن هـانَ علـى النـاسِ وهـو جليـلٌ عنـدَ الله. قـال: أَتَيَـا ولـم يقُـلْ: "وصَـلا إلـى أهـلِ قريـةٍ" إشـارةً إلـى أن إتيـانَهم لهـا كـان عـن قَصـدٍ. وفـي الآيـة دَليـلٌ علـى إباحـةِ طَلَـبِ الطعـامِ لعـابِرِ السَّـبيلِ لأنـه شَـرعُ مَـن قَبلَنـا، وحكـاه القـرآنُ، ولـم يَـرِدْ مـا يَنسَـخُه. وفـي الآيـة مَشـروعيَّةُ ضـيافةِ عـابِرِ السَّـبيلِ إذا نـزَل بأحـدٍ مِـن الحَـيِّ أو القَريةِ.

318- ينظر: تفسير ابن جرير 351/15، تفسير ابن كثير 184/5، تفسير السعدي ص: 482، تفسير ابن عاشور 7/16، 9.

2- قال الله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أن يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ في هذه الآية إباحةُ المكاسِبِ، وأخذِ الأُجرةِ على العَمَلِ، وفي ذلك تجهيلُ مَن يُحَرِّمُ الكَسبَ مِن الصوفيَّةِ لأن موسى صلَّى اللهُ عليه وسلم قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فلم يُنْكِرِ الخَضِرُ ما قال، بل أعلَمَه أن الانتظارَ به إلى وقتِ اتِّخاذِه الأجرَ لم يُمكِنْه لِما خشِيَ مِن ظهورِ الكَنزِ بعد انقِضاضِه.

3- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: كان في مُكْنَتِك أي: استطاعتِك أن تجعَلَ لنفسِك أجرًا على إقامةِ الجِدارِ تأخُذُه ممَّن يَملِكُه من أهلِ القريةِ، ولا تقيمَه مجانًّا، لأنهم لم يقوموا بحَقِّ الضيافةِ، ونحن بحاجةٍ إلى ما نُنفِقُه على أنفُسِنا، وفيه إشارةٌ إلى أن نَفَقةَ الأتباعِ على المتبوعِ.[319]

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79]

أي: قال الخَضِرُ لموسى: أمَّا السَّفينةُ التي خَرَقْتُها فكانت لمساكينَ يَطلُبونَ فيها الرِّزقَ في البَحرِ. وفي قصةِ موسَى والخضرِ عليهما السلامُ، من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه: "وجدا معابِرَ صِغارًا تحمِلُ أهلَ هذا السَّاحِلِ إلى أهلِ هذا السَّاحِلِ الآخَرِ، عَرَفوه فقالوا: عبدُ الله الصَّالحُ -قال: قُلْنا لسعيدِ بنِ جُبَيرٍ: خَضِرٌ؟ قال: نَعَم- لا نحمِلُه بأجرٍ، فخَرَقَها ووتَدَ فيها وتدًا"[320].

319- يُنظر: تفسير ابن عاشور 9/16 - النُّكت الدالة على البيان للقصاب 220/2.
320- تقدَّم تخريجُه.

"ال" في "السفينة": هي للعهد الذكري أي: السفينة التي خرقتها "لِمَسَاكِينَ" اللام هنا للملكية، يعني مملوكة لهم.

﴿**يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**﴾ أي: مجال عملهم البحر، أي: أنهم يطلبون الرزق فيها إما بتأجيرها، أو بنقل الركاب أو البضائع أو بصيد السمك عليها، وهم مساكين "جمع"، والجمع أقله ثلاثة، وليس ضروريًا أن نعرف عددهم، وقيل إنهم كانوا أيتامًا. وقد حسمتْ هذه الآية الخلافَ بين العلماء حول تعريف الفقير والمسكين، والفرق بينهما، وأيهما أشدّ حاجةً من الآخر. وعليه، فالمسكين: هو مَنْ يملك شيئا أي له دخل لا يكفيه، كهؤلاء الذين كانوا يملكون سفينة تعمل في البحر، وسماهم القرآن مساكين، أما الفقير: فهو المعدوم الذي لا يملك شيئًا.

﴿**فَأَرَدْتُ أن أَعِيبَهَا**﴾: أي: فأردتُ أن أخرِقَ السَّفينةَ، فأجعَلَها مَعِيبةً، المتكلم هنا هو الخَضِر عليه السلام، يعني أن أجعل فيها عيبًا، فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه، ولم ينسبها إلى الله تعالى تنزيهًا له تعالى عَمَّا لا يليق، أما في الخير فنسب الأمر إلى الله فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: 82]. لذلك فإنه في نهاية القصة يُرجِع كل ما فعله إلى الله فيقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾: أي: وكان أمامَ أصحابِ السَّفينةِ مَلِكٌ ظالِمٌ يَستولي على كُلِّ سَفينةٍ صالحةٍ قَهرًا، وكلمة "وَرَاءَهُم" هنا بمعنى "أمامهم". فعن قتادة، قال: كان في القراءة: "وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا". وقد ذكر عن ابن عيينة، عن عمرو، عن سعيد بن جبير، قَرَأَهَا ابنُ عَبَّاسٍ: "أَمَامَهُمْ مَلِكٌ" [321]. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: "﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فإذا جاء الذي

321- الراوي: أبي بن كعب – المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 4726 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

يُسَخِّرُها [322] وجَدَها مُنخَرِقةً فتَجاوَزَها، فأصلَحوها بخَشَبةٍ" [323] وفي رواية: "فأرَدتُ إذا هي مَرَّتْ به أن يَدَعَها لِعَيبِها، فإذا جاوَزوا أصلَحوها، فانتَفَعوا بها". [324] وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: "فكان ابنُ عبَّاسٍ يقرأُ: "وكان أمامَهم مَّلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ صالحةٍ غَصبًا" [325]. هذا الظالم كان يترصَّد للسفن التي تمر عليه، فما وجدها صالحة غصبها، فهو في الحقيقة أمامهم، كما في قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16]. وهل جهنم وراءه أم أمامه؟ وتستعمل "وراء" بمعنى: "بَعْد"، كما في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]. وتأتي "وراء" بمعنى: "غير". كما في قوله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿5﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿6﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 5-7]. وفي قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [النساء: 24]. وقد تستعمل "وراء" بمعنى "خلف"، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]. إذن: كلمة "وَرَاءَ" جاءتْ في القرآن على أربعة معَانٍ: أمام، خلف، بعد، غير. فهي من حروف الأضداد وهذا مما يُميِّز العربية عن غيرها من اللغات، والملَكة العربية قادرة على أن تُميّز المعنى المناسب للسياق، فكلمة "العَيْن" مثلًا، تأتي بمعنى العين الباصرة، أو عين الماء، أو بمعنى الذهب والفضة، أو بمعنى الجاسوس. والسياق هو الذي يُحدد المعنى المراد. وكلمة "كل" ترسم سُورًا كُليًا لا يترك شيئًا، فالمراد: يأخذ كل سفينة، سواء كانت معيبة أم غير معيبة، لكن الحقيقة أنه يأخذ السفينة الصالحة للاستعمال فقط، ولا حاجةَ له في

322- يُسَخِّرُها: التَّسخيرُ بمعنَى التَّكليفِ، والحملِ على الفعلِ بغيرِ أُجرةٍ. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 350/2.

323- رواه مسلم 2380.

324- رواه البخاري 4726.

325- رواه البخاري 4725، ومسلم 2380.

المعيبة غير الصالحة، وكأن في سياق الآية صفة مُقدَّرة: أي يأخذ كل سفينة صالحة غَصْبًا من صاحبها. والغَصْب: ما أُخذ بغير الحق، بالقوة عُنْوةً وقَهْرًا ومُصَادرة، وتحت سمعه وبصره. إذن: خَرْق السفينة في ظاهره اعتداء على ملْك، وهذا منهيّ عنه شرعًا، لكن إذا كان هذا الاعتداء سيكون سببًا في نجاة السفينة كلها من الغاصب فلا بأس إذن، من تحويل السفينة إلى سفينة غير صالحة بخَرْقها، أو بخلْع لَوْح منها لصرف نظر الملك المغتصب عن أَخْذها. حتى إذا مرت بهذا الملك، قال: هذه سفينة معيبة لا حاجة لي فيها، لأنه لا يأخذ إلا السفن الصالحة الجيدة، أما هذه فلا حاجة له فيها، وعن ابن جريج: "وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، فإذا خلفوه أصلحوها بزفت فاستمتعوا بها". وكان الخضِر عليه السلام يعلم من علمه الذي علمه الله أن هذا الملك إذا رأى السفينة سيأخذها وسيؤذي المساكين. فقال: ﴿فَأَرَدْتُ أن أَعِيبَهَا﴾ حتى يرده عنها فينتفع بها أصحابها الذي لم يكن لديهم شيء ينتفعون فصار فعل الخضر من باب دفع أشد الضررين بأخفهما، وسفينة معيبة خير من عدمها. ولو عَلِم موسى عليه السلام هذه الحكمة لَبادرَ هو إلى خَرْقها. ومنه يؤخذ فائدة عظيمة وهي إتلاف بعض الشيء لإصلاح باقيه، والأطباء يعملون به، تجده يأخذ من الفخذ قطعة فيصلح بها عيبًا في الوجه، أو في الرأس، أو ما شابه ذلك.[326]

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: 80]

أي: وأمَّا الغلامُ الذي قتَلْتُه، فكان أبوه وأمُّه مُؤمِنَينِ باللهِ، وكان الغُلامُ كافِرًا.

326- ينظر: تفسير ابن جرير 353/15، تفسير البغوي 209/3، تفسير ابن كثير 184/5، تفسير السعدي ص: 483.

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: "وأمَّا الغُلامُ فطُبِعَ يومَ طُبِعَ كافِرًا" [327]. وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: "فكان ابنُ عَبَّاسٍ يَقرأُ: "وَأمَّا الغلامُ فكان كافِرًا وكان أبواه مؤمِنَينِ" [328].

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾: الولد الذي لم يبلغ الحُلُم وسِنّ التكليف، وما دام لم يُكلَّف فما يزال في سِنِّ الطهارة والبراءة من المعاصي، لذلك لما اعترض موسى على قتله قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: طاهرة، ولا شكَّ أن أخْذ الغلام في هذه السِّنِّ خَيْر له ومصلحة قبل أن تلوّثه المعاصي، ويدخل دائرة الحساب. هذا عن الغلام، فماذا عن أبيه وأمه؟ يقول تعالى:

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾: "أَبَوَاهُ" أي: أبوه وأمه. "مُؤْمِنَيْنِ" أي: وهو كافر "فَخَشِينَا" أي خفنا، والخشية في الأصل: خوف مع علم، وأتي بضمير الجمع للتعظيم.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إن بَقِيَ الغلامُ حيًّا أن يغْشَى أبوَيه بالعُقوقِ، ويَحمِلَهما على الطغيان والكُفرِ بالله، إما من محبتهما إياه، أو عندما يكبر سيكفر ويتسبب بفتنة أبويه ويجعلهما يرتدان عن دينهما فقتله.

وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أبيٍّ: "وأمَّا الغُلامُ فطُبِع يومَ طُبِع كافِرًا، وكان أبواه قد عطَفَا عليه، فلو أنَّه أدرك، أرهَقَهما طُغيانًا وكُفرًا" [329]. وفي رواية: "﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أن يَحمِلَهما حُبُّه على أن يُتابِعاه على دِينِه" [330]. وقيل إن أبويه فرحا به حين وُلِد وحزنا عليه حينما قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فلْيَرضَ العَبدُ بما قَسَم اللهُ له فإنَّ قَضاءَ اللهِ للمُؤمِنِ خَيرٌ مِن قَضائِه لِنَفسِه، وقضاءُ اللهِ لك فيما تَكرَهُ خَيرٌ مِن قَضائِه لك فيما تُحِبُّ [331]. وقيل لما

327- رواه مسلم 2380.
328- رواه البخاري 4725.
329- رواه مسلم 2380.
330- رواه البخاري 4726.
331- يُنظر: الدر المنثور للسيوطي 429/5، وعزاه لابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

قتله الخضِر كانت أمه حاملةً بغلام مسلم. وكثيرًا ما يكون الأولاد فتنة للآباء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14]. والفتنة بالأولاد تأتي من حِرْص الآباء عليهم، والسعي إلى جعلهم في أحسن حال، وربما كانت الإمكانات غير كافية، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده. وقد عَلِم الله سبحانه وتعالى أن هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه، وهما مؤمنان ولم يُرِد الله تعالى لهما الفتنة، وقضى أن يقبضهما إليه على حال الإيمان. وقيل إن الخضِر علم أن هذا الغلام إذا كبر سوف يكفر بالله ويفتن والديه فقتله.

﴿فَأَرَدْنَا أن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

[الكهف: 81]

﴿فَأَرَدْنَا﴾: أي قال الخَضِرُ: فأرَدْنا بقَتلِ الغُلامِ الكافِرِ أن يُبدِلَ اللهُ أبوَيه المُؤمِنَينِ ولَدًا صالِحًا خَيرًا مِنَ الأوَّلِ: دينًا، وصَلاحًا، وطهارةً مِن الذُّنوبِ.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي في الصلة، أرحمَ بوالِدَيه، وأبَرَّ بهما منه. وفي قِصَّةِ موسى والخَضِر من حديثِ أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه: "ووقع أبوه على أمِّه فعَلِقَتْ، فوَلَدَت منه خيرًا منه زكاةً، وأقرَبَ رُحمًا"[332]. وكأن قضاء الله جاء خيرًا للغلام وخيرًا للوالدين، وجميلًا أُسْدِي إلى كليْهما، وحكمة بالغة تستتر وراء الحدَث الظاهر الذي اعترض عليه موسى عليه السلام. ويؤخذ من ذلك أنه يقتل الكافر خوفًا من أن ينشر كفره في الناس. وهنا يستفاد أن المؤمن عليه أن يرضى بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. والحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يقضي الله لمؤمن إلا كان خيرًا له"[333]. وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أن تَكْرَهُوا شَيْئًا

332- أخرجه النسائي في السنن الكبرى 5844، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند 21118 واللفظ له. صحَّح إسنادَه شُعَيب الأرناؤوط في تحقيق مسند أحمد 52/35.
333- صححه الألباني.

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216][334].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82]

أي: وأمَّا الحائِطُ الذي أقَمْتُه فكان لغُلامَينِ يتيمَينِ في المدينةِ التي أبَى أهلُها أن يُضَيِّفونا، فحالُهما تقتضي رحمَتَهما والرَّأفةَ بهما لكَونِهما صَغيرَينِ فَقَدا أباهما.

﴿لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ أي: لم يبلغا سِنَّ الرشْد يعني صغيرين، وصفهما القرآن باليتم لأن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يُتْمَ بعدَ احتِلامٍ" أي بعد البلوغ[335]، هنا فسر العلماء: لو كان الغلامان بالغين لما ذكر القرآن يتيمين.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: القرية التي أتياها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي: وكان تحت الجِدارِ مالٌ عَظيمٌ مَدفونٌ لليتيمَينِ، كَنْز لهذين الغلامين غير القادرين على تدبير شأنهما. فلو وقع الجِدارُ لكان أقرَبَ إلى ضَياعِ مالِهما. اختلف رأي المفسرين

334- يُنظر: تفسير ابن جرير 356/15، 357، تفسير السمرقندي 358/2، تفسير الزمخشري 741/2، تفسير القرطبي 36/11، 37، تفسير ابن كثير 185/5، تفسير الشوكاني 359/3.

335- الراوي: علي بن أبي طالب - المحدث: النووي - المصدر: الأذكار. الصفحة أو الرقم: 500 - خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

واختلف الناس في الكنز الذي تحت الجدار: فقيل إنه مال جسيم. وقيل إنه كان علمًا في صحف مدفونة. وقيل أيضا إنه كان لوحًا من الذهب مكتوبًا فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفو وعجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلب الناس فيها كيف يطمئن لها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ وكان والِدُ اليتيمَينِ -الذي مات وخلَّفهما- صالِحًا، فينبغي مُراعاتُه، والعناية بذُرّيتِه. يستفاد من هذه الآية أن صلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا وفي الآخرة، الأبوة الصالحة تعود بالخير على البنوة الصالحة، فهذا الأب الصالح استحق أن يطمئن على ولديه اليتيمين، وأنهما سيأخذان الكنز الذي خبأه لهما تحت الجدار، وحيث إن الجدار كان على وشك الوقوع جاء هذا العبد الصالح وبنى هذا الجدار بلا مقابل، لأن أبوهما كان صالحًا سخر الله الخضِر في أن يقيم لهم الجدار حتى لا يسقط ويتهدم، ولو تهدم الجدار لظهر الكنْز وانكشف أمام عيون هؤلاء القوم الذين منعوهما الطعام، بل ومجرد المأْوى، ولأسرع أهل القرية وأخذوا الكنز وحرموا الغلامين اليتيمين منه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21]. وقيل تفسيرًا لهذه الآية إن المسلمين إذا دخلوا الجنة وكان آباؤهم صالحين في درجة أعلى من درجة أبنائهم يُرفع أبناؤهم إليهم ليكونوا معًا في نفس الدرجة، وهذا من رحمة الله وتمام فضله. فكان من شكر الله عزّ وجل لهذا الأب الصالح أن يكون رؤوفًا بأبنائه، وهذا من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله الأبناء.

﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**﴾ أي: أراد ربُّك -يا موسى- أن يَكبَرَ اليتيمانِ حتى يَصِلا إلى سِنِّ الرُّشدِ، وهو أربعون سنة عند كثير من العلماء، وتَمامِ القُوَّةِ، ويَستَخرِجا حينَئذٍ مالَهما المدفونَ تحت الجِدارِ، وهنا ما قال "فأردنا" ولا قال "فأردت"، بل قال: "فَأَرَادَ رَبُّكَ" لأن بقاء الغلامين حتى يبلغا أشدهما ليس للخضر فيه أي قدرة، لكن

الخشية، خشية أن يرهق الغلام أبويه بالكفر تقع من الخضر وكذلك إرادة عيب السفينة. ومعنى الأشُدّ: أي القوة، حيث تكتمل أجهزة الجسم وتستوي، وأجهزة الجسم تكتمل حينما يصبح المرء قادرًا على إنجاب مثله. ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ولم يقُلْ رُشْدهما، لأن هناك فرْقًا بين الرُّشْد والأشُدّ، فالرُّشْد: حُسْن التصرُّف في الأمور، أما الأشُدَّ: فهو القوة، والغلامان هنا في حاجة إلى القوة التي تحمي كَنْزهما من هؤلاء الناس فناسب هنا "أَشُدَّهُمَا".

﴿**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**﴾ أي: هذا الذي كان -يا موسى- إنما فَعَلْتُه رَحمةً مِنْ رَبِّك وما حدث لهذين الغلامين، لحماية مالهما وحِفْظ حقِّهما.

﴿**وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا**﴾ يستخرجاه بما لديهما من القوة والفُتوَّة حتى لا يبقى تحت الجدار، فعِلَّة إصلاح الجدار ما كان تحته من مال يجب أن يحفظ لحين أن يكبُرَ هذان الغلامان ويتمكنا من حفظه وحمايته. وكأن الله سبحانه وتعالى أرسله لهذين الغلامين في هذا الوقت بالذات، حيث أخذ الجدار في التصدُّع، وظهرت عليه علامات الانهيار ليقوم بإصلاحه قبل أن يقع وينكشف أمر الكنز وصاحبيه في حال الضعف وعدم القدرة على حمايته. ثم أن العبد الصالح أصلح الجدار ورَدَّه إلى ما كان عليه وبنَاهُ بناءً موقوتًا يتناسب وعُمْرَ الغلامين، وكأنه بناه على عمر افتراضي ينتهي ببلوغ الغلامين سِنَّ الرشْد والقدرة على حماية الكنز فينهار. وهذه في الواقع عملية دقيقة لا يقدر على حسابها إلا مَنْ أُوتِي علمًا خاصًا من الله تعالى. ويبدو من سياق الآية أنهما كانا في سِنٍّ واحدة توأمين لقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: سويًا.

﴿**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**﴾ هذا مفعول لأجله، والعامل فيه أراد، يعني أراد الله ذلك رحمة منه جلَّ وعلا، ثم لم يَفُتْ العبد الصالح أن يُرجِع الفضل لأهله، وينفي عن نفسه الغرور بالعلم والاستعلاء على صاحبه، فيقول: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي وما فعلتُ جميعَ تلك الأمورِ التي رأيتَني فعَلْتُها عن رأيي، ومِن تِلقاءِ نَفسي، وإنَّما فعَلْتُها بأمرِ اللهِ، الأمور التي فعلتها وأنكرتها عليّ وهي

مخالفة للشرع برأيك وما علَّمتك إياه كان من عند الله، ما فعلت هذا الشيء عن عقل مني أو ذكاء مني ولكنه بأمر الله، بإلهام من الله عزّ وجل وتوفيق، فليس لي مَيْزة عليك لأن هذا الشيء فوق ما يدركه العقل البشري. وهذا درس في أَدب التواضع ومعرفة الفضْل لأهله.

﴿**ذَلِكَ تَأْوِيلُ**﴾ تأويل: أي إرجاع الأمر إلى حقيقته، وتفسير ما أشكل منه. أي ذلك الذي بيَّنْتُه لك -يا مُوسى- هو تَفسيرُ أفعالي التي استنكَرْتَها عليَّ، ولم تستَطِعْ أن تَصبِرَ عن سؤالي عنها ذلك الذي وعدتك به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾. أي: تفسيره، ويحتمل أن يكون التأويل هنا في الثاني العاقبة، يعني ذلك عاقبة ما لم تستطع عليه صبرًا، لأن التأويل يراد به العاقبة ويراد به التفسير.

﴿**مَا لَمْ تَسْطِعْ عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾ وفي الأول قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾ لأن "استطاع واسطاعَ ويستطيع ويسطيع" كل منها لغة عربية صحيحة.
والفرق بين اللفظين "تَسْتَطِعْ" التاء قبل الطاء و"تسْطِع" الطاء بدون تاء قال العلماء إن الجهل يكون ثقيلًا على الإنسان وموسى عليه السلام لما رأى ما رأى وكره وهو لا يعلم حقيقته ويجهل السبب فكان هذا الجهل ثقيلًا على نفسه قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فلما أنبأه بحقيقة ما فعل وأُطْلِعَ على أسرارها زال الجهل عن موسى وزال الثقل الذي كان عليه فقال ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [336]. وبهذا انتهت قصة موسى مع الخضر. وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله تعالى في تفسيره [تيسير الكريم الرحمن] فوائد جمة عظيمة في هذه القصة لا نجدها في كتاب آخر فينبغي لطالب العلم أن يراجعها لأنها مفيدة جدًا.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ فيه أن المسكينَ قد يكونُ له مالٌ لا يَبلُغُ كِفايتَه، ولا يَخرُجُ بذلك

336- يُنظر: تفسير ابن جرير 366/15، تفسير ابن كثير 187/5، تفسير السعدي ص: 483.

عن اسمِ المَسكنةِ، لأن الله أخبَرَ أن هؤلاء المساكينَ لهم سَفينةٌ، وأنَّ المسكينَ أصلَحُ حالًا مِن الفَقيرِ، وفيه أن العَمَلَ يجوزُ في البَحرِ. وفيه دَليلٌ على أن عَمَلَ الإنسان في مالِ غَيرِه، إذا كان على وَجهِ المَصلَحةِ وإزالةِ المَفسَدةِ، أنَّه يجوزُ ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترَتَّبَ على عَمَلِه إتلافُ بَعضِ مالِ الغَيرِ، كما خَرَقَ الخَضِرُ السَّفينةَ لِتَعيبَ فتَسلَمَ مِن غَصبِ المَلِك الظَّالِمِ، فعلى هذا لو وقَعَ حَرقٌ أو غَرَقٌ أو نحوُهما في دار إنسانٍ أو مالِه، وكان إتلافُ بَعضِ المالِ، أو هَدمُ بعضِ الدارِ، فيه سَلامةٌ للباقي جاز للإنسانِ، بل شُرِعَ له ذلك حِفظًا لمالِ الغَيرِ.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه استِعمالُ الأدَبِ مع الله تعالى في الألفاظِ، فإنَّ الخَضِرَ أضاف عَيبَ السَّفينةِ إلى نَفسِه، وأمَّا الخَيرُ فأضافه إلى اللهِ تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80]، وقالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أم أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: 10]، مع أن الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

3- قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿80﴾ فَأَرَدْنَا أن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ تَهوينُ المصائِبِ بفَقدِ الأولادِ، وإن كانوا قِطَعًا مِن الأكبادِ، ومَن سَلَّم للقضاءِ، أسفَرَت عاقِبَتُه عن اليدِ البَيضاءِ. وفيه دليلٌ على أنَّه يُدفَعُ الشَّرُّ الكبيرُ بارتِكابِ الشَّرِّ الصَّغيرِ، وأنَّه يُراعى أكبَرُ المصلَحَتينِ بتَفويتِ أدناهما فإنَّ قَتلَ الغُلامِ شَرٌّ، ولكِنَّ بقاءَه حتى يَفتِنَ أبوَيه عن دينِهما أعظَمُ شَرًّا منه، وبقاءُ الغلامِ مِن دونِ قَتلٍ وعِصمَتُه، وإن كان يُظَنُّ أنَّه خيرٌ، فالخَيرُ ببقاءِ دينِ أبوَيه وإيمانِهما خيرٌ مِن ذلك، فلذلك قَتَلَه الخَضِر، وتحت هذه القاعدةِ مِن الفُروعِ والفوائِدِ ما لا يدخُلُ تحتَ الحَصرِ، فتزاحُمُ المصالحِ والمفاسِدِ كُلِّها داخِلٌ في هذا.

4- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ لَمَّا كان التَّعويضُ عن هذا الولَدِ لله وَحدَه، أسنَدَ الفِعلَ إليه تعالى.

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ فيه دليلٌ على إطلاقِ القريةِ على المدينةِ، وجوازِ تَسميةِ إحداهما بالأُخرى؛ لأنه قال أولًا: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وقال ها هنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾.

6- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾ يدُلُّ على أنَّه يجوزُ دَفنُ المالِ في الأرضِ.

7- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ يدُلُّ على أن العبدَ الصَّالحَ قدْ يحفظُه الله تعالى بصلاحِه بعدَ موتِه في ذُرِّيَّتِه، وتشملُ بركةُ عبادتِه لهم في الدُّنيا والآخرةِ، بشفاعتِه فيهم، ورفعِ درجتِهم إلى أعلَى درجةٍ في الجنَّةِ لتَقَرَّ عينُه بهم، كما جاءَ في القرآنِ، ووردَتِ السُّنَّةُ به، فالآية دلَّت على أن الوعدَ على العملِ الصالحِ ليس مختصًّا بالآخرةِ، بل يدخلُ فيه أمورُ الدنيا حتى في الذريَّةِ بعدَ موتِ العاملِ.

8- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه أن خِدمةَ الصَّالِحينَ أو من يتعَلَّقُ بهم، أفضَلُ مِن غَيرِها لأنه عَلَّلَ استخراجَ كَنزِهما، وإقامةَ جِدارِهما بأنَّ أباهما صالِحٌ.

9- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فيه أن هذه القَضايا التي أجراها الخَضِرُ، هي قَدَرٌ مَحضٌ، أجراها الله وجعَلَها على يَدِ هذا العَبدِ الصَّالحِ لِيستَدِلَّ العبادُ بذلك على ألطافِه في أقضِيَتِه، وأنَّه يُقدِّرُ على العبدِ أمورًا يَكرَهُها جِدًّا، وهي صلاحُ دِينِه، كما في قَضِيَّةِ الغُلامِ، أو وهي

صَلاحُ دُنياه كما في قَضِيَّةِ السَّفينةِ، فأراهم نَموذجًا مِن لُطفِه وكَرَمِه لِيَعرِفوا ويَرضَوا غاية الرِّضا بأقدارِه المكروهةِ.

10- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ استَدَلَّ به مَن قال بنُبُوَّةِ الخَضِر؛ لأنه يقتضي أنَّه أُوحِيَ إليه، وهو مِن أوضَحِ ما يُستدلُّ به على نُبُوَّتِه. ثم تنتقل الآيات إلى سؤال آخر من الأسئلة الثلاثة التي سألها كفار مكة لرسول الله بإيعاز من اليهود، وهو السؤال عن الرجل الطَّواف الذي طاف البلاد فذكر الله تعالى قصة أخرى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا فرَغَ اللهُ تعالى مِن قِصَّةِ موسى والخَضِر -عليهما السَّلامُ- التي حاصِلُها أنَّها طَوافٌ في الأرضِ لطَلَبِ العِلمِ عَقَّبَها بقِصَّةِ مَن طاف الأرضَ لطَلَبِ الجِهادِ، وقدَّم الأُولَى إشارةً إلى علوِّ دَرَجةِ العِلمِ لأنه أساسُ كُلِّ سَعادةٍ، وقِوامُ كُلِّ أمر.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ الخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم.. يقول الله سبحانه: "وَيَسْأَلُونَكَ" أي ويَسألُك الكُفَّارُ يا محمد سواء من يهود أو من قريش أو من غيرهم.

﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ عن شَأنِ ذي القَرنَينِ وخَبَرِه وتاريخه والمهمة التي قام بها، ذو القرنين أي: صاحب القرنين هذا لقبه، فمن هو ذو القرنين؟ قال بعضهم: هو الإسكندر المقدوني، الطواف في البلاد، لكن الإسكندر المقدوني كان في مقدونيا في الغرب، وذو القرنين جاب المشرق والمغرب، والإسكندر كان وثنيًا، وكان تلميذًا لأرسطو، وذو القرنين رجل مؤمن كما سنعرف من قصته. وبعضهم قال: الإسكندر

باني الإسكندرية، وقيل إنه شاب من الروم، لكن الله سبحانه وتعالى أبهم اسمه وجعل القصة دون تشخيص، فهذا يعني أنها صالحة لأن تتكرر في أيّ زمان أو في أيّ مكان، كما رأينا في قصة أهل الكهف، وكيف أن الله سبحانه أبهمهم أسماءً، وأبهمهم مكانًا وأبهمهم زمانًا، وأبهمهم عددًا، ليكونوا أُسْوة وقُدْوة للفتيان المؤمنين في أيِّ زمان، وفي أيِّ مكان، وبأيِّ عدد. وقد كان له ذكر في التاريخ، وقد قال اليهود لقريش: اسألوا محمدًا عن هذا الرجل، فإن أخبركم عنه فهو نبي. لماذا سمي بذي القرنين؟ سُميَّ كذلك لأنه وصل إلى مشرق الأرض ومغربها، فله طموح كبير جدًا، وقيل إنه سمي كذلك لأنه كان من بيت كريم الطرفين وقيل إنه انقرض قرنان من الناس وهو حي وقيل إنه إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا، وقيل لأنه أعطي علم الظاهر والباطن، وقيل لأنه ملك فارس والروم. وقيل: معناه ذي الملك الواسع من المشرق والمغرب، فإن المشرق قرن والمغرب قرن، كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم عن المشرق: "حيث يطلع قرن الشيطان"[337]، فيكون هذا كناية عن سعة ملكه، وقيل: ذي القرنين لقوته، ولذلك يعرف أن الفحل من الضأن الذي له قرون يكون أشد وأقوى، وقيل: لأنه كان على رأسه قرنان كتاج الملوك، والحقيقة أن القرآن العظيم لم يبين سبب تسميته بذي القرنين، لكن أقرب ما يكون للقرآن العظيم "المالك للمشرق والمغرب"، وهو مناسب تمامًا، والله تعالى أعلى وأعلم. ورد السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم من القوم ست عشرة مرة، إحداها بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]. وخمس عشرة مرة بصيغة المضارع، كما في:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].
- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 215].

337- الراوي: عبد الله بن عمر - المحدث: أحمد شاكر - المصدر: مسند أحمد. الصفحة أو الرقم: 8/157 - خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 217].
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ [البقرة: 219].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222].
- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 4].
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ثلاث مرات: [الأعراف: 187]، [الأحزاب: 63]، [النازعات: 42].
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83].
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105].

خمسة عشر سؤالًا بالمضارع، إلا أن الجوابَ عليها مختلف، وكلها صادرة عن الله الحكيم، فلا بُدَّ أن يكون اختلاف الجواب في كل سؤال له مَلْحظ، فمن هذه الأسئلة ما جاء من الخصوم، ومنها ما سأله المؤمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبتأمّل الإجابة على هذه الأسئلة نجد منها واحدةً يأتي الجواب مباشرة دون "قُلْ" وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]. وواحدة وردتْ مقرونة بالفاء "فَقُلْ" وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105]. وباقي الأسئلة وردت الإجابة عليها بالفعل "قُلْ"، فما الحكمة في اقتران الفعل بالفاء في هذه الآية دون غيرها؟ قالوا: حين يقول الله سبحانه في الجواب "قُلْ" فهذه إجابة على سؤال سُئِلَهُ رسول الله بالفعل، أي: حدث فعلًا منهم، أما الفاء فقد أتتْ في الجواب على سؤال لم يُسألْهُ، ولكنه سيُسأله مستقبلًا. فقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ سؤال لم يحدث بَعْد، فالمعنى: إذا سألوك فَقُلْ، وكأنه احتياط لجواب عن سؤال سيقع، وأما الحكمة في

أن يـأتي الجـواب فـي قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّـي فَـإِنِّي قَرِيـبٌ﴾ خاليًـا مـن: قُـلْ أو فَقُـلْ، مـع أن "إِذَا" تقتضـي الفـاء فـي جوابهـا؟ الجـواب: لأن السـؤال هنـا عـن الله تعـالى، ويريـد سـبحانه وتعـالى أن يُجيـبهم عليـه بانتفـاء الواسـطة مـن أحـد، لـذلك تـأتي الإجابـة مباشـرة دون واسـطة: ﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّـي فَـإِنِّي قَرِيـبٌ أُجِيـبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ﴾ فلـيس فيها "قل"، بمعنـى أنـه لـيس هنـاك وسـيط بـين العبـد وربـه، فـأي عبـد، مـن أي عـرق، أو جـنس، أو لـون، أو أمـة، غنيًـا كـان أو فقيـرًا، قويًـا أو ضعيفًا، إذا قال: يا رب يجيبه الله عز وجل: لبيك يا عبد.

﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَـن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَـأَتْلُو عَلَـيْكُم مِّنْـهُ ذِكْـرًا﴾ قُـلْ -يـا محمَّـدُ- لِمَـن سـألَك عـن ذي القَـرنَين: قـل سـأتلو علـيكم قرآنـا يوضـح لكـم قصـته، سـأقُصُّ علـيكم بعـضَ أخبـارِه مِمَّـا يكـونُ فيهـا ذِكـرى وعِبـرةٌ وعِظَـةٌ والله سـبحانه وتعـالى ذكـر فـي القـرآن القصـص لتكـون دروسـا وعبـرا وعظـات فقـد قـال سـبحانه: ﴿لَقَـدْ كَـانَ فِـي قَصَصِـهِمْ عِبْـرَةٌ لِّأُولِـي الْأَلْبَـابِ مَـا كَـانَ حَـدِيثًا يُفْتَـرَى وَلَكِـن تَصْـدِيقَ الَّـذِي بَـيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِـيلَ كُـلَّ شَـيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ [يوسـف: 111]. والرسـول فـي هـذه الآيـة كأنــه يقـول لسـائليه: لـن أقـول شـيئا مـن عنـدي، فـالله أوحـى إلـيّ ذكـرا سـأتلوه علـيكم وسـأعطيكم جـواب سـؤالكم مـن القـرآن الكـريم، وأيُّ شـرف بعـد هـذا الشـرف، أن الحـق تبـارك وتعـالى يتـولّى التـأريخ لهـذا الرجـل، ويُؤرّخ لـه فـي قرآنـه الكـريم الـذي يُتلَـى ويُتعبَّـد بـه إلـى يـوم القيامـة والـذي يُتحـدّى بـه، ليظـل ذِكْـره باقيًـا بقـاءِ القـرآن، خالـدًا بخلـوده، ويظـل أثـره فيمـا عمـل أُسْـوة وقُـدْوة لمـن يعمـل مثلـه. أن دَلَّ علـى شـيء فإنمـا يـدلُّ علـى أن العمـل الصـالح مـذكور عنـد الله قبـل أن يُـذكَرَ عنـد الخلـق. فـأيُّ ذكْر أبقى من ذكر الله لخبر ذي القرنين وتاريخه؟

"مِّنْـهُ" أي: بعضًـا مـن ذِكْـره وتاريخـه، لا تاريخـه كلـه. وكلمـة "ذِكْـر" وردت فـي القـرآن الكـريم بمعـان متعـددة، تلتقـي جميعهـا فـي الشـرف والرفعـة، وفـي التـذكُّر والاعتبـار، وإنْ كانـت إذا أُطلقـتْ تنصـرف انصـرافًا أوليًـا إلـى القـرآن، كمـا فـي قولـه تعـالى: ﴿إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الـذِّكْرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَـافِظُونَ﴾ [الحجـر: 9]. وبعـد ذلـك تُسـتعمل فـي أيّ كتـاب أنزلـه الله تعـالى مـن الكتـب السـابقة، كمـا جـاء فـي قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن

﴿قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]. وقد يُطلَق الذكر على الصِّيت والشرف والرفعة وتخليد الاسم، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُون﴾ [الأنبياء:10]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44]. أي: صيت حَسَن وشرف ورفْعة كون القرآن يذكر هذا الاسم، لأن الاسم إذا ذُكِر في القرآن ذاعَ صِيتُه ودَوَّى الآفاق. إذن: فذِكْر ذي القرنين في كتاب الله شرف كبير، وفيه إشارة إلى أن فاعل الخير له مكانته ومنزلته عند الله، ومُجازًى بأنْ يُخلّد ذكره ويبقى صِيته بين الناس في الدنيا.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ إنَّا وطَّأْنا ومهَّدْنا لذي القَرنَينِ المُلكَ في الأرضِ، فأقدَرْناه على ذلك، وقوَّيناه بكَثرةِ الجُنودِ وآلاتِ الحَربِ، وحُسنِ التدبيرِ، وبسْطِ الهَيبةِ، وغيرِ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26] والتمكين: تمهيد الأسباب وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته، أي أننا أعطيناه ملكا عظيما وسلطانا وطيد الدعائم، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب إمكانات يستطيع بها أن يُصرِّف كل أموره التي يريدها، لأنه مأمون على تصريف الأمور على حَسْب منهج الله ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، كما قال تعالى في آية أخرى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]. ومن هذه الآية اختلف المفسرون في كون ذي القرنين

نبيا أو عبدا صالحا: فقال البعض: التمكين في الأرض يكون بالنسبة للأمور الدينية والدنيوية، والتمكين في الدين هو النبوة فاستدلوا بذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ كما استدلوا بقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86] لأن الله تعالى يخاطبه بهذا الكلام. وقال البعض أن التمكين في الأرض لا يكون للأنبياء فقط بل يكون أيضا لأتباع الأنبياء من الصالحين، واستدلوا على ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]. وهذا يدل على أن ذي القرنين ليس بنبي. وقالوا في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86] لا يشترط أن يتم إخباره من قبل الله مباشرة بل قد يكون الإخبار عن طريق نبي كقصة نبي بني إسرائيل إذ قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 154]. أو أن الله سبحانه قد ألهمه فعل ذلك كقوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أم مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7]. فأم موسى لم تكن نبية ولم يوحَ إليها وحيًا ولكن كان إلهامًا من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾: أي: وآتيناه مِن كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إليه مِثْلُه مِن علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ؛ حتَّى يصلَ به إلى مقصودِه مِن فَتحِ الأقاليمِ، وكَسرِ الأعداءِ، والتمكينِ في الأرضِ إلى غيرِ ذلك، جعلَ الله سبحانه وتعالى لكلَّ شيء سببًا، فكل إنسان عليه أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على الله، فهذه القصة ترينا أن ذا القرنين وصل إلى ما وصل إليه، وبلغ مشارق الأرض ومغاربها، ولمع ذكره، وعلا نجمه، وسطع اسمه بين الناس، لا لأنه نام، وقعد، وكسل، بل لأنه أخذ بالأسباب، هذا هو المغزى. أعطيناه أسبابًا يصل بها إلى ما يريد، فما من شيء يريده الله إلا ويجعل له وسيلة مُوصِّلة إليه. أعطيناه كل شيء يحتاج إليه لتثبيت هذا الملك العظيم، يسرنا له كل أسباب الحكم

والفتح والبناء والعمران والسلطان والمتاع وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكّنوا فيه. وقال ابن عباس: أي من كل شيء علما يتسبب به إلى ما يريد، وقيل من كل شيء يحتاج إليه الخلق. وقيل أيضا من كل شيء يحتاجه الملوك من فتح المدائن وقهر الملوك.

﴿**مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ لا يعم كل شيء، لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض. والدليل على هذا أن "كل شيء" بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عليه السلام عن ملكة اليمن سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 23]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السماوات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25]، ومعلوم أنها ما دَمَّرت كل شيء، فالمساكن ما دُمِّرت كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25]. فماذا صنع ذو القرنين؟

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿85﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 85-86]

﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ فسار ذو القرنينِ في طَريقٍ آخذًا بالأسبابِ والوسائِلِ التي تُوصِلُه إلى مَقصودِه، فإنه كان حازمًا، انتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب، لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك انتفع وجال في الأرض وأخذ بالأسباب المعينة له واغتنمها وتوكل على الله، فالتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب فهو اغتنم الفرص المتاحة له من عند الله ثم توكل عليه سبحانه، يعني إذا أراد الإنسان أن يُصبح غنيًا، فالغِنى له سبب، وإذا أراد أن يحتلَّ مكانةً رفيعةً بينَ الناس، فهذه لها سبب، فلكلِّ شيءٍ سبب، فالإنسان الواعي

الفاهم، يأخذ بالأسباب، وبعدئذٍ يُمكّنه الله في الأرض، ولا بد له من الابتلاء قبل التمكين: ولذلك عندما سُئِل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: أندعو ربنا بالتمكين أم الابتلاء؟ فما كان من هذا الإمام إلَّا أن قال: "لا يكون التمكين قبل الابتلاء"، ومن هنا يستفاد أن طالب العلم يجب أن يكون ذا همة عالية ويأخذ بكل الأسباب التي تتهيأ له ويسعى في طلب العلم حتى يبلغه، والرسول صلى الله عليه وسلم كان دوما يرفع همّة أصحابه، ويعلمنا كيف تكون هممنا عالية لا نرضى بالدون إطلاقا، فيقول لنا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسطها وسقفه عرش الرحمن"[338].

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾:

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ **حَمِئَةٍ** أي: عَينٍ ذاتِ حَمْأةٍ، وهو: الطِّينُ الأسوَدُ المُنتِنُ. قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو، ويعقوبُ، وحفصٌ عن عاصمٍ.
2- قِراءةُ **حَامِيَةٍ** أي: عَينِ ماءٍ حارَّةٍ. قرأ بها الباقون [339].

هنا يبدأ السياق القرآني في ذكر أولى رحلات ذي القرنين والتي كانت إلى جهة المغرب، سار ذو القرنَينِ إلى أن بلغَ أقصى موضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه مِن اليابِسةِ مِن الجِهةِ الغَربيَّةِ للأرضِ، فوجد الشَّمسَ تَغرُبُ - في ناظِرَيه - في بحرٍ ذي طينٍ أسودَ مُنتِنٍ، فرآها وكأنَّها تَغرُبُ في ذلك البحرِ. لأن السائر إلى المغرب سوف يصطدم بالبحر، والشمس إذا رآها الرائي وجدها تغرب فيه. هل الشمس تغرب؟ هي تغرب في عين الرائي في مكان واحد، وغروبها بمعنى غيابها عن مرأىَ عيوننا نحن، لأن الشمس لا تغيب أبدًا، فهي دائمًا شارقة غاربة، بمعنى أنها حين تغرب على قوم تشرق على آخرين، لذلك تتعدد المشارق

338- صحيح البخاري.
339- يُنظر: النشر لابن الجزري 314/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: تفسير ابن جرير 374/15، الحجة لابن خالويه ص: 230، معاني القراءات للأزهري 121/2، حجة القراءات لابن زنجلة ص: 428.

والمغـارب. وهـذه أعطتنـا دوام ذكـر الله علـى الألسـنة فـي كـل الأوقـات، فحـين نصـلي نحـن الظهـر مـثلًا يصـلي غيرنـا العصـر، ويصـلي غيـرهم المغـرب وهكـذا، فـالله سـبحانه مـذكور فـي كـل وقـت، فـلا ينتهـي الظهـر لله، ولا ينتهـي العصـر لله، ولا ينتهـي المغـرب لله، بـل لا ينتهـي الإعـلام بواحدة منها طوال الوقت، وعلى مَرِّ الزمن.

﴿**وَجَـدَهَا تَغْـرُبُ فِـي عَـيْنٍ حَمِئَـةٍ**﴾ الحمئـة مؤنـث "حَمَـأ" وهـو الطـين الـلازب الـذي خلـق الله منـه الإنسـان لقولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإنسـان مِـن صَلْصَـالٍ مِّـنْ حَمَـإٍ مَّسْـنُونٍ﴾ [الحجـر: 26]. الحمـأ المسـنون هـو الطـين الـذي اسودّ لكثـرة وجـوده فـي المـاء، فِـي عَـيْنٍ حَمِئَـةٍ أي فـي عـين فيهـا مـاء وهـي أرض البحـر. "حَمِئَـةٍ" أي مسـودة مـن المـاء، لأن المـاء إذا مكـث طـويلًا فـي الأرض صـارت سـوداء، ومعلـوم أنهـا تغـرب فـي هـذه العـين الحمئـة حسـب رؤيـة الإنسـان، وإلَّا فهـي أكبـر مـن الأرض، وأكبـر مـن هـذه العـين الحمئـة، وهـي تـدور علـى الأرض، لكـن لا حـرج أن الإنسـان يخبـر عـن الشـيء الـذي تـراه عينـاه بحسـب مـا رآه. يخبـر الله تعـالى أن ذي القـرنين لمـا وصـل إلـى ذلـك المكـان مـن المغـرب رأى الشمس تغرب في البحر المحيط.

﴿**وَوَجَـدَ عِنـدَهَا قَوْمًـا**﴾ أي عنـد هـذه العـين الحمئـة وهـو البحـر وجـد قَوْمًـا أي أمة من الأمم العظيمة.

﴿**قُلْنَـا يَـا ذَا الْقَـرْنَيْنِ إِمَّـا أن تُعَـذِّبَ وَإِمَّـا أن تَتَّخِـذَ فِـيهِمْ حُسْـنًا**﴾ يـا ذا القَـرنَين، إمَّـا أن تُعَـذِّبَ مَـن أصَـرَّ مـنهم علـى الكُفـرِ، وإمَّـا أن تُحسِـنَ إلـيهم، يعنـي أن الله مكّنـه مـن ذلـك القـوم وخيـره بـين أن يعـذبهم بالقتـل أو بغيـر القتـل وبـين الإحسـان إلـيهم والعفـو عـنهم وهـذا تفـويض لـه مـن الله، ولا يُفـوَّض إلا المـأمون علـى التصـرُّف ﴿إِمَّـا أن تُعَـذِّبَ﴾ ولا بُـدّ أنهـم كـانوا كفـرة أو وثنيـين لا يؤمنـون بـالله، فإمـا أن تأخـذهم بكفـرهم، وإمـا أن تتخـذَ فـيهم حُسْـنًا. لكـن مـا وجـه الحُسْـن الـذي يريـد الله أن يتخـذه؟ يعنـي أنهـم قـد يكونـون مـن أهـل الغفلـة الـذين لـم تصـلهم الـدعوة، فبـيّن لهـم وجـه الصـواب ودلّهـم علـى ديـن الله، فَمـنْ آمـن مـنهم فأحسـن إليـه، ومَـنْ أصـرّ علـى كُفْـره فعذّبـه، إذن: عليـك أن تأخـذهم أولًا بالعِظَـة الحسـنة والبيـان

الواضح، ثم تحكم بعد ذلك على تصرفاتهم. ذو القرنين ملك عاقل، ملك عادل، ويدل لعقله ودينه أنه قال:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿87﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 87-88]

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾: ما كان منه إلا أن وقف إلى جانب العدل، حكمٌ عدل، فيعلن بعد ذلك ذو القرنين عن دستوره في معاملة هؤلاء القوم قائلا: أمَّا مَن ظلَمَ نَفسَه بالإصرارِ على الكُفرِ بعد دَعوتِه للحقِّ، فسوف نُعَذِّبُه، مَن ظَلَمَ بالشرك لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر، والله أعلم، هنا أن المراد به الشرك لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. وسبق أن قلنا: أن الظلم أنواع، أفظعها وأعلاها الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ يعطينا إشارة إلى المهلة التي سيعطيها لهؤلاء، مهلة تمكّنه أن يعِظهم ويُذكِّرهم ويُفهِّمهم مطلوبات دين الله. يعلن أن للمعتدين الضالين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك بالله عز وجل ورفضوا قبول دعوته سبحانه: عذابه الدنيوي وعقابه.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ثُمَّ يَرجِعُ الكافِرُ بعد تعذيبِنا له في الدُّنيا إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا فَظيعًا، هناك عذاب أشدّ في الآخرة يردون إلى ربهم يوم القيامة فيعذبهم عذابا نكرا. والشيء النكر: هو الذي لا نعرفه، ولا عَهْد لنا به أو أُلْفة، لأننا حينما نُعذِّب في الدنيا

نُعذِّب بفطرتنا وطاقتنا، أما عذاب الله في الآخرة فهو شيء لا نعرفه، فظيعا لا نظير له فيما يعرفه البشر وفوق مداركنا وإمكاناتنا.

﴿**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**﴾: وأمَّا مَن آمنَ بعدَ كُفرِه، وعَمِلَ بطاعةِ اللهِ مُخلِصًا له وَحدَه لا شَريكَ له فله في الآخرةِ الجَنَّةُ ثوابًا على إيمانِه وعَمَلِه الصَّالح أي: نعطيه الجزاء الحسن، ومن هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

﴿**وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾ وسنُلطِفُ له القَولَ ونُلينُه في الدُّنيا، ونُعَلِّمُه ما تيسَّرَ تعليمُه مِن الخيرِ، ونُعامِلُه باليُسرِ، ونُحسِنُ إليه، نقول له الكلام الطيب الذي يُشجِّعه ويحْفزه، وإنْ كلَّفناه، كلَّفناه بالأمر اليسير غير الشاق. كانت هذه الإجابة من ذي القرنين إجابة عادلة وكان دستوره دستور الحكم الصالح، فوعد الظالم بأمرين: أنه يعذبه، وأنه يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا. والمؤمن وعده بأمرين: بأن له "الْحُسْنَى"، لكن تأملوا، في حال المشرك بدأ بتعذيبه بعذاب الدنيا قبل الآخرة، بالأدنى قبل الأكبر لعل المذنب يتوب ويرجع إلى مولاه الحق سبحانه ثم ثنى بتعذيب الله، بينما في الحديث عن جزاء المؤمنين فقد بدأ بالجزاء الأخروي، بدأ بثواب الله أولًا ثم بالمعاملة باليسر ثانيًا، والفرق ظاهر لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنة لا شك أنه أفضل وأحب إليه من أن يقال له قول يُسر، وأما الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة وأيسر منه فبدأ به، وأيضًا فالكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر من عذاب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالثاني. الحاكم الصالح رحمة على العباد، إذا تولى الملك الصالح الأمور أعطى كل ذي حقٍ حقه. يُروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يمشي في إحدى طرقات المدينة فوجدَ غلمانًا يلعبون، فلما رأوه وكان شديد الهيبة، تفرقوا وولوا هاربين، إلا غلامًا واحدًا بقي في مكانه، جذب نظرَهُ هذا الموقف الجريء، فقال: "أيها الغلام، لِمَ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: يا أيها الأمير لستَ ظالمًا فأخشى ظلمك، ولستُ مذنبًا فأخشى عقابك، والطريق يسعني ويسعك". فالمؤمن الصالح يجب أن يجد الجزاء الحسن والكرامة عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يجد العقوبة والإيذاء.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿89﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 89-90].

هكذا انتهت رحلة ذي القرنين الأولى وانتقل بنا السياق القرآني للتحدث عن رحلته الثانية والتي كانت في اتجاه المشرق حيث عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة إلى المشرق.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ سار في هذه الرحلة مُتَّبِعًا الأسبابَ التي أعطاه اللهُ إيَّاها إلى أن بلغ أقصى مَوضِعٍ يُمكِنُ سُلوكُه من الجِهةِ الشَّرقيَّةِ للأرضِ، حيث تَطلُعُ الشَّمسُ[340]. قال ابنُ الأنباري: ولا خلافَ بينَ أهلِ العربيَّةِ في أن المَطْلِعَ والمَطْلَعَ كلاهما يُعنى بهما المكانُ الذي تَطلُعُ منه الشَّمسُ. والمقصود بمَطلِعِ الشَّمسِ أي: موضع طلوعها مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي، كما قلنا في مغربها، فهي دائمًا طالعة، لأنها لا تطلع من مكان واحد، بل كل واحد له مطلع، وكل واحد له مغْرب حسب اتساع الأفق، أتبع أولًا السبب إلى المغرب ووصل إلى نهاية الأرض اليابسة مما يمكنه أن يصل إليه ثم عاد إلى المشرق، لأن عمارة الأرض تكون نحو المشرق والمغرب، ولذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "إن اللهَ زوى لي الأرضَ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها. وإنَّ مُلكَ أُمَّتي سيبلغُ ما زُوِيَ لي منها"[341]. دون الشمال والجنوب لأن الشمال والجنوب أقصاه من

340- يُنظر: تفسير الزمخشري 745/2، تفسير ابن كثير 193/5، تفسير السعدي ص: 486، سورة الكهف ص: 129.

341- الراوي: ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم - المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الجامع، الصفحة أو الرقم: 1773 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الشمال، وأقصاه من الجنوب كله ثلج ليس فيه سكان، فالسكان يتبعون الشمس من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق.

﴿**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**﴾ فوجد الشَّمسَ تَطلُعُ على قَومٍ، أمة من الأمم ليس لهم شيءٌ يَستُرُهم منَ الشَّمسِ أي ليس لهم شيءٌ يُظِلُّهم منها، من جَبَلٍ أو شَجَرٍ أو بِناءٍ، معرضون للشمس طوال اليوم، ليس عندهم بناء يضمهم، ولا أشجار تظلهم، ولا دور ولا قصور، لا يحجبهم عن الشمس شيء [342]. قال السعدي: أي: وجدها تطلُعُ على أناسٍ ليس لهم سِترٌ مِن الشَّمسِ، إمَّا لعدَمِ استعدادِهم في المساكِنِ، وذلك لزيادة همجيَّتِهم وتوحُّشِهم، وعَدَمِ تَمدُّنهم، وإمَّا لكون الشَّمسِ دائمةً عندهم، لا تغرُبُ عنهم غروبًا يُذكَرُ. وقيل: تَطلُعُ على قَومٍ ليس عندهم بناءٌ، ولا أشجارٌ ظَليلةٌ ولا دُورٌ ولا قصورٌ، أي أن الأرض منبسطة مستوية مكشوفة، وبعضُ العلماءِ بالغَ حتى قال: وليس عليهم ثيابٌ، لأن الثيابَ فيها نوعٌ مِن السَّترِ، السِّتْر: هو الحاجز بين شيئين، وهو إما ليقي الحر أو ليقي البرد، المهِمُّ أن الشَّمسَ تَحرِقُهم. وممن ذكَر أنَّهم قومٌ عراةٌ لا لباسَ لهم: السمرقندي، والواحدي، والشوكاني [343]. وقال الحسن في قول الله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: "إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم"[344]. وقال قتادة: "ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم، فقد ذهب ذو القرنين إلى قومٍ متأخرين بدائيين غير متحضرين يعيشون عراة كبعض القبائل في وسط أفريقيا مثلًا، هؤلاء قوم نسميهم "ضاحين" أي: ليس لهم ما يأويهم من حَرِّ الصيف أو بَرد الشتاء، ومثل هؤلاء يعطيهم الله تعالى في جلودهم ما

342- يُنظر: تفسير ابن جرير 381/15، تفسير السمرقندي 361/2، الوجيز للواحدي ص: 671، تفسير ابن كثير 194/5، تفسير الشوكاني 365/3.

343- يُنظر: تفسير السمرقندي 361/2، الوجيز للواحدي ص: 671، تفسير الشوكاني 365/3 تفسير السعدي ص: 486.

344- أخرجه أبو داود الطيالسي عن الحسن البصري.

يُعوِّضهم عن هذه الأشياء التي يفتقدونها، عوضهم في جلودهم ما يمنحهم الدفء في الشتاء والبرودة في الصيف.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91]

﴿كَذَلِكَ﴾ يعني الأمر كذلك على حقيقته، كما ذهب للمغرب ذهب للمشرق وكذلك مكناه من القوم عند مطلع الشمس كما مكنّاه من القوم الذي وجدهم عند مغربها.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ كذلك وقد أحاط عِلْمُنا بما عِندَ ذي القرنَينِ من شيءٍ، أي قد علمنا علم اليقين بكل ما لديه من وسائل الملك وامتداده والقُوَّة، فلم يخْفَ علينا شيءٌ مِن ذلك [345].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ إلى آخرِ الآيات: الاعتبارُ بتخليدِ جميلِ الثَّناءِ، وجليلِ الآثارِ، فإنَّ مَن أنعَمَ النَّظَرَ فيما قُصَّ عنه في هذه الآيات الكريمةِ يتَّضِحُ له جَليًّا حُسنُ سجاياه، وسموُّ مزاياه: من الشَّجاعةِ، وعلوِّ الهِمَّةِ، والعِفَّةِ، والعدلِ، ودأبِه على توطيدِ الأمنِ، وإثابتِه المحسنينَ، وتأديبِه للظَّالمينَ، والإحسانِ إلى النَّوعِ البشري، لا سيَّما في زمانٍ كان فيه أكثَرُ عوائِدِ وأخلاقِ الأُمَمِ -المتمَدِّنةِ وغيرِ المتمَدِّنةِ- وحشيةً فاسدةً [346].

345- ينظر: تفسير ابن جرير 384/15، تفسير البغوي 213/3، تفسير البيضاوي 292/3، تفسير ابن كثير 194/5، تفسير السعدي ص: 486، تفسير ابن عاشور 30/16.
346- ينظر: تفسير القاسمي 69/7.

2- قَولُ الله تعالى: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ جعل خبَرَ ذي القَرنَينِ تِلاوةً وذِكرًا للإشارةِ إلى أن المُهمَّ مِن أخبارِه ما فيه تذكيرٌ، وما يَصلُحُ لأن يكونَ تلاوةً حَسَب شأنِ القُرآنِ، فإنَّه يُتلَى لأجلِ الذِّكرِ، ولا يُساقُ مَساقَ القَصَصِ، لذا لم يتَجاوَزِ القرآنُ ذِكْرَ هذا الرَّجلِ بأكثرَ مِن لقَبِه المشتهِرِ به إلى تعيينِ اسمِه وبلادِه وقومِه، لأن ذلك مِن شُؤونِ أهلِ التَّاريخِ والقَصصِ، وليس مِن أغراضِ القرآنِ، فكان مِنه الاقتصارُ على ما يُفيدُ الأُمَّةَ مِن هذه القِصَّةِ عِبرةً حُكميَّةً أو خُلقيَّةً، فلِذلك قال الله: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [347].

3- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ الاعتبارُ برفعِ الله بعضَ النَّاسِ دَرَجاتٍ على بَعضٍ، ورِزقِه من يشاءُ بغيرِ حِسابٍ -مُلكًا ومالًا- لِما له مِن خَفِيِّ الحِكَمِ، وباهِرِ القُدرةِ، فلا إلهَ سِواه.

4- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿85﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ الإشارةُ إلى القيامِ بالأسبابِ، والجريِ وراءَ سُنَّةِ الله في الكَونِ مِن الجِدِّ والعَمَلِ، وأنَّ على قَدْرِ بَذلِ الجُهدِ يكونُ الفوزُ والظَّفَرُ، فإنَّ ما قُصَّ عن ذي القرنينِ مِن ضَرْبِه في الأرضِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ ومَطلِعِها وشِمالها، وعَدَمِ فُتورِه، ووجدانِه اللَّذَّةَ في مواصلةِ الأسفارِ، وتجَشُّمِ الأخطارِ، وركوبِ الأوعارِ والبِحارِ، ثمَّ إحرازِه ذلك الفَخارَ -الذي لا يُشَقُّ له غُبارٌ- أكبَرُ عبرةٍ لأولي الأبصارِ [348].

5- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿87﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أن مَن قدَرَ على أعدائِه وتمكَّن منهم فلا ينبغي له أن تُسكِرَه لذَّةُ السُّلطةِ بسَوقِهم بعَصا

347- ينظر: تفسير ابن عاشور 18/16.
348- نفس المصدر السابق.

الإذلال وتجريعِهم غُصَصَ الاستعبادِ والنَّكال، بل يعامِلُ المحسِنَ بإحسانِه والمسيءَ بقَدرِ إساءتِه، فإنَّ ما حُكِيَ عن ذي القرنينِ مِن قَولِه هو نهايةُ في العدلِ، وغايةُ في الإنصافِ [349] فوعَدَ الظَّالِمَ بأمرَينِ: أنَّه يُعذِّبُه، وأنَّه يُرَدُّ إلى رَبِّه، فيُعَذِّبُه عذابًا نُكرًا، والمؤمِنُ وَعَده بأمرينِ: بأنَّ له الحُسنَى، وأنَّه يُعامِلُه بما فيه اليُسرُ والسُّهولةُ، لكِنْ تأمَّلْ في حالِ المشركِ، بدأ بتعذيبِه ثم ثَنَّى بتعذيبِ الله، والمؤمنُ بدأ بثوابِ اللهِ أولًا، ثمَّ بالمعاملةِ باليُسْرِ ثانيًا، والفرقُ ظاهرٌ لأن مقصودَ المؤمنِ الوصولُ إلى الجنَّةِ، والوصولُ إلى الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّه أفضَلُ وأحَبُّ إليه مِن أن يُقالَ له قَولٌ يُسْرٌ، وأمَّا الكافرُ فعذابُ الدُّنيا سابقٌ على عذابِ الآخرةِ وأيسرُ منه، فبدأَ به، وأيضًا فالكافرُ يخافُ مِن عذابِ الدُّنيا أكثرَ مِن عذابِ الآخرةِ، لأنه لا يؤمِنُ بالثَّاني.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿92﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 92-93]

ننتقل بعد ذلك إلى رحلة ذي القرنين الثالثة والأخيرة. يقول تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ثمَّ سار ذو القرنينِ في طريقٍ ثالثٍ آخِذًا بالطُّرُقِ والأسبابِ والوسائِلِ التي منَحْناها إيَّاه، لِيَبلُغَ الجِهةَ التي يُريدُها، قال البقاعي: ثُمَّ أَتْبَعَ في إرادتِه ناحيةَ السَّدِّ مَخرج يأجوجَ ومأجوجَ سَبَبًا مِن جِهةِ الشِّمالِ. وقال ابن عاشور: يظهَرُ أن هذا السَّبَبَ اتَّجَه به إلى جِهةٍ غيرِ جِهتَي المغربِ والمَشرِقِ، فيُحتَمَل أنَّها الشِّمالُ أو الجَنوب [350].

349- نفس المصدر السابق.
350- يُنظر: تفسير ابن جرير 384/15، البسيط للواحدي 139/14، تفسير ابن كثير 195/5، تفسير ابن عاشور 31/16. نظم الدرر 133/12.

﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**﴾ حتى إذا وصل ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، مَوضِعًا بين جبَلَينِ، فالسد: هو الحاجز بين شيئين، والحاجز قد يكون أمرًا معنويًا، وقد يكون طبيعيًا محسوسًا كالجبال، فالمراد بالسدين هنا جبلان بينهما فجوة، وما دام قد قال: ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ فالبَيْن هنا يقتضي وجود فجوة بين السدين يأتي منها العدو. السَّدَّان هما جبلان عظيمان يَحُولان بين الجهة الشرقية من شرق آسيا، والجهة الغربية، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك.

﴿**وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**﴾:

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ **يُفْقِهُونَ** بضَمِّ الياءِ، وكَسرِ القافِ، أي: لا يَكادونَ يُفهِمونَ أحدًا إذا نَطَقوا. قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ.
2- قِراءةُ **يَفْقَهُونَ** بفَتحِ الياءِ والقافِ، أي: لا يَكادونَ يَفهمونَ ما يُقالُ لهم قرأ بها الباقون [351].

قال ابنُ جرير: القومُ الذين أخبَرَ الله عنهم هذا الخبَرَ جائِزٌ أن يكونوا لا يَكادونَ يَفقَهونَ قَولًا لِغَيرِهم عنهم، فيكونُ صوابًا القراءةُ بذلك، وجائِزٌ أن يكونوا مع كَونِهم كذلك كانوا لا يَكادونَ أن يُفقِهوا غَيرَهم لعِلَلٍ: إما بألسِنَتِهم، وإمَّا بمَنطِقِهم، فتكونُ القراءةُ بذلك أيضًا صوابًا [352].

﴿**وَجَدَ مِن دُونِهِمَا**﴾ قال البعض أي: تحتهما، وقال غيرهم وراءهما ومنهم من قال أمامهما والله تعالى أعلى وأعلم.

﴿قَوْمًا﴾ قيل: إنهم الأتراك.

351- يُنظر: النشر لابن الجزري 315/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: الحجة لابن خالويه ص: 231، حجة القراءات لابن زنجلة ص: 432.
352- تفسير ابن جرير 388/15.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وفيها قراءتان: ﴿لَّا يَكَادُونَ يُفْقِهُونَ قَوْلًا﴾ و﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾. والفرق بينهما ظاهر: لا يَفْقَهُونَ يعني هم، لا يُفْقِهُونَ أي: غيرهم، يعني هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم. أي: لا يعرفون الكلام، ولا يفقهون القول، لأن الذي يقدر أن يفهم يقدر أن يتكلم، وهؤلاء لا يقولون كلامًا، ولا يفهمون ما يُقَال لهم، قومًا ضعافًا فقراء متخلفين، بعيدين عن الحضارة، والعلم والقيم، لا يفقهون كلام ذي القرنين ولا يفهمون لهجته. وفي بعض التفاسير: لهم لغة غريبة لا يفهمونها. ومعنى: "لَا يَكَادُونَ" لا يقربون من أن يفهموا، فلا ينفي عنهم الفَهْم، بل مجرد القُرْب من الفهم، وكأنه لا أملَ في أن يفهمهم. لكن، كيف نفى عنهم الكلام، ثم قال بعدها مباشرة: ﴿قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ فأثبت لهم القول.

﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ وحينئذٍ يقع إشكال: كيف يكونون ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ثم ينقل عنهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح فصيح: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾؟ والجواب عن هذا سهل جدًا، وهو أن ذا القرنين أعطاه الله تعالى ملكًا عظيمًا، وعنده من المترجمين ما يُعرف به ما يريد، وما يَعرف به ما يريد غيره، أو قد يكون الله عزّ وجل قد ألهمه لغة الناس الذين استولى عليهم كلِّهم، المهم أنهم خاطبوا ذا القرنين بخطاب واضح ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾، نادوه بلقبه تعظيمًا له. وقيل يبدو أنه خاطبهم بلغة الإشارة، واحتال على أن يجعلَ من حركاتهم كلامًا يفهمه وينفذ لهم ما يريدون، فهو مثال للرجل المؤمن الحريص على عمل الخير، والذي لا يألو جَهْدًا في نَفْع القوم وهدايتهم. والإشارة أصبحت الآن لغة مشهورة ومعروفة، ولها قواعد ودارسون يتفاهمون بها، كما نتفاهم نحن الآن مع الأخرس.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: 94]

هؤلاء القوم الضعاف توسموا في ذي القرنين الخير والصلاح والقوة فعرضوا عليه أن يقيم لهم سدا. قالوا يا ذا القَرنَينِ، أن يأجوجَ ومأجوجَ قومٌ خَلْفَ السدين أو الجبلين يَخرُجونَ مِن بينِ السَّدَّينِ، فيُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والتَّخريبِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإفسادِ، وذهب ابنُ جريرٍ إلى أن المعنى: أن يأجوجَ ومأجوجَ سيُفسِدونَ في الأرضِ، ولم يقَعْ منهم إفسادٌ في الأرضِ، وإنما ذلك سيكونُ في آخِرِ الزَّمانِ[353]. وقيل اسم يأجوج ومأجوج مأخوذ من مادة النار لأننا إذا أشعلنا النار نقول تأججت النار. وقيل أُخِذ اسمهم من ذلك لشدة وكثرة شرهما وفسادهما. وهاتان قبيلتان من بني آدم كما صح ذلك عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "يقولُ اللهُ تعالى: يا آدَمُ، فيقولُ: لبَّيك وسَعدَيك، والخيرُ في يَدَيك، فيقولُ: أخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعثُ النَّارِ؟ قال: مِن كُلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتِسعةً وتسعينَ. فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَملٍ حَمْلَها، وترى النَّاسَ سُكارى وما هم بسُكارى، ولكِنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأيُّنا ذلك الواحِدُ؟ قال: أبشِروا، فإنَّ منكم رجُلًا، ومِن يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا. ثمَّ قال: والذي نَفسي بِيَدِه، إنِّي أرجو أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنَّةِ فكَبَّرْنا، فقال: أرجو أن

353- يُنظر: تفسير البيضاوي 293/3، نظم الدرر للبقاعي 134/12، تفسير الألوسي 360/8، تفسير السعدي ص: 486 تفسير ابن جرير 401/15.

تكونوا نِصفَ أهلِ الجنَّةِ فكَبَّرْنا، فقال: ما أنتم في النَّاسِ إلَّا كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جِلدِ ثَورٍ أبيَضَ، أو كشَعرةٍ بَيضاءَ في جِلدِ ثَورٍ أسوَدَ"[354].
وبهذا نعرف خطأ من قال: إنهم ليسوا على شكل الآدميين وأن بعضهم في غاية ما يكون من القِصَر، وبعضهم في غاية ما يكون من الطول، وأن بعضهم له أذن يفترشها، وأذن يلتحف بها وما أشبه ذلك، كل هذا من خرافات بني إسرائيل، ولا يجوز أن نصدقه، بل يقال: إنهم من بني آدم، لكن قد يختلفون كما يختلف الناس في البيئات، فتجد أهل خط الاستواء بيئتهم غير بيئة الشماليين، فكلٌ له بيئة، الشرقيون الآن يختلفون عن أهل وسط الكرة الأرضية، فهذا ربما يختلفون فيه، أما أن يختلفوا اختلافًا فادحًا كما يذكر، فهذا ليس بصحيح.

﴿**مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**﴾: الإفساد في الأرض يعم كل ما كان غير صالح، وغير أصلح، إن يأجوج ومأجوج أشرار متحاربون مفسدون، يفسدون في القتل وفي النهب وفي الانحراف وفي الشرك وفي كل شيء، معتدون يأتون إلينا، ويقتلون أبناءنا، وينهبون ثروتنا ويأخذون محاصيلنا، المهم أنهم يحتاجون إلى أحد يحميهم من هؤلاء.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ **خَرَاجًا** بألِفٍ، وهو الذي يُؤخَذُ على الأرضِ في كُلِّ عامٍ مِن الضرائِبِ، فكأنَّهم قالوا: فهل نجعَلُ لك أجرةً مَعلومةً نُؤدِّيها إليك كلَّ سَنةٍ، على أن تبنيَ بيننا وبينهم سدًّا؟ قرأ بها حمزةُ، والكسائي، وخلفٌ.
2- قراءةُ **خَرْجًا** بغيرِ ألِفٍ، أي: جُعْلًا، فكأنَّهم قالوا: نجعَلُ لك جُعْلًا ندفَعُه إليك الآن مِن أموالِنا مَرَّةً واحِدةً، على أن تبنيَ بيننا وبينهم

354- رواه البخاري 3348 واللفظ له، ومسلم 222.

سَـدًّا؟ قـرأ بهـا البـاقون [355]. وقيـل: الخـرجُ والخـراجُ بمعنًـى واحدٍ، عرضوا عليه أن يجعلوا له ﴿خَرْجًا﴾.

هـل نجعَـلُ لـك -يـا ذا القَـرنَينِ- أُجـرةً أو جُعـلًا مِـن أموالِنـا علـى أن تبنـيَ لنـا حـاجِزًا بيننـا وبـين يـأجُوجَ ومـأجوجَ، فـلا يُمكِـنَهم الوصـولُ إلينـا؟ أي: يعطـوه شـيئًا أجـرًا وخراجًـا يدفعونـه إليـه علـى أن يسدَّ لهـم هـذه الفجـوة، هـل تقبـل أن نعطيـك مـالًا وفيـرًا، فـي نظيـر أن تقيم سـدًا حـاجزًا بـين الجبلين لتمنـع هـذه الغـزوات، أي ببنـاء سـور يعمـل حـاجزًا فـلا ينفـذ إليهم أعـداؤهم. وهـذا لا يقـال إلَّا لشـخصٍ لا يسـتطيع، لكـنهم قـالوا ذلـك خوفًـا مـن أن يـرد طلـبهم، يريـدون أن يقيمـوا عليـه الحجـة بـأنهم أرادوا أن يعطـوه شـيئًا يحمـيهم بـه مـن هـؤلاء، ومـن حكمتـه سـبحانه أنـه جعـل ذي القـرنين يفهـم لغـتهم ومـرادهم ففهـم علـى لسـانهم أنهـم يريـدون منـه أن ينقـذهم مـن هـؤلاء القـوم الجبـابرة وذلـك فـي مقابـل خـراج وعطـاء مـن المـال يجمعونـه لـه مـن بيـنهم [356]. أجـاب ذو القـرنين بكـل عفـة وصـلاح على اقتراحهم قائلا:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]

قـال ذو القَـرنَينِ: مـا أعطانيـه رَبِّـي مِـن التَّمكـينِ والمُلـكِ والعلـمِ والقُـوَّةِ والقُدرةِ والمـالِ الـذي بَسَطَه لـي ربِّـي خَيـرٌ لـي مِن مـالِكم الـذي تَعرِضـونَه علـيَّ، وهـذا كقـول سـليمان عليـه الصـلاة والسـلام فـي هديـة ملكـة سـبأ، قـال: ﴿قَـالَ أَتُمِـدُّونَنِ بِمَـالٍ فَمَـا آتَـانِيَ اللَّهُ خَيْـرٌ مِّمَّـا آتَـاكُم بَـلْ أَنـتُم بِهَـدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُـونَ﴾ [النمـل: 36]. وهـذا مـن اعتـراف الإنسـان بـنعم ربـه عـزّ وجـل

355- يُنظر: النشر لابن الجزري 315/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: الحجة لابن خالويه ص: 231، الكشف المكي 78/2، تفسير الرسعني 365/4.
356- ينظر: تفسير ابن جرير 402/15، 403، تفسير البغوي 216/3، تفسير الخازن 178/3، تفسير ابن كثير 196/5، تفسير السعدي ص: 486.

التي لا يحتاج معها إلى أحد. ولما كان ذو القرنين ممكّنًا في الأرض فعنده الكثير من الخيرات والأموال التي أعطاه الله، فهو في حاجة لا إلى مال بل إلى الطاقة البشرية العاملة.

﴿**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾ بقوة بدنية لا بقوة مالية، بحاجة إلى قوة وطاقة بشرية قوية مخلصة عاملة تُعِينه، وتقوم معه بتنفيذ هذا العمل، فأعينوني برِجالٍ أقوياءَ منكم أجعَلْ بينكم وبينهم سَدًّا مَنيعًا، قال الواحدي: ﴿الردم: سَدُّ البابِ والثُّلمةِ﴾ وقال النحاس: الرَّدمُ في اللغة أكثَرُ مِن السَّدِّ؛ لأنه شيءٌ مُتكاثِفٌ بَعضُه على بعضٍ [357]. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ولم يقُلْ: سدًا، يعني أكبر مما سألوا، هم سألوا سدًا، ولكنه قال ردمًا، يعني أشد من السد لأن السدّ الأصمَّ يعيبه أنه إذا حصلت رَجَّة مثلًا في ناحية منه ترجّ الناحية الأخرى، لذلك أقام لهم ردمًا أي: يبني حائطًا من الأمام وآخر من الخلف، ثم يجعل بينهما ردمًا من التراب ليكون السد مَرِنًا لا يتأثر إذا ما طرأت عليه هزة أرضية مثلًا، فيكون به التراب مثل "الزنبرك" الذي يمتص الصدمات. والردم وضع طبقات التراب فوق بعضها، حتى تردم حُفْرة مثلًا وتُسوّى بالأرض. نتأمل مواقف هذا الملك الصالح: الموقف الأول لهذا الملك الصالح: إقامة العدل. والموقف الثاني: ترفعه عن أموال الناس بقوله ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ يُغنيني ما أعطاني ربي من ملك وسلطان ومال ولست بحاجة إلى أموالكم ولا أريد أن أرهقكم.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96]

357- يُنظر: تفسير ابن جرير 403/15، البسيط للواحدي 147/14، تفسير ابن كثير 196/5، نظم الدرر للبقاعي 136/12، تفسير الشوكاني 369/3، الوسيط 167/3، معاني القرآن 293/4، تفسير الرازي 499/21، تفسير البيضاوي 293/3.

﴿**آتُونِي**﴾: أعطوني وناوِلوني قِطَعَ الحَديدِ الضَّخمةَ، قولُه: آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ لا ينافي ردَّ خراجِهم، لأن المرادَ مِن الإيتاءِ المأمورِ به: الإيتاءُ بالثمنِ أو مجردِ المناولةِ والإيصالِ، لا الخَراج على العملِ، ولأنَّ إيتاءَ الآلةِ مِن قبيلِ الإعانةِ بالقوةِ، وعلى تسليمِ كونِ الإيتاءِ بمعنَى الإعطاءِ لا المناولةِ يقالُ: أن إعطاءَ الآلةِ للعملِ لا يلزمُه تملكُها. قال القرطبي: أمَرهم بنَقْلِ الآلةِ، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاءُ العطِيَّةِ الَّتي بغيرِ معنَى الهبةِ، وإنَّما هو استدعاءٌ للمناولةِ، لأنه قد ارتَبَط مِنْ قولِه: أنَّه لا يأخذُ منهم الخرجَ، فلم يَبْقَ إلَّا استدعاءُ المناولةِ، وأعمالُ الأبدانِ[358].

﴿**زُبَرَ الْحَدِيدِ**﴾: الزُّبَر يعني قطع الحديد الكبيرة ومفردها زُبْرة، فجمعوا الحديد وجعلوه يساوي الجبال، وهذا يدل على القوة العظيمة في ذلك الوقت، يعني أرتال من الحديد، تجمع حتى تساوي الجبال الشاهقة العظيمة. والحديد معروف أنه إذا أوقد عليه في النار يكون نارًا، تكون القطعة كأنها جمرة، بل هي أشد من الجمرة.

﴿**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**﴾ يعني جانبي الجبلين. الصدف: الجانب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157] أي: مال عنها جانبًا. أي: فلمَّا جاءوه بقِطَعِ الحَديدِ الكَبيرةِ، بدأ يرص كتل الحديد من الأسفل إلى الأعلى إلى أن اقترب من النهاية وغطَّى بها ذو القَرنَينِ المَنفَذَ بينَ الجبَلَينِ حتَّى حاذَى بذلك البناءِ رُؤوسَهما وأصبح الركام بمساواة القمتين، تساوى الحائطان الأمامي والخلفي بالجبلين، قال للعُمَّالِ:

﴿**قَالَ انْفُخُوا**﴾ يعني انفخوا على هذا الحديد الذي أشعل فيه وليس المراد بأفواههم، لأن هذا لا يمكن، انفُخوا النَّارَ بالآلاتِ والمعدات التي عنده على قِطَعِ الحديدِ، لأن الله أعطاه ملكًا عظيمًا، فكان يضع الحطب بين كتل الحديد حتى ينصهر هذا الأخير، وهنا يطلب منهم

358- ينظر: تفسير القرطبي 60/11-61، تفسير البيضاوي 293/3، تفسير الشوكاني 369/3، تفسير الألوسي 361/8، تفسير السعدي ص: 486. تفسير أبي السعود 245/5.

إيقاد النار، قال الواحدي: الصَّدَفانِ: الجَبلانِ، في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ [359].

﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي: فنَفَخوا حتى جعل ذو القَرنَينِ الحديدَ نارًا، التهب الحديد وانصهر كليا وصار كالنار لتوهجه وشدة احمراره، فقال:

﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾: طلب أن يؤتوه قِطرًا يفرغه عليه والقِطر هو النحاس المذاب، أعطوني نُحاسًا ذائِبًا أَصُبَّه على الحديدِ المُحْمَى، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ: 12]، يعني النحاس أساله الله تعالى لسليمان، بدل ما كان معدنًا قاسيًا يحتاج إلى إخراج بالمعاول أسال الله له عين القطر كأنها ماء. سبحان الله، أراد أن يصب النحاس المنصهر فوقه ليزيد صلابة بنائه حتى لا يستطيع يأجوج ومأجوج خرقه فأفرغ عليه القِطر "النحاس" فاشتبك النحاس مع قطع الحديد، انسبكَ الحديد الملتهب مع النحاس المذَاب، فكان قويًا، أصبح حائطًا صَلْبًا عاليًا أملس. فهو في منتهى القوة، لأنه من مواد متماسكة، مسلحة بالحديد، مصانة بالنحاس، هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة، لكنه استخدم الحديد، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه، وليكون أملسَ ناعمًا فلا يتسلقونه، ويعلُون عليه. لذلك قال تعالى بعدها:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]

﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: فلم يَقدِرْ يأجوجُ ومأجوجُ على صعودِ ذلك الرَّدمِ أو يتسلقوه وينفذوا من أعلاه فيَنزِلوا منه على النَّاسِ، لارتفاعِه ومَلاستِه،

359- يُنظر: تفسير ابن جرير 406/15، 408، تفسير القرطبي 61/11، 62، تفسير ابن كثير 196/5، تفسير السعدي ص: 486، البسيط 149/14.

عـالٍ نـاعم أملـس، لـيس بـه مـا يمكـن الإمسـاك بـه. فهـو مُسـتوٍ مـع الجَبَـلِ، والجبَلُ عال.

﴿**وَمَـا اسْـتَطَاعُواْ لَـهُ نَقْبًـا**﴾ أي: ولـم يَقْـدِروا علـى خَـرقِ ذلـك الـرَّدمِ مِـن أسفَلِه خَرقًا يَنفُذُ بهـم إلـى الجِهـةِ الأُخـرى أو يثقبـوه ويـدخلوا علـى هـؤلاء القـوم الضـعاف، وذلـك لإحكـامِ بنائِـه، وصَـلابتِه ومتانتـه وشِـدَّتِه. فسـر العلمـاء قولـه فـي المـرة الأولـى "اسْـطَاعُوا"، وهـو الصـعود إلـى أعـلاه والثانيـة "اسْـتَطَاعُوا" وهـو أشـق مـن ذلـك، فقابـل كـلًا بمـا يناسـبه لفظًـا ومعنـى، بـان التسـلق علـى السـد والظهـور عليـه أسـهل مـن الثقـب، فلـم تـأتِ التـاء فـي الفعـل الأول "اسـطاعوا" وأتـت فيـه ثانيًـا، وزيـادة المبنـى تـدل علـى زيـادة المعنـى، أيهمـا أشـق أن يصـعدوا الجبـل أو أن يَنقبـوا هـذا الحديـد؟ الجـواب: الثـاني أصـعب ولهـذا قـال: وَمَـا اسْـتَطَاعُوا لَـهُ نَقْبًـا، لأنـه حديـــد ممســـوك بالنحـــاس، فصـــاروا لا يســـتطيعون ظهـــوره لعلـــوه وملاسـته، فيمـا يظهـر، ولـم يسـتطيعوا لـه نقبًـا لصـلابته وقوتـه، إذن صـار سـدًا منيعًـا وكفـى الله شـر هـؤلاء المفسـدين وهـم يـأجوج ومـأجوج. وقـد صـح عـن النبـي صـلّى الله عليـه وسلّم أنـه قـال: "وَيْـلٌ لِلْعَـرَبِ مِـنْ شَـرٍّ قَـدِ اقْتَـرَبَ، فُـتِحَ الْيَـوْمَ مِـنْ رَدْمِ يَـأْجُوجَ وَمَـأْجُوجَ مِثْـلُ هَـذِهِ وَحَلَّـقَ بِإِصْـبَعِهِ الإِبْهَـامِ وَالَّتِـي تَلِيهَـا" [360]. يعنـي شـيء يسـير. لكـن مـا ظهـر فيـه الشـق لا بـد أن يتوسـع. وعـن أبـي هُريـرةَ رَضِـيَ اللهُ عنـه، عـن رَسـولِ الله صـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّم قـال: "إنَّ يـأجوجَ ومـأجوجَ لَيَحفِـرونَ السَّـدَّ كُـلَّ يَـومٍ، حتـى إذا كـادُوا يَـرَونَ شُـعاعَ الشَّـمسِ، قـال الـذي علـيهم: ارجِعـوا فسـتَحفِرونَه غَـدًا، فيَعـودونَ إليـه كأشَـدِّ مـا كـان، حتـى إذا بلَغَـت مُـدَّتُهم[361] وأراد اللهُ أن يبعَـثَهم علـى النَّـاسِ، حَفَـروا، حتـى إذا كـادوا يَـرَونَ شُـعاعَ الشَّـمسِ، قـال الـذي علـيهم: ارجِعـوا فسـتَحفِرونَه غَـدًا إن شـاء اللهُ، ويَسـتَثني، فيعـودونَ إليـه وهـو كهيئَتِـه حـين ترَكـوه، فيَحفِرونَـه ويَخرُجـونَ علـى النَّـاسِ، فيُنَشِّـفونَ الميـاهَ، ويتحَصَّـنُ النَّـاسُ مـنهم فـي حُصـونِهم، فيَرمُـونَ بسِـهامِهم إلـى السَّـماءِ، فترجِـعُ وعليهـا كهيئـةِ الـدَّمِ. فيقولـون: قَهَرْنـا أهـلَ الأرضِ،

360- الراوي: زينب أم المؤمنين - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 3346 - خلاصة حكم المحدث صحيح.
361- أي: أدركوا المدَّةَ التي قُدِّرَت لهم. يُنظر: تحفة الأحوذي للمباركفوري 474/8.

وعَلَونا أهلَ السَّماءِ، فيَبعَثُ الله عليهم نَغَفًا [362] في أقفائِهم فيَقتُلُهم بها، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: والذي نَفسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، إن دوابَّ الأرضِ لَتَسمَنُ وتَشكَرُ شَكَرًا[363] مِن لُحومِهم ودمائِهم" [364]. وهكذا لم يكن ذو القرنين رجلًا رحالة، يسير هكذا بمفرده، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات، معه رجال وعمال، معه القوت ولوازم الرحلة، وكان بمقدوره أن يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل لِيُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7]. فما دام الله قد أعطى للإنسان قوة فعليه أن يعمل، ولا يعتمد على الآخرين، لذلك نجد هنا أوامر ثلاثة: أعينوني بقوة، آتوني زبر الحديد، آتوني أفرغ عليه قطرًا. ماذا قال بعد أن بنى هذا السد العظيم؟ لم يَفُتْ ذا القرنين، وهو الرجل الصالح، أن يسند النعمة إلى المنعم الأول، وأنْ يعترف بأنه مجرد واسطة وأداة للتنفيذ. نظر إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه البطر والغرور ولم تسكره نشوة القوة والعلم بل شكر الله وحمده ورد إليه الأمر كله فقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ لأنني أخذتُ المقوّمات التي منحني الله إياها، واستعملتها في خدمة عباده. قالها ذو القرنين وهكذا عباد الله الصالحين، لا يسندون ما يعملونه إلى أنفسهم، ولكنهم يسندونه إلى الله عزّ وجل وإلى فضله، ولهذا لما قالت النملة حين أقبل سليمان بجنوده على وادي النمل، قامت خطيبة فصيحة ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 18-19]، أيضًا ذو القرنين رحمه الله قال:

362- النَّغفُ: دودٌ يكونُ في أنوفِ الإبلِ والغنمِ. يُنظر: شرح النووي على مسلم 69/18.
363- أيْ: تسمَنُ وتمتلئُ شحْمًا. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير 494/2.
364- أخرجه الترمذي 3153، وابن ماجة 4080، وأحمد 10632 واللفظ له. وأخرجه ابنُ حبَّان في صحيحه 6829، وأنَّ له طريقًا آخرَ موقوفًا على أبي هريرةَ. وصحَّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة 4080.

﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وليس بحولي ولا قوتي، ولكنه رحمة به ورحمة بالذين طلبوا منه السد، أن حصل هذا الردم المنيع.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ هذا السد سيظل قائما إلى أن يقترب وعد الله.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ الذي وقَّتَه لخُروجِ هؤلاء المفسدين يأجوجَ ومأجوجَ مِن وَراءِ هذا الرَّدْمِ، أي: الآخرة وقيام القيامة، آنذاك يجعله المولى دكًّا، يجعَلَ اللهُ هذا الرَّدمَ مُنهَدِمًا مُستَوِيًا بالأرضِ. كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿96﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: 96- 97].

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ واقعًا لا شَكَّ فيه. فما هو هذا الوعد؟ وَعدُ اللهِ عِبادَه بخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ في آخرِ الزَّمانِ وغيرِ ذلك مِن وُعودِه، كائنًا لا محالةَ فهو عزّ وجل لا يخلف الميعاد لكمال قدرته، وكمال صدقه [365]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31] يخرجهم في آخر الزمان وذلك بعد خروج الدجال وقتله يخرج الله هؤلاء، يخرجهم في عالم كثير مثل الجراد أو أكثر كما ورد في

365- يُنظر: تفسير ابن جرير 414/15، تفسير ابن كثير 199/5.

الحديث الشريف: ".. ويبعَثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِنْ كُلِّ حدَبٍ ينسِلُونَ، فيَمُرُّ أوائِلُهُمْ علَى بُحَيْرَةِ طبرِيَّةَ، فيشربونَ ما فيها ويَمُرُّ آخرُهم، فيقولونَ: لقدْ كان بهذِهِ مرَّةً ماءً.. ثُمَّ يسيرونَ حتى ينتَهُوا إلى جبلِ الخمْرِ، وهو جبَلُ بيتِ المقدِسِ فيقولونَ لقدْ قتَلْنا مَنْ في الأرضِ، هلُمَّ فلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السماءِ، فيرمونَ بنشابِهم إلى السماءِ، فيردُّ اللهُ عليْهِمْ نشابَهم مخضوبَةً دمًا، ويُحْصَرُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُهُ، حتى يكونَ رأسُ الثورِ لأحدِهم خيرًا مِنْ مائَةِ دينارٍ لأحدِكُمْ اليومَ، فيرْغَبُ نبيُّ اللهِ عيسى وأصحابُهُ، فيرسِلُ اللهُ عليْهِم النغَفَ في رقابِهم، فيَصبحونَ فَرْسَى كموْتِ نفْسٍ واحدَةٍ.[366] ويصبحون في ليلة واحدة على كثرتهم، ميتين مِيتة رجل واحد، حتى تنتن الأرض من رائحتهم، فيرسل الله تعالى أمطارًا تحملهم إلى البحر أو يرسل اللهُ طيورًا فَتَحْمِلُهُمْ إلى البحر، والله على كل شيء قدير، وهذه الأشياء نؤمن بها كما أخبر بها النبي صلّى الله عليه وسلّم، أما كيف تصل الحال إلى ذلك، فهذا أمره إلى الله عزّ وجل.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- الأخذ بالأسباب والتوكل على رب الأرباب. على الإنسان إذا أراد شيئًا أن يأخذ بأسبابه، لا نستطيع أن نصل إلى أهدافنا إلا إذا أخذنا بالأسباب، لا نرقى في ميدان العلم إلا إذا أخذنا بالأسباب، لا نقوى على عدونا إلا إذا أخذنا بالأسباب.

2- الطموح، فإنَّ هذا الملك الصالح ذا القرنين كان طموحًا إلى درجة أنه حكم مشارق الأرض ومغاربها.

3- التواضع، فلم يمنعه هذا المجد، وهذه القوة، وهذا التمكين، وهذا الاتساع، وهذا المال الوفير من أن يكون مؤمنًا، متواضعًا يقيم العدل، ويبغي الخير، ويُعطي كُلَّ ذي حقٍ حقه، ويقهر الظالم،

366- الراوي: النواس بن سمعان الأنصاري - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2937 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ويعين المظلوم، ويعطي المسكين والفقير، ويجازي المحسن، ويعاقب المسيء.

4- العدل، فالقوة الكبيرة، واتساع رقعة البلاد، لا تمنع من إقامة العدل، وهذا مثل للملك الصالح.

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف فَهِمَ ذو القرنَين منهم هذا الكلامَ بعد أن وصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟ الجواب من وجوه:

- الوجهُ الأولُ: أن ﴿كاد﴾ فيه قولان: الأوَّلُ: أن إثباتَه نفيٌّ، ونفيَه إثباتٌ؛ فقَولُه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم لا يَفهَمون شيئًا، بل يدُلُّ على أنَّهم قد يفهمونَ على مشقَّةٍ وصُعوبةٍ. والقول الثاني: أن "كاد" معناه المقاربةُ، وعلى هذا القَولِ فقَولُه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: لا يعلَمونَ، وليس لهم قُربٌ مِن أن يفقَهوا. وعلى هذا القَولِ فلا بدَّ مِن إضمارٍ، وهو أن يقال: لا يكادونَ يفهَمونَه إلَّا بعد تقريبٍ ومشقَّةٍ مِن إشارةٍ ونَحوِها.[367]
- الوجه الثاني: أنَّه تكلَّم عنهم مُترجِمٌ[368]، فذو القرنين أعطاه الله تعالى مُلكًا عظيمًا، وعنده من المترجِمينَ ما يَعرِفُ به ما يريدُ.
- الوجه الثالث: أن الله قد أعطى ذا القرنينِ مِن الأسبابِ العِلميَّةِ ما فَقِهَ به ألسنةَ أولئك القَومِ، وفَقَّهَهم، وراجَعَهم وراجَعوه.[369]
- الوجه الرابع: أنَّه قد يكون الله عزَّ وجَلَّ قد ألهمه لغةَ النَّاسِ الذين استولى عليهم كلِّهم.

6- قولُهم: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ افْتَتَحوا الكلامَ بالنِّداءِ، ونادَوْه نِداءَ المستغيثينَ المضطرِّينَ، ونداؤُهم إيَّاه بلَقَبِ ذي القرنَينِ يدُلُّ على أنَّه مشهورٌ بمعنَى ذلك اللَّقبِ بينَ الأُممِ المتاخِمةِ لبلادِه.[370]

367- يُنظر: تفسير الرازي 21/489-490.
368- يُنظر: تفسير البغوي 3/214.
369- يُنظر: تفسير السعدي ص: 486.

7- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فيه جوازُ الخَراجِ والأجرِ على الأعمالِ. [371]

8- قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ في هذه الآية دليلٌ على اتِّخاذِ السُّجونِ، وحَبسِ أهلِ الفَسادِ فيها، ومَنعِهم من التصَرُّفِ لِما يُريدونَه، ولا يُترَكونَ وما هم عليه. [372]

9- أن على المَلِكِ التعفُّفَ والترّفع عن أموالِ رعيَّتِه، والزُّهدَ في أخذِ أُجرةٍ في مُقابلةِ عَمَلٍ يأتيه -ما أغناه اللهُ عنه- ففي ذلك حِفظُ كرامتِه، وزيادةُ الشَّغَفِ بمحبَّتِه، كما تأبَّى ذو القرنينِ، تفَضُّلًا وتكَرُّمًا حيثُ عُرِضَ عليه مال وفير، ومع ذلك رَفَضَ: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿94﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾. [373]

10- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ التحَدُّثُ بنِعمةِ الله تعالى إذا اقتَضاه المقامُ، كقَولِ ذي القرنينِ هذا في مقامِ تعَفُّفِه عن أموالِهم، والشَّفَقةِ عليهم وكقَولِ سُلَيمانَ: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ [النمل: 36] [374]

11- في قَولِه تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿96﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ تدعيمُ الأسوارِ والحُصونِ في الثُّغورِ، وتقويتُها بذَوبِ الرَّصاصِ، وبوَضعِ صَفائحِ النُّحاسِ خِلالَ الصُّخورِ الصُّمِّ، صِدقًا في العَمَلِ، ونُصحًا

370- يُنظر: تفسير ابن عاشور 32/16.
371- يُنظر: الإكليل للسيوطي ص: 172.
372- يُنظر: تفسير القرطبي 59/11
373- يُنظر: تفسير القاسمي 68/7.
374- نفس المصدر السابق.

فيه، ليُنتَفَعَ به على تطاوُلِ الأجيالِ، فإنَّ البناءَ غيرَ الرَّصينِ لا ثمرةَ فيه. [375]

12- إن قيلَ: ما الجَمعُ بينَ قَولِه تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وبين الحَديثِ الذي رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ: "فُتِحَ اليومَ مِن رَدمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذه، وعَقَدَ بِيَدِه تِسعينَ" [376]؟

فالجوابُ: أمَّا على قَولِ مَن ذهب إلى أن هذا الحديثَ إشارةٌ إلى فَتحِ أبوابِ الشَّرِّ والفِتَن، وأنَّ هذا استعارةٌ مَحضةٌ وضَربُ مَثَلٍ، فلا إشكالَ. وأمَّا على قَولِ مَن جعل ذلك إخبارًا عن أمرٍ مَحسوسٍ -كما هو الظاهِرُ المتبادِرُ- فلا إشكالَ أيضًا؛ لأن قَولَه: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: في ذلك الزَّمانِ لأن هذه صيغةُ خبرٍ ماضٍ، فلا ينفي وقوعَه فيما يُستقبَلُ بإذنِ اللهِ لهم في ذلك قَدَرًا، وتسليطَهم عليه بالتدريجِ قليلًا قليلًا، حتى يتِمَّ الأجَلُ وينقضيَ الأمَدُ المقدورُ، فيَخرُجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: 96]. [377]

13- أنه حينما حقق هذا الإنجاز الكبير ما زاده هذا الإنجاز إلا تواضعًا وانكسارًا لله عز وجل، وتأدبًا معه، ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ عرف حجمه أمام قدرة الله عز وجل، وهذه حالُ الخُلَفاءِ الصَّالحينَ: إذا منَّ اللهُ عليهم بالنِّعَمِ الجليلةِ، ازداد شُكرُهم وإقرارُهم، واعترافُهم بنِعمةِ اللهِ، ولم يُسنِدوا ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإلى فَضلِه. [378]

14- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ الإعلامُ بالدَّورِ الأُخرويِّ، وانقضاءِ هذا الطَّورِ الأوَّليِّ،

375- ينظر: تفسير القاسمي 69/7.
376- رواه البخاري 3347، ومسلم 2881 واللفظ له.
377- يُنظر: البداية والنهاية لابن كثير 557/2.
378- يُنظر: تفسير السعدي ص: 486.

لتبقى النفوسُ طامحةً إلى ذلك العالَمِ الباقي، والنَّعيمِ السَّرمديِّ.[379]

15- مِن المناسباتِ الصُّوريَّةِ بين قِصَّةِ ذي القرنين وموسى مع الخَضِرِ: أن في قِصَّةِ كلٍّ منهما ثلاثةَ أشياءَ آخِرُها بناءُ جِدارٍ لا سَقْفَ له، وإنَّما هو لأجلِ حِفظِ ما يُهتَمُّ به خَوفَ المُفسِدِ.[380]

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 99]

مُناسَبةُ الآية لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى الجوابُ عَمَّا سأل عنه الكافِرونَ على أحسَنِ وَجهٍ، في أبلَغِ سِياقٍ وأبدَعِ تناسُبٍ؛ وأدرجَ اللهُ تعالى في خلالِه ما أدرَجَ مِن التَّذكيرِ والوَعظِ، والأمرِ والنَّهيِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والتَّبكيتِ للكاتمينَ لِما عِندَهم من العِلمِ، النَّاكبينَ عمَّا استبان لهم مِن الطَّريقِ والمَنهجِ الواضِحِ، وخَتَمه بما هو عَلَمٌ عَظيمٌ للسَّاعةِ- ذكَرَ ما يكونُ إذ ذاك، وما يكونُ بَعدَه إلى حُصولِ كُلٍّ مِن الفَريقَينِ في دارِه، ومحَلِّ استِقرارِه.[381]

يذكرُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: ﴿**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾ قيل أن ذا القرنين عند بنائه للسد ترك يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض، وقيل عند دك السد يموج الناس بعضهم في بعض، وقيل إنه عندما يخرجون على الناس قبل يوم القيامة وبعد الدجال يختلطون بالناس بعد أن منعهم الله وحجزهم وراء

379- يُنظر: تفسير القاسمي 69/7.
380- ينظر: نظم الدرر للبقاعي 128/12.
381- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 143/12-144.

السد، وقيل إنه المقصود بها يوم يختلط الإنس والجن يوم القيامة فإذا كانت القيامة تركناهم يموج بعضهم في بعض، كموج الماء يختلط فيهم الحابل بالنابل، والقويّ بالضعيف، والخائف بالمخيف، فهم الآن في موقف القيامة، وقد انتهت العداوات الدنيوية، وشُغِل كل إنسان بنفسه. وهذا المشهد يصف ويرسم حركة الجموع البشرية من كل صنف وجنس مبعوثين يختلطون ويضطربون من غير نظام تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج ثم بعد ذلك تأتي نفخة النظام والتجمع.

﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾: أي: ونُفِخَ في البُوقِ؛ لتَعودَ الأرواحُ إلى أجسادِها، فإذا هم قيامٌ لرَبِّ العالَمينَ. [382]

"عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: "جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه". [383] وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي اللهُ عنه، أن النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "كيف أنعَمُ، وقد الْتقمَ [384] صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنَى جبهتَه، وأصْغَى سمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمرَ أن يَنفُخَ فيَنفُخَ؟! قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا -وربَّما قال سفيانُ-: على اللهِ توكَّلْنا" [385].

الصور هو قرن يُنفخ فيه، النافخ إسرافيل أحد الملائكة الكرام، وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم يفتتح صلاة الليل بهذا الاستفتاح: "اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ

382- يُنظر: تفسير ابن جرير 416/15، تفسير ابن عطية 544/3، 84/1، تفسير ابن كثير 200/5، نظم الدرر للبقاعي 144/12، تفسير الألوسي 365/8، تفسير السعدي ص: 487.

383- أخرجه أبو داود 4742، وأحمد 6507 باختلاف يسير، والترمذي 2430، والنسائي في السنن الكبرى 11456 واللفظ لهما. حسَّنه الترمذي، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في المستدرك 550/2، ووافقه الذهبي في التلخيص 550/2، وذكَر ابنُ كثيرٍ في تفسير القرآن 308/5 أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق مسند أحمد 9/10، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي 2430.

384- التقم: أي: وضع طَرفَ الصُّورِ في فَمِه. يُنظر: مرقاة المفاتيح للقاري 3508/8.

385- أخرجه الترمذي 3243، وأحمد 11039. حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي 3243.

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" [386].

هؤلاء الثلاثة الملائكة الكرام، كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل موكل بما فيه حياة القلوب، ميكائيل بما فيه حياة النبات وهو القَطْر، والثالث إسرافيل بما فيه حياة الناس عند البعث، ينفخ في الصور نفختين:

النفخة الأولى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68] فَزَعٌ وصعق، ولا يمكن الآن أن ندرك عظمة هذا النفخ، نفخ تفزع الخلائق منه وتصعق بعد ذلك، والصَّعْق قد يكون مميتًا، وقد يكون مُغْمِيًا لفترة ثم يفيق صاحبه، فالصَّعْق المميت كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿43﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: 43-44]. أما الصَّعْقة التي تُسبِّب الإغماء فهي مِثْل التي حدثت لموسى عليه السلام حينما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]. فالجبل الأشمّ الراسي الصَّلْب اندكّ لما تجلَّى له الله، وخر موسى مصعوقًا مُغمًى عليه، وإذا كان موسى قد صُعِق من رؤية المتجلَّى عليه، فكيف برؤية المتجلِّي سبحانه؟ وفي ضوء هذه الحادثة لموسى عليه السلام نفهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تُخيِّروا بين الأنبياء، فإن الناس يُصْعقون يوم القيامة، فأكون أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعِق، أم حُوسِب بصَعْقة الأولى" [387]. قالوا: لأنه صُعِق مرة في الدنيا، ولا يجمع الله تعالى على عبده صَعقتَيْن. كلهم

386- صحيح مسلم.

387- صحيح البخاري

يموتون إلَّا من شاء الله، لشدة هذا النفخ وشدة وقعه، فزع من في السماوات ومن في الأرض، ثم يصعقون. الله أكبر. شيء عظيم كلما يتصوره الإنسان يقشعر جلده من عظمته وهوله.

النفخة الثانية: نفخة البَعْث والقيامة، يقول الله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68]. يقوم الناس من قبورهم أحياء ينظرون، ماذا حدث؟ لأن الأجسام في القبور، يُنْزِل الله تعالى عليها مطرًا عظيمًا ثم تنمو في داخل الأرض حتى إذا تكاملت الأجسام تكاملها التام نفخ في الصور نفخة البعث: ﴿فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أي: فجَمَعْنا جميعَ الخَلقِ إلى مَوقِفِ القيامةِ لحِسابِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49-50]. وقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]. جمعنا الخلائق، هؤلاء الذين عاشوا في مشارق الأرض، والذين عاشوا في مغاربها، وهؤلاء المفسدون يأجوج ومأجوج، وهؤلاء الضعاف المتخلفون الذين بنوا سدًا حماهم من هجماتهم، هؤلاء جميعًا جمعناهم يوم القيامة ليلقوا جزاء عملهم. ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعًا عظيمًا، فهذا الجمع يشمَل: الإنس، والجن، والملائكة، والوحوش، وجميع الدواب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]. كل الخلائق، حتى الملائكة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]. يا له من مشهد عظيم، الله أكبر.[388]

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: 100]

388- يُنظر: تفسير ابن جرير 419/15، تفسير القرطبي 65/11، تفسير ابن كثير 200/5، تفسير السعدي ص: 487.

يخبر الله عز وجل عما يفعله يوم القيامة بهؤلاء الكفار.

﴿**وَعَرَضْنَا**﴾ أي: وأبرَزْنا جهنَّمَ يومَ القيامةِ، وأظهَرْناها للكافرينَ حتى يُشاهِدوها عِيانًا قبلَ دُخولِها [389] كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِن سَبِيلٍ ﴿44﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: 44-45]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: 91].

﴿**جَهَنَّمَ**﴾ اسم من أسماء النار.

﴿**عَرْضًا**﴾ يعني عرضًا عظيمًا، ولذلك نُكِّر يعني عرضًا عظيمًا تتساقط منه القلوب، ليس كعرضها على المؤمنين، بل هو عَرْض يتحقّق فيه حَقُّ اليقين بدخولها ومباشرتها، فهو يبرز لهم نار جهنم ويبين لهم لعذاب الذي ينتظرهم وذلك أبلغ ما يكون في تعجيل الهم والحزن لهم، عرضناها لهم فتكون أمامهم اللّهم أجرنا منها، تُعرَض عليهم ليروها ويشاهدوها، وهذا العَرْض أيضًا للمؤمنين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]. والبعض يظن أن ﴿واردها﴾ يعني: داخلها، يراها ويمرُّ بها، فقد يرِد الإنسان الماء بمعنى يصل إليه دون أن يشربَ منه، ذلك لأن الصراط الذي سيمر على الجميع مضروبٌ على ظهر جهنم ليراها المؤمن والكافر. أما المؤمن فرؤيته للنار قبل أن يدخل الجنة تُرِيه مدى نعمة الله عليه ورحمته به، حيث نجّاه من هذا العذاب، ويعلم فضل الإيمان عليه، وكيف أنه أخذ بيده حتى مَرَّ من هذا المكان سالمًا. لذلك يُذكّرنا الحق سبحانه بهذه المسألة فيقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]. أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولًا، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤية الحسرة والندامة والفزع، لأنه يعلم أنه داخلها، ولن يُفلِتَ

389- يُنظر: تفسير ابن جرير 419/15، تفسير البغوي 220/3، تفسير ابن كثير 201/5.

منها. وقد وردتْ هذه المسألة في سورة التكاثر حيث يقول تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿1﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿2﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿3﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿4﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿5﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿6﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿7﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 1-8]. والمراد: لو أنكم تأخذون عنّي العلم اليقيني فيما أُخبركم به عن النار وعذابها لكُنْتم كمنْ رآها، وهذا ما نُسمّيه علم اليقين، أما في الآخرة فسوف تروْنَ النار عينها، وهذا هو عين اليقين أي: الصورة العينية التي ستتحقق يوم القيامة حين تمرُّون على الصراط. وبرحمة الله بالمؤمنين وبفضله وكرمه تنتهي علاقة المؤمن بالنار عند هذا الحد، وتُكتب له النجاة، لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أما الكافر والعياذ بالله فلَهُ مع النار مرحلة ثالثة هي حّقُّ اليقين، يوم يدخلها ويباشر حَرَّها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿92﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿93﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿94﴾ أن هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿95﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 92-96]. فبين لنا صفات النار كذا وكذا وحذَّرنا منها، وعَيْن اليقين: في الآخرة عندما نمرُّ على الصراط، ونرى النار رؤيا العين. ثم حَقُّ اليقين: وهذه للكفار حين يُلْقَوْن فيها ويباشرونها فعلًا. فعلى الإنسان أن يصلح ما بينه وبين الله، وأن يخاف من هذا اليوم، وأن يستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق رضي الله عنه: "كلنا مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله".

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: أظهَرْنا جهنَّمَ للكافرينَ الذين كانت أعيُنُهم مُغَطَّاةً عن النَّظَرِ في آيات القُرآنِ وتدَبُّرِها، وتَعامَوا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، الله سبحانه وتعالى سيعرض جهنم

لهؤلاء الكافرين الذين كفروا وعطلوا حواسهم التي أعطاها الله لهم، عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن التوحيد والانتفاع وذلك بصدها عن ذكر الله، وقد ذكر الله تعالى فيما سبق -في نفس السورة- أن ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾. فالقلوب والأبصار والأسماع كلها مغلقة. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: 7]. وقال سُبحانَه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]. الله سبحانه وتعالى لم يسلبهم السمع والبصر ولكن الله أعطاهم السمع وأعطاهم البصر وأمرهم أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض من حولهم، أمرهم برؤية آياته الظاهرة في كل الكون ليروا مشاهد التوحيد ودلائل التوحيد، وأمرهم أن يسمعوا بآذانهم إلى آيات الله، والمراد هنا السمع الذي يستفيد منه السامع، سَمْع العبرة والعِظَة، وإلا فآذانهم موجودة وصالحة للسمع، ويسمعون بها، لكنه سمَاعٌ لا فائدةَ منه، لأنهم ينفرون من سماع الحق ومن سماع الموعظة ويسدُّون دونها آذانهم، هم سمعوا السمع الذي قامت به الحجة، فلما عطلوا هذه الحواس عن الاستخدام فيما خلقت له من التعرف على آيات الله الكونية وسماع الآيات المنزلة عاقبهم الله سبحانه وتعالى فحال بينهم وبين سمع الانتفاع بآذانهم والانتفاع بأبصارهم كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]. ولذلك حكى القرآن عن كفار مكة قولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]. أي: شَوِّشُوا عليه، ولا تُعطوا الناس فرصة لسماعه، لأنهم يعلمون جيدًا أن القرآن له تأثير في سامعه وحتمًا سيدعوه هذا إلى الإيمان بأن هذا الكلام كلام الله، وأن محمدًا رسول الله، لذلك قال بعضهم لبعض محذرًا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 26]. أما المؤمنون فيقول الحق تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83].[390]

390- يُنظر: تفسير ابن جرير 420/15، تفسير القرطبي 65/11، تفسير ابن كثير 201/5،

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: 102]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى مِن حالِ الكافرينَ أنَّهم أعرَضوا عن الذِّكرِ، وعن استِماعِ ما جاء به الرَّسولُ، أتبَعَه بقَولِه: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾، والمراد: أفظَنُّوا أنَّهم ينتَفِعون بما عَبَدوه مع إعراضِهم عن تدبُّرِ الآيات، وتمَرُّدِهم عن قَبولِ أمرِه، وأمرِ رَسولِه. [391]

﴿أَفَحَسِبَ﴾ أي: أفظن **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾** من هم عباده؟ الجواب: كل شيء فهو عبد الله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]. ومن الذي اتُّخِذَ وليًا من دون الله، أي: عُبِد من دون الله؟ الجواب: عبدت الملائكة، عبدت الرسل، وعبدت الشمس، وعبد القمر، وعبدت الأشجار، وعبدت الأحجار، وعبدت البقر! نسأل الله العافية، الشيطان يأتي ابن آدم من كل طريق. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿40﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿41﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: 40-42].
وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي

تفسير السعدي ص: 487.
391- يُنظر: تفسير الرازي 501/21.

نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿116﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 116-117].

﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أربابا يدعونهم ويستغيثون بهم وينسون ولاية الله عزّ وجل. أيظن هؤلاء الذين فعلوا ذلك أنهم يُنصرون؟ الجواب: لا، لا يُنصرون. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 82]. أظنّ هؤلاء المشركون أنهم يشركوا بالله ويجعلوا له أندادا وأن الله لا يعاقبهم ولا يعذبهم على شركهم وكفرهم، أم أن الذين عبدوهم من دون الله من الملائكة أو الأولياء أو عيسى بن مريم راضين عن عبادتهم وأنهم سيولونهم بهذه العبادة وأنهم سينفعونهم يوم القيامة؟ كلا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿5﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5-6]. [392]

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي إنَّا هيَّأْنا جهنَّم مَنزِلًا للكافرينَ، معنى النُّزُل: ما يقدمه صاحب البيت للضيف، ما يُعَدُّ لإكرام الضيف كالفنادق مثلًا، ويحتمل أن يكون بمعنى المنْزِل، وكلاهما صحيح فهذا من التهكّم بهم والسُّخرية منهم. يعني أن الله عزّ وجل هيأ النار "نُزُلًا" للكافرين، فهم نازلون فيها، وهم يعطونها كأنها ضيافة، وبئست الضيافة. [393]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ مِن الحِكَمِ في إخبارِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك: أن يُصْلِحَ الإنسان ما بينه وبينَ اللهِ؛ وأنْ يَخافَ مِن هذا اليومِ، وأنْ يَستعِدَّ له، وأنْ يُصَوِّرَ نفسَه وكأنَّه تحتَ قدَمَيه، كما قال الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه: "كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ

392- يُنظر: تفسير ابن جرير 421/15، تفسير القرطبي 65/11، تفسير البيضاوي 294/3، تفسير ابن عاشور 43/16، أضواء البيان للشنقيطي 348/3، 349.
393- تفسير السعدي ص: 487، تفسير ابن عاشور 44/16، 45، أضواء البيان للشنقيطي 349/3.

في أهلِه والموتُ أدنى مِن شِراكِ نَعْلِه".[394] فتصَوَّرْ هذا، وتصوَّرْ أنَّه ليس بينك وبينه إلَّا أن تَخرجَ هذه الرُّوحُ مِن الجسَدِ، وحينئذٍ ينتهي كلُّ شيءٍ.

2- تَرْكُه سُبحانَه للشَّيءِ صِفةٌ مِن صفاتِه الفِعليَّةِ، الواقعةِ بمشيئتِه، التَّابعةِ لحكمتِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: 35]، والنصوصُ في ثبوتِ التَّرْكِ وغيرِه مِن أفعالِه المتعَلِّقةِ بمشيئتِه كثيرةٌ معلومةٌ، وهي دالَّةٌ على كمالِ قُدرتِه وسُلطانِه، وقيامُ هذه الأفعالِ به سُبحانَه لا يُماثِلُ قيامَها بالمَخلوقينَ، وإنْ شارَكَه في أصلِ المعنى، كما هو معلومٌ عند أهلِ السُّنَّةِ.

3- قال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ليكونَ ذلك أبلَغَ في تعجيلِ الهَمِّ والحُزنِ لهم[395].

4- النَّارُ تُعرَضُ على الكافرين ويُعرَضونَ عليها لأنها تُقرَّبُ إليهم ويُقرَّبونَ إليها، كما قال تعالى في عَرضِها عليهم هنا: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقال في عَرضِهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: 29][396].

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: 103]

394- أخرجه البخاري 1889 من حديث عائشة رضي الله عنها.
395- يُنظر: تفسير ابن كثير 201/5.
396- يُنظر: أضواء البيان للشنقيطي 347/3.

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَهَا:

أنَّه لَمَّا تبيَّنَ بما لا مِريةَ فيه أن الكافرينَ خَسِروا خَسارةً لا رِبحَ معها، وخاب ما كانوا يُؤمِّلونَ؛ أمَرَ تعالى نبيَّه أن ينَبِّهَهم على ذلك، فقال:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يبينَ للناسِ مَن هم الأخسرونَ أعمالًا، فيقول: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للأمة كلها: هل نُخبِرُكم بأخسَرِ النَّاسِ أعمالًا؟ الأخسرون: اسم تفضيل من خاسر، فأخسر يعني أكثر خسارة، أشد الناس خسارةً يوم القيامة. "أَعْمَالًا" أي: خسارتهم بسبب أعمالهم، هل نخبركم بمن هم أشد خسرانا يوم القيامة..

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هم الذين بَطَلَت أعمالُهم التي عَمِلوها في الدُّنيا، مِن المُشركين والضالِّين عن سَواءِ السَّبيلِ، واضمحلَّتْ لفَسادِ اعتقادِهم، ومخالفتِهم شَريعةَ ربِّهم، أولئك الذي لم يبلغهم سعيهم في الدنيا أية غاية ولم يوصلهم إلى الهدى فهم كانوا يعملون أعمالا باطلة غير شرعية ويظنُّونَ أنَّهم مُحسِنونَ في أعمالِهم ولا يَعلَمونَ أنَّها باطِلةٌ، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]. هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة، بل كان على جور وضلالة، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به بل على كفر منهم به، ضلَّ سَعْي هؤلاء، ضاع وبَطل في الحياة الدنيا وذهب، وكأنه لا شيء، مثل السراب كما صَوَّرهم الله سبحانه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: 39]. وقد

بين الله تعالى في سورة العصر أن كل إنسان خاسر، إلَّا من اتصف بأربع صفات: الذين آمنوا - وعملوا الصالحات - وتواصوا بالحق - وتواصوا بالصبر.

وفي قوله تعالى: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جاءت كلمة "الضلال" في القرآن الكريم في عِدّة استعمالات يُحدِّدها السياق الذي وردتْ فيه:

1- فقد يأتي الضلال بمعنى الكفر، وهو قمة الضلال وقمة المعاصي، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108].
2- ويُطلق الضلال، ويُراد به المعصية حتى من المؤمن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].
3- ويُطلق الضلال، ويُراد به أن يغيب في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: 10] يعني: غِبْنا فيها واختفينا.
4- ويُطلَق الضلال ويُراد به النسيان، كما في قوله تعالى ﴿أن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: 282].
5- ويأتي الضلال بمعنى الغفلة التي تصيب الإنسان فيقع في الذنب دون قصد. كما جاء في قصة موسى وفرعون حينما وكز موسى الرجل فقضى عليه، فلما كلمه فرعون قال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: 20]. أي: قتلتُه حال غفلة ودون قصد، ومَنْ يعرف أن الوكزة تقتل؟ والحقيقة أن أجلَ الرجل جاء مع الوكزة لا بها.
6- ويأتي الضلال بمعنى: أَلَّا تعرف تفصيل الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 7] أي: لا يعرف ما هذا الذي يفعله قومه من الكفر.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي: والحالُ أنَّهم يظُنُّون أنَّهم يُحسِنونَ في أعمالِهم، وسيَنتَفِعونَ بآثارِها، ولا يَدرونَ أنَّها باطِلةٌ، هذه

الآية تدل على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر، والآية معناها التوبيخ لهؤلاء الكفرة أن يخيب الله سعيهم وآمالهم فهم الأخسرون أعمالا. قال ابن عباس وسعد بن أبي وقاص: "هم اليهود والنصارى". وقيل: هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقيل إنهم اليهود والنصارى فاليهود كذبوا محمدا ﷺ، أما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين [397] لأنهم يفعلون الشر، ويظنون أنه خير، فهم ضالّون من حيث يظنون الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30]. ومن ذلك ما نراه من أعمال الكفار حيث يبنون المستشفيات والمدارس وجمعيات الخير والبر، ويُنَادون بالمساواة وغيرها من القيم الطيبة، ويحسبون بذلك أنهم أحسنوا صُنْعًا وقدَّموا خَيْرًا، لكن هل أعمالهم هذه كانت لله؟ الواقع أنهم يعملونها للناس وللشهرة وللتاريخ، فليأخذوا أجورهم من الناس ومن التاريخ تعظيمًا وتكريمًا وتخليدًا لذكراهم. فَغُطي عليهم الحق - والعياذ بالله - وظنوا وهم على باطل أن الباطل هو الحق، وهذا كثير، فاليهود مثلًا يظنون أنهم على حق، والنصارى يظنون أنهم على حق، كل واحد منهم يظن أنه على حق، ولذلك مكثوا على ما هم عليه، ومنهم من يعلم أنه ليس على حق، لكنه - والعياذ بالله - لاستكباره واستعلائه أصر على ما هو عليه. من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتّبعوه. ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلّموه. ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فهذا شيطان فاحذروه. فهؤلاء على الرغم من أنهم قد تاهوا، وضلوا فهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعًا، وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم، ولا يمنعهم الأجْر، لأنهم أحسنوا الأسباب، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا، لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا، ولا نصيبَ لهم في جزاء

397- يُنظر: تفسير ابن جرير 428/15، 429، تفسير ابن كثير 202/5، تفسير الشوكاني 372/3، 373، تفسير السعدي ص: 488، تفسير القرطبي.

الآخرة. وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: 20].

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيات رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]

﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ**﴾: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، الأخسرون أعمالا أولئك هم الذين كَفَروا بآيات رَبِّهم الكونية والشرعية وأدلته وكذَّبوا بها، كفروا بالآيات الكونية وكفروا بآيات الأحكام والقرآن والبلاغ من رسول الله، وكذلك كفروا بالآيات المعجزات التي أنزلها الله لتأييد الرسل الدالة على قدرة الله، فلم يصدقوها ولم ينظروا فيها ولم يعتبروا بها، كفروا بها جميعًا وكذَّبوا. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي: وأنكروا لقاءه وكفروا وكذبوا بلقاء الله، وأنكَروا البعثَ، والوقوف بين يديه يوم تقوم القيامة وتنتهي هذه الحياة بما فيها، فلا سماء ولا أرض ولا شيء من ذلك أبدًا، والكل واقفون بين يدي الله تعالى، كذبوا بيوم القيامة وجادلوا، وأُروا الآيات ولكنهم أصروا، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: 82]. ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿77﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 77-78]. كذب بالبعث فقال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ تَحَدٍّ! من يحييها؟ رميم لا فيها حياة ولا شيء؟ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]. ومن الذي أنشأها أوّل مرة؟ الجواب: هو الله، والإعادة أهون من الابتداء كما قال الله عزّ وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ

﴿الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27]. هذا دليل.

والأدلة على إمكان البعث، وإحياء العظام وهي رميم:

1- الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، أن الله تعالى ابتدأها، ولما قال زكريا حين بُشِّر بالولد وكان قد بلغ من الكِبَر عتيا، وامرأته عاقر، قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]، فالذي خلقك من قبل، وأنت لم تكن شيئًا قادر على أن يجعل لك ولدًا. ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]. وإذا كان الله بكل خلق عليمًا، فإنه لن يتعذر عليه أن يخلق ما يشاء، من الذي يمنعه إذا كان عليمًا بكل خلق؟ الجواب: لا أحد يمنعه.

2- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80]. شجر أخضر يخرج منه نار، فالشجر الأخضر يضرب بالزند ثم ينقدح نارًا، وكان العرب يعرفون هذا، فالذي يخرج هذه النار، وهي حارة يابسة من غصن رطب بارد، يعني متضادان غاية التضاد، قادر على أن يخلق الإنسان، أو أن يعيد خلق العظام وهي رميم، ثم حقق هذه النار بقوله: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

3- ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: 81] الجواب: بلى، قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]. فالذي خلق السماوات والأرض بِكِبَرِهَا وعظمها قادر على أن يعيد جزءًا من لا شيء بالنسبة للأرض، من أنت يا ابن آدم بالنسبة للأرض؟ لا شيء، أنت خلقت منها، أنت بعض يسير منها، فالذي قدر على خلق السماوات والأرض، قادر على أن يخلق مثلهم، قال الله تعالى مجيبًا نفسه: "بلى".

4- ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ الخلَاق صيغة مبالغة، يعني أنه موصوف بالخلق أزلًا وأبدا، وهو تأكيد لقوله قبل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79].

5- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]. لا يحتاج إلى عمال ولا بنَّائين ولا أحد.. "كُنْ فَيَكُونُ". ولهذا قال عزّ وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 53]، كلمة واحدة.

6- ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]. كل شيء بيده ملكوته عزّ وجل، يتصرف كما يشاء، فنسأله عزّ وجل أن يهدينا صراطه المستقيم.

7- ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]. ولولا رجوعنا إلى الله عزّ وجل لكان وجودنا عبثًا، وهذا ينافي الحكمة، فتأملوا سياق هذه الأدلة في هذا القول الموجز، ومع ذلك ينكرون لقاء الله.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾: يعني بَطَلَت أعمالهم، أبطلَ اللهُ أعمالَ الخيرِ التي عَمِلوها، بسَبَبِ كُفرِهم، ولم ينتفعوا بها، فلا يُثابونَ عليها في الآخرةِ، بل لهم منها عذاب، ولو تصدقوا بالملايين، ولو بنوا المساجد والكنائس، ولو فعلوا كل خير، حتى لو أن الكافر أحسن وأصلح الطرق وبنى الرُّبط، وتصدق على الفقراء فإن ذلك لا ينفعه، أن أراد الله أن يثيبه عجل له الثواب في الدنيا، أما في الآخرة فلا نصيب له لأن أعماله حبطت لعَدَمِ بنائِها على أساسٍ مِن الإيمانِ، نسأل الله العفو والعافية.[398]

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾: فلا نُثَقِّلُ موازينَهم يومَ القيامةِ لأنه ليس لهم حَسَناتٌ، جاءتْ على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار، فالمراد

398- يُنظر: تفسير ابن جرير 429/15، تفسير ابن عطية 545/3، تفسير ابن كثير 202/5، نظم الدرر للبقاعي 148/12، تفسير السعدي ص: 488.

لا وزنَ لهم عندنا ولا اعتبارَ لهم ولا قدر لهم، وهو كناية عن سقوط مرتبتهم عند الله عزّ وجل. وقيل أن المعنى أننا لا نزنهم، لأن الوزن إنما يحتاج إليه لمعرفة ما يترجح من حسنات أو سيئات، والكافر ليس له عمل حتى يوزن، ولكن الصحيح أن الأعمال توزن كُلُّها، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿6﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿7﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿8﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿9﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿10﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: 6-11]. فيقام الوزن يكون لإظهار الحجة عليه، والمسألة هذه فيها خلاف. فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال": إنَّه لَيأتي الرجُلُ العَظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عند الله جَناحَ بَعوضةٍ، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾"[399].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

[الكهف: 106]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما كان من إحباط أعمالهم، وعدم إقامتنا لهم وزنًا ليس ظلمًا لهم، بل جزاءً لهم على كفرهم.

﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾: الباء للسببية و"ما" مصدرية وتقدير الكلام: بكفرهم، إشارة إلى جزائهم أي إنما جازيناهم بجهنم بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ واتِّخاذِهم آياته ورُسُلَه استهزاءً وسُخريةً.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾: قوله: "وَاتَّخَذُوا" معطوفة على "كَفَرُوا" أي: وبسَبَبِ كفرهم واستِهزائِهم، واستِخفافِهم بالحُجَجِ والدَّلائِلِ ورُسُلِ اللهِ، وسُخريتِهم منهم.[400]

399- رواه البخاري 4729 واللفظ له، ومسلم 2785.
400- يُنظر: تفسير ابن جرير 430/15، تفسير القرطبي 67/11، تفسير ابن كثير 203/5.

﴿هُزُوًا﴾ أي: محلَّ هُزؤ، فهم -والعياذ بالله- كفروا ولم يقتصروا على كفرهم بالله بل تعدى كفرهم إلى غيرهم، فصاروا يستهزئون بالآيات، ويستهزئون بالرسل، يسخرون منهم، ولهذا قال الله عزّ وجل للرسول صلّى الله عليه وسلّم: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِين كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: 36]. ويقولون: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]. والاستفهام هنا لا يخفى أنه للتحقير، أهذا الرسول! ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 42]. يفتخرون أنهم صبروا على آلهتهم وانتصروا لها، وكلما سمعوا آية قالوا: أساطير الأولين ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: 15]. وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6].

الهدايات والفوائد العلمية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ لَمَّا كانت أعمالُ الكافرينَ مُختَلِفةً فمنهم من يعبُدُ الملائِكةَ، ومنهم مَن يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم من يَعبُدُ بعضَ الأنبياءِ، ومنهم مَن يعبُدُ الأوثانَ، ومنهم من يكفُرُ بغيرِ ذلك- جمع الممَيِّزَ فقال :أَعْمَالًا، لأن أعْمالَهم في الضَّلالِ مُختلِفةٌ، ولَيْسوا مُشتَرِكين في عمَلٍ واحدٍ.[401]

2- في قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ دلالةٌ على أن الإنسان يُوزَنُ مع عمَلِه. قال حافظ حكمي: والذي استُظهِرَ من النصوصِ -والله أعلم- أن العامِلَ وعمَلَه وصَحيفةَ عَمَلِه: كُلُّ ذلك يُوزَنُ لأن الأحاديثَ التي في بيانِ القُرآنِ قد وردت بكُلٍّ من ذلك، ولا منافاةَ بينها.[402]

401- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 147/12 تفسير أبي حيان 230/7، تفسير أبي السعود 249/5.

402- يُنظر: النُّكَتُ الدالة على البيان للقَصَّاب 368/2، معارج القبول 848/2-849، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي 610/2- 613.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما فرغَ مِن ذِكرِ الكفرةِ والأخسرينَ أعمالًا الضالِّينَ، عقَّب بذِكرِ حالةِ المؤمنينَ ليظهرَ التباينُ. وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الوعيدَ أتبَعَه بالوعدِ، ولَمَّا ذكر في الكُفَّارِ أن جهنَّمَ نُزُلُهم أتبَعَه بذِكرِ ما يُرغِّبُ في الإيمان والعَمَلِ الصَّالح، فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [403].

ثم ذكر ثواب الذينَ آمنوا باللهِ وبما جاءت به رسُلُه وعملوا الصالحات الخالِصةَ لله، الموافِقةَ لشريعتِه، مبينًا الوعدَ الحسنَ لهم بدل ما كانت جهنم نزلا للكافرين صارت جنَّاتُ الفِردَوسِ للمؤمنين مَنزِلًا، خالدينَ فيها أبدًا، لا يُريدونَ عنها تحوُّلًا، لكن بشرطين: الإيمان والعمل الصالح. فقرن الإيمان بالعمل الصالح، لأن العمل الصالح لا بُدَّ له أن ينطلق من الإيمان ويصدر عنه، والإيمان محله القلب، والعمل الصالح محله الجوارح، وقد يراد به أيضًا عمل القلب، كالتوكل والخوف والإنابة والمحبة، وما أشبه ذلك. والصَّالِحَاتِ هي التي كانت خالصة لله، وموافقة لشريعة الله. ولا يمكن أن يكون العمل صالحًا إلَّا بهذا: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله، فمن أشرك، فعمله غير صالح، ومن ابتدع فعمله غير صالح، ويكون مردودًا عليهما، فصار

403- يُنظر: تفسير ابن عطية 546/3، تفسير الرازي 502/21.

العمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله، والمتابعة لشريعة الله. ودليل ذلك: قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: "أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ" [404].

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾: كانت لهم بساتينُ الفِردوسِ منازِلَ يَسكُنونَها [405]. ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنَّ في الجنَّةِ مائةَ دَرَجةٍ، أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، ما بين الدَّرَجتَينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سَألْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أوْسَطُ الجَنَّةِ، وأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أنْهارُ الجَنَّةِ" [406]. والنُّزُل: هو الضيافة، ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108]

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أي: هم في جنَّاتِ الفِردَوسِ خالدين ماكثين لابثينَ أبد الآبدين، ولا نزاع في هذا بين أهل السنة. وخلود النعيم في الآخرة يُميّزه عن نعيم الدنيا مهما سَمَا، كما أن نعيم الدنيا يأتي على قَدْر تصوُّرنا في النعيم وعلى حَسْب قدراتنا، وحتى أن بلغنا القمة في التنعُّم في الدنيا فإننا على خَوْف دائم من زواله، فإما أن يتركنا النعيم، وإما أن نتركه، فنعيم الدنيا له حدود ينتهي عندها. وأما في الجنة فالنعمة خالدة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فالمؤمن مُخلّد فيها فلن تتركه النعمة ولن يتركها.

404- الراوي: أبو هريرة - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: 2985 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

405- يُنظر: تفسير ابن جرير 430/15، تفسير ابن عطية 546/3، تفسير ابن كثير 203/5. تفسير السمرقندي 365/2، الوسيط للواحدي 170/3.

406- الراوي: أبو هريرة - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 7423 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿**لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا**﴾: لا يَطلُبونَ عنها بدلًا ولا تَحوُّلًا إلى غَيرِها، ولا يَختارونَ سِواها لأن كل واحد راضٍ بما هو فيه من النعم، وكل واحد لا يرى أن أحدًا أكمل منه، وهذا من تمام نعمة الله على الإنسان أن يقنع الإنسان بما أعطاه الله عزّ وجل وأن يطمئن ولا يقلق. ومعلوم أن الإنسان لديه طموحات ترفيهية، فكلما نال خيرًا تطلع إلى أعلى منه، وكلما حاز متعةً ابتغى أكثر منها، هذا في الدنيا. أما في الآخرة فالأمر مختلف، وإلا فكيف يطلب نعيمًا أعلى من الجنة [407].

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر الله تعالى في هذه السورةِ أنواعَ الدلائلِ والبيناتِ، وشرَح أقاصيصَ الأولينَ، نبَّه على كمالِ حالِ القرآنِ [408].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: "قالت قُرَيشٌ لليهودِ: أعطُونا شَيئًا نسألُ عنه هذا الرَّجلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنَزَلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قالوا: أُوتينا عِلمًا كثيرًا؛ أُوتينا التَّوراةَ، ومَن أُوتيَ التَّوراةَ فقد أُوتيَ خيرًا كثيرًا. قال: فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾" [409].

407- يُنظر: تفسير ابن جرير 437/15، تفسير القرطبي 68/11، تفسير ابن كثير 204/5.
408- يُنظر: تفسير الرازي 503/21، تفسير الشوكاني 375/3.
409- أخرجه الترمذي 3140، والنَّسائي في السنن الكبرى 11314، وأحمد 2309 واللفظ له. وأخرجه ابنُ حبان في صحيحه 99، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في المستدرك 579/2،

﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي**﴾: أي قُلْ -يا محمَّدُ-: لو كان ماءُ البَحرِ حِبرًا مِدادًا للأقلامِ التي تُكتَبُ بها كَلِماتُ رَبّي لفَرَغ ماءُ البَحرِ قبلَ يُفرَغَ مِن كِتابةِ كَلِماتِ رَبِّي لعدَمِ تناهي مَعلوماتِه سُبحانَه وبِحَمدِه ولأنه المدبر لكل الأمور، وبكلمة "كُنْ"، بل إن في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27]، فلو تصوَّرنا لو كان ما في الأرض من شجر أقلام لَنَفِد البحر وتكسرت الأقلام وكلمات الله جلَّ وعلا باقية، واختار هذا العدد بالذات، لأنه مُنتَهى العدد عند العرب، قال الرسعني: المِداد: ما تُمَدُّ به الدواةُ مِن الحِبرِ، وأصلُه: الزيادةُ، ومجيءُ الشيءِ بعدَ الشيءِ[410]. والمرادُ بالكلماتِ هنا: الكلماتُ الكونيةُ والشرعيةُ. أمَّا الشَّرعيَّةُ فهو ما أوحاه إلى رسُلِه، وأمَّا الكونيَّةُ فهي ما قضى به قَدَرُه﴾. وبعضهم قال: كلمات الله هي هذا القرآن الكريم، والمعنى في هذه الآية أن هذه الكلمات لا يكفي لشرحها البحار، لو أنها مداد، وبعضهم قال: كلمات الله: علم الله، أن في الكون من العلم ما لو أردنا شرحه لما استطاع البحر أن يكون كافيًا لو كان مدادًا لشرحِه. ونقف هنا عند دِقَّة البيان القرآني وهذه الآية دقيقة جدًا، كلكم يعلم كم تكفي محبرة لا يزيد حجمُها على مِقبض اليد، إنها تكفي الذي يكتب كثيرًا عامًا واحدًا، أو عامين، فكيف لو كان عنده لتر من الحبر!! اللتر يكفي الطالب طوال عمره، فكيف لو كان عنده برميل، أو خزان، أو مستودع، أو بحيرة؟

﴿**وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ يعني زيادة ولو جِئْنا بمِثلِ البَحرِ بِحارًا أُخرى جئنا ببحر آخر وآخر.. مَدَدًا له، زِدْنا البحرَ بمِثلِ ما فيه من

وصحَّحه ابنُ دقيق العيد في الاقتراح 104، وصحَّح إسنادَه الذهبي في تاريخ الإسلام 212/1، وقال ابنُ حجر في فتح الباري 253/8: رجالُه رجالُ مسلمٍ، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد 86/4، والألباني في صحيح سنن الترمذي 3140.

410- تفسير الرسعني 380/4.

الماءِ مَرَّةً بعدَ أُخرى، لنَفِدَ ماءُ البحرِ وما زِيدَ فيه مِن بحارٍ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ. وفي هذا نص صريح على إثبات كلام الله عزّ وجل [411].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

مُناسَبةُ الآية لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَمالَ كَلامِ اللهِ، أمَرَ مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَسلُكَ طريقةَ التواضُعِ، فقال: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أي: لا امتيازَ بيني وبينكم في شَيءٍ مِن الصِّفاتِ إلَّا أن اللهَ تعالى أوحى إليَّ أنَّه: لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمدُ [412]. وأيضًا لَمَّا كان الكافرون ربَّما قالوا: ما لك لا تحَدِّثُنا من هذه الكلماتِ بكُلِّ ما نسألُك عنه حيثما سألناك؟ وكانوا قد استنكروا كونَ النبيِّ بشَرًا، وجوَّزوا كونَ الإلهِ حَجَرًا! وغَيَّوا إيمانَهم به بأمورٍ سألوه في الإتيانِ بها، وكان قد ثبَت بإجابتِهم عن المسائِلِ على هذا الوجهِ أنَّه رسولٌ، أمَرَه سبحانَه أن يجيبَهم عن ذلك كُلِّه بما يَرُدُّ عليهم غلَطَهم، ويفضَحُ شُبَهَهم؛ إرشادًا لهم إلى أهَمِّ ما يَعنيهم مِنَ الحَرْفِ الذي النِّزاعُ كُلُّه دائرٌ عليه، وهو التَّوحيدُ [413]. قال بعض العلماء: إن في هذه الآية الأخيرة تلخيصًا لِكتاب الله كله.

﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، يقول له المولى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين، ممَّن جعل

411- يُنظر: تفسير ابن جرير 438/15، البسيط للواحدي 174/14، تفسير البغوي 222/3، تفسير القرطبي 68/11، تفسير ابن كثير 204/5.
412- يُنظر: تفسير الرازي 503/21.
413- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 153/12.

الخِطابَ للمُشرِكينَ: ابن جرير، وابن كثير. وقال السعدي: أي: قُلْ يا محمَّدُ للكُفَّارِ وغَيرِهم، أعلن للملأ أنك لست ملكًا، وأنك من جنس البشر، إنما أنا بشر مثلكم مِن بني آدَمَ، لا عِلمَ لي بالغَيبِ إلَّا ما عَلَّمَني ربِّي، بشر يتلقى من ذلك الأفق السمي، لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه، خُذُوني أُسْوة، فأنا لست ملَكًا، وحملتُ نفسي على المنهج الذي أطالبكم به، وقد أوحى إليَّ بأنْ أُبلِّغَكم أن مَعبودَكم الذي يستَحِقُّ العبادةَ واحدٌ لا شريكَ له [414]، فمن زعم بأني كاذب فليأت بما أتيت به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به مما سألتموني عنه من نبإ أصحاب الكهف وذي القرنين وإنما الله أطلعني على ذلك كله. كان عليه الصلاة والسلام يغضب كما يغضب الناس، وكان صلّى الله عليه وسلّم يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاه الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول عليه الصلاة والسلام. وكان له ظِلٌ كما يكون للناس. أمّا من زعم أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم نُورَاني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك، فإن الرسول صلّى الله عليه وسلّم كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضًا، ولو كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم ليس له ظل، لنقل هذا نقلًا متواترًا، لأنه من آيات الله عزّ وجل. إذن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يجلب للناس نفعًا أو ضرًا؟ الجواب: لا، كما أمره الله عزّ وجل أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: 21]. ومن العجب أن أقوامًا لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول صلّى الله عليه وسلّم أكثر مما يتعلقون بالله عزّ وجل؛ إذا ذكر الرسول صلّى الله عليه وسلّم اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله كأن لم يُذكر! حتى أن بعضهم يؤثر أن يحلف بالرسول صلّى الله عليه وسلّم دون أن يحلف بالله عزّ وجل! وحتى أن بعضهم يرى أن زيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أفضل من زيارة الكعبة.

414- يُنظر: تفسير ابن جرير 440/15، تفسير القرطبي 70/11، تفسير ابن كثير 205/5، تفسير السعدي ص: 489.

﴿**يُوحَى إلَيَّ**﴾: أي مِن ربِّي، هذه هي الميزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أنه يوحى إليه، فما زاد محمد عن البشر إلا أنه يُوحَى إليه وغيره لا يوحى إليه، إلَّا إخوانه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام، يوحى إليَّ هذا الكتاب، التوحيد هو الحقيقة الأولى والأخيرة في الدين، قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]. هذه دعوة جميع الديانات السماوية وجميع الكتب المنزلة على أنبياء الله أن مَعبودَكم إلهٌ واحِدٌ.

﴿**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ هذه الجملة حصر، كأنه قال: لا إله إلا واحد، واستفدنا أنها للحصر من "إنَّما" لأن كلمة "إنما" من أدوات الحصر، نقول: إنما العلم بالتعلم، وليس هناك طريق للعلم إلَّا بالتعلم. فإذا عرفت أنه لا إله إلا الله فقد عرفت كل شيء، وإن لم تصل إلى هذه الحقيقة لم تعرف شيئًا. مُلخّص هذا القرآن كُلّهُ من دفته إلى دفته هوَ التوحيد. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾. قال العلماء: "نهاية العلم التوحيد"، أن يقول العبد: لا إله إلا الله، ونهاية العمل الإحسان، الإحسان المبني على علم يؤدي بالعبد إلى الاتصال بالله عز وجل، الذي هو قمة السعادة، وهذه أمور أساسية في الدين، فمهما تعلم العبد أن لم يوحد فهو جاهل، وإذا عرف أنه لا إله إلا الله وصل إلى نهاية العلم، وهذا العلم لا قيمة له في ذاته، لأن العلم ليسَ هدفًا بذاته، إنما هو وسيلة، فيجب أن نبني على هذا العلم العمل الصالح، والعمل الصالح يفهم منه أن نستقيم على أمر الله، وأن يكون عملنا وفق شرع الله، وأن نحسن إلى خلق الله. الاستقامة.. والعبادة.. والإحسان.. كلها تحت العمل الصالح، الذي هو ثمن الاتصال بالله.

﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾: فمَن كان يرجو رؤيةَ اللهِ في الآخرةِ وثوابَه، ويخشى عِقابَه أي: يأمل أن يلقى الله عزّ وجل ويؤمن بذلك فلْيعمَلْ عَمَلًا صالِحًا لرَبِّه مُوافِقًا لشَرعِه، لِهذا اللقاء الذي هوَ أثمن من كُلِّ شيء.

﴿**وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾: لا يعبُدْ معَ اللهِ غيرَه ولا يُراءِ في عبادةِ اللهِ أحدًا مِن الخَلقِ، قال ابن جُزي: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا يحتَمِلُ

أن يريدَ الشِّركَ بالله، وهو عبادةُ غَيرِه، فيكونَ راجعًا إلى قولِه: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، أو يريدَ الرِّياءَ لأنه الشِّركُ الأصغَرُ، واللَّفظُ يحتَمِلُ الوَجهينِ، ولا يَبعُدُ أن يُحمَلَ على العُمومِ في المعنيَينِ. والله أعلم [415]، بل يَجعَل عبادتَه خالِصةً لله وَحدَه لا شَريكَ له، وتأملوا قوله: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ ليتبين لنا أنه جلَّ وعلا حقيق بألَّا يُشرَكَ به، لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات. عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "قال الله تبارك وتعالى: [أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري، تَرَكتُه وشِرْكَه]" [416]. وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضى يومَ القيامةِ عليه رجُلٌ استُشهِد، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استُشهِدتُ، قال: كَذَبتَ، ولكِنَّك قاتَلْتَ لأن يُقالَ: جريءٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقيَ في النَّارِ، ورجلٌ تعلَّم العِلمَ وعلَّمَه، وقرأ القُرآنَ، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلمَ وعَلَّمتُه، وقرأتُ فيك القُرآنَ، قال: كَذبْتَ، ولكنَّك تعلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القُرآنَ لِيُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِب على وجهِه، حتى أُلقيَ في النَّارِ، ورجلٌ وسَّع اللهُ عليه، وأعطاه مِن أصنافِ المالِ كُلِّه، فأُتيَ به، فعرَّفه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ مِن سَبيلٍ تحِبُّ أن يُنفَقَ فيها إلَّا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبْتَ، ولكِنَّك فعَلْتَ ليقالُ: هو جَوّادٌ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، ثم أُلقيَ في النَّارِ". فلا بد للعمل أن يكون خالصا لوجه الله وعلى شريعة محمد ﷺ، وهذان هما شرطا العمل الصالح المتقبل، فهذه هي الوسيلة إلى لقاء الله، إننا نقول بقلوبنا وألسنتنا: "ربنا الله" ونسأل الله تعالى الاستقامة حتى ندخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

415- تفسير ابن جزي 476/1.
416- رواه مسلم 2985.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ دفعًا لِما قد يُتوَهَّمُ مِن أن الأمرَ كما في الدُّنيا مِن أن كُلَّ أحدٍ في أيِّ نعيمٍ كان، يشتهي ما هو أعلى منه؛ لأن طولَ الإقامةِ قد يُورِثُ السَّآمةَ، بل هم في غاية الرِّضا بها لِما فيها من أنواعِ الملاذِّ التي لا حَصرَ لها ولا انقِضاءَ، لا يشتهي أحدٌ منهم غيرَ ما عنده سواءٌ كان في الفردوسِ أو فيما دونَه[417].

2- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ فَرَّقَ سُبحانَه بين المِدَادِ الذي يُكتَبُ به كلماتُه وبين كلماتِه، فالبحرُ وغيرُه مِن المِدَادِ الذي يُكْتَبُ به الكلماتُ مخلوقٌ، وكلماتُ اللهِ غيرُ مخلوقةٍ.

3- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ هذا مِن بابِ تقريبِ المعنى إلى الأذهانِ؛ لأن هذه الأشياءَ مخلوقةٌ، وجميعُ المخلوقاتِ مُنقَضيةٌ مُنتَهِيةٌ، وأمَّا كلامُ اللهِ فإنَّه من جملةِ صفاتِه، وصفاتُه غيرُ مخلوقةٍ، ولا لها حَدٌّ ولا مُنتهى، فأيُّ سَعةٍ وعَظَمةٍ تصوَّرَتْها القُلوبُ، فالله فوقَ ذلك، وهكذا سائِرُ صِفاتِ الله تعالى؛ كعِلْمِه، وحِكْمتِه، وقُدرتِه، ورَحمتِه[418].

4- قَولُه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فيه دَليلٌ على رؤيةِ اللهِ.

417- يُنظر: نظم الدرر للبقاعي 150/12.
418- يُنظر: تفسير السعدي ص: 489.

5- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي: لا يُراءِ بعَمَلِه، بل يعمَلُه خالِصًا لوجهِ اللهِ تعالى، فالذي يجمَعُ بين الإخلاصِ والمُتابعةِ، هو الذي ينالُ ما يرجو ويَطلُبُ، وأمَّا مَن عدا ذلك، فإنَّه خاسِرٌ في دُنياه وأُخراه، وقد فاته القُربُ مِن مَولاه، ونَيلُ رِضاه[419].

6- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أنَّه لا بدَّ مِن مُلاقاةِ الله عزَّ وجلَّ، والنصوصُ في هذا كثيرةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]، فيُؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يجِبُ على الإنسان أن يَستَعِدَّ لمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعرِفَ كيف يُلاقي اللهَ، هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضيَّةٍ عندَ الله عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففتِّشْ نفسَك واعرِفْ ما أنت عليه.

الهدايات والفوائد التربوية لسورة الكهف كاملة:

1- أن فواتحها أو خواتمها تقرأ على الدجال فتعصمُ منه، قال ﷺ: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال"[420].
قال الألباني: وجاء في غيره بلفظ "ثلاث" والصواب: "عشر".
وقال ﷺ: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال"[421]، وقد جاء في حديث آخر بيان المراد من الحفظ والعصمة المذكورين في هذا الحديث وهو قوله ﷺ في حديث الدجال: "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته"[422]. وعن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن

419- يُنظر: تفسير السعدي ص: 489.
420- صحيح مسلم 2126- 199/2.
421- الراوي: أبو الدرداء - خلاصة الدرجة: صحيح - المحدث: مسلم - المصدر: المسند الصحيح - الصفحة أو الرقم: 809.
422- صحيح. السلسلة الصحيحة - مختصرة - ج 2/ ص 123- 582.

يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن. فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف". وفي رواية: "فليقرأ عليه بفواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته"[423] . فإن النبي صلى الله عليه وسلم أرشدنا إلى قراءة فواتح سورة الكهف إذا خرج الدجال، فإن فيها تذكير بالعجيبة التي كانت في القصة في هؤلاء الفتية، فلا يغتر من يرى عجائب الدجال لأن فعل الله عز وجل ليس مثل فعل المخلوقين، وأفعال المخلوقين لا تساوي شيئًا في أفعال الله تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: "من قرأَ سورةَ الكهفِ كما نزلتْ كانت لهُ نورًا يومَ القيامةِ من مقامِهِ إلى مكةَ. ومن قرأَ عشرَ آياتٍ من آخرِها ثم خرجَ الدجالُ لم يُسَلَّطْ عليهِ. ومَن توضأَ ثم قال سبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ لا إلهَ إلا أنتَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ كُتِبَ في رِقٍّ ثم طُبِعَ بطابعٍ فلم يُكْسَرْ إلى يومِ القيامةِ"[424].

2- قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾. يستفاد من هذه الآية أن القرآن منزل من الله غير مخلوق.. تكلم به حقيقة.. وأجمع العلماء على أن من قال بخلق القرآن فقد كفر وخرج عن الملة. فيها تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد قرن ذكره صلى الله عليه وسلم بذكر نعمة إنزال الكتاب، وقدم ذكره على ذكر الكتاب، ليبين عظيم منزلته. وكذلك أنه وصفه بالعبودية، إذ هي مقام عظيم، يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله. وذكر الله نبيه بوصف العبودية في أشرف المقامات:

- إنزال القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1].
- حادثة الإسراء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]

423- رواه الترمذي، وقال الألباني في مشكاة المصابيح: صحيح - ج 3 - ص 188- 5475 [12].

424- الراوي: أبو سعيد الخدري - المحدث: الألباني - المصدر: إرواء الغليل - الصفحة أو الرقم: 94/3 - خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

- الدعوة إلى الله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19].

3- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. يستفاد من هذه الآية أن حسن العمل يبنى على الأمرين التاليين: الإخلاص والمتابعة.

4- قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾. يستفاد من هذه الآية: الرد على من يقولون بعدم جواز ذكر القصص. فالقصص منهج قرآني رباني. والله سبحانه وتعالى قد حثَّ نبيه على ذكر القصص؛ قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

5- للشباب الدور الكبير في نشر الدعوة والذود عنها. فإيمان الشباب اندفاعي قوي ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ ويصدعون بالحق ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويعلنون دعوة التوحيد بثبات ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ ومن أشرك فقد تطاول على الحق وابتعد عنه ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾.

6- الثبات على المبدأ، ومن وسائل الثبات سؤال الله الرحمة والرشاد ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

7- لا بد لكل فكرة أو مبدأ من دليل أو برهان وإلا سقط في أول لقاء ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ وإذا لم يكن هناك حجة قوية أو دليل ساطع فهو ضعيف.

8- التذكير بالصحبة الطيبة، قال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾. نفعت الكلب مصاحبة الفتية وليس منهم فكذلك أهل الخير وإن لم يعمل بعملهم، قال بعض الصالحين: من أحب أهل الخير نالته بركتهم.. كلبٌ أحبّ الصالحين ذكره الله في القرآن فإذا كانت الصحبة الصالحة قد انتفع بها الكلب فأن ينتفع بها

المخلوق من باب أولى، ومن ذلك دلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر الملائكة الذين يتتبعون مجالس الذكر: "إنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكُمْ قالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدُّنْيا قالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وهو أعْلَمُ منهمْ، ما يقولُ عِبادِي؟ قالوا: يقولونَ: يُسَبِّحُونَكَ ويُكَبِّرُونَكَ ويَحْمَدُونَكَ ويُمَجِّدُونَكَ قالَ: فيَقولُ: هلْ رَأَوْنِي؟ قالَ: فيَقولونَ: لا واللَّهِ ما رَأَوْكَ؟ قالَ: فيَقولُ: وكيفَ لو رَأَوْنِي؟ قالَ: يقولونَ: لو رَأَوْكَ كانُوا أشَدَّ لكَ عِبادَةً، وأَشَدَّ لكَ تَمْجِيدًا وتَحْمِيدًا، وأَكْثَرَ لكَ تَسْبِيحًا قالَ: يقولُ: فَما يَسْأَلُونِي؟ إلى آخر الحديث. وفيه: "فلما قال الله عز وجل: أُشْهِدُكُمْ أنِّي قدْ غَفَرْتُ لهمْ قالَ: يقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فيهم فُلانٌ ليسَ منهمْ، إنَّما جاءَ لِحاجَةٍ. قالَ: هُمُ الجُلَساءُ لا يَشْقَى بهِمْ جَلِيسُهُمْ". يعني أنه ما جاء حتى مجاملة، ولكن جاء يريد حاجة، يمكن أنه أتى يبحث عن أحد الموجودين فرآهم في المجلس فما أراد أن يقطع عليهم الحديث فجلس.. فقال الله عز وجل: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم". إذا كان هذا خطاءً أو مقصرًا فما بالنا بالذي جاء لرغبة وجاء يقول: لعل الله عز وجل أن يرزقني البركة في مصاحبة الصالحين، وأن يجعلني ممن أحب قومًا يلحق بهم، فالله عز وجل يحشر المرء مع من أحب.

9- في قصة أصحاب الكهف تسلية للدعاة الذين يحملون هم الدعوة أن يتيقنوا أن العاقبة للمتقين وأن الله ناصرٌ دينه.

10- منهج الدعوة يجب البدء فيه بالأهم وهو التوحيد.

11- نال الفتية رعاية الله بالتوحيد وبالرفقة الصالحة وبالثبات وبالهجرة والاعتزال، وأن الله يحفظ من خرج مهاجرًا إليه. وأيضًا حسن الظن بالله والدعاء والشورى واجتماع الكلمة واتخاذ القرار العاقل.

12- الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن. قال صلى الله عليه وسلم: "الدُّعاءُ هو العبادةُ ثمَّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾"[425].

13- من لجأ إلى الله حق الالتجاء كان له ناصرًا ومعينًا، وأحال عسر أمره يسرًا، وجعل له من بعد الضيق فرجًا ومخرجًا.

14- الإيمان والدين يرفع المرء مراتب، ويتجاوز الاعتبارات التي يضعها الناس لدنياهم، فهذه فئة من الشباب خالفوا قومهم وشذوا عن منطق قومهم وما هم عليه، فذهبوا وأووا إلى غار فباتوا فيه مدة طويلة ثم بعد ذلك ماتوا، فماذا يعني ذلك؟ لقد أعلى الله شأنهم، وأثنى عليهم، وشهد لهم بالإيمان وزيادة الهدى.

15- مشروعية كتمان بعض الأعمال وعدم إظهارها والحث على التحرز والاستخفاء والبعد عن مواطن الفتن في الدين فهؤلاء حينما استيقظوا وأرسلوا أحدهم، قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. ينتبه ويحذر ويكون إنسانًا فطنًا: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

16- الإيمان والعمل الصالح سبب للهداية والتوفيق، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿66﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿67﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66-68]. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

425- الراوي: النعمان بن بشير – المحدث: المنذري - المصدر: الترغيب والترهيب.
الصفحة أو الرقم: 388/2 - خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.
التخريج: أخرجه أبو داود 1479، والترمذي 2969، وابن ماجة 3828.

[العنكبوت: 69]. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿4﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿5﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: 4-6]. وفي قراءة: ﴿قاتلوا في سبيل الله﴾.

17- الصلة بالله تعالى. والمؤمن الموصول بالله يجد الطمأنينة والسكينة في كل ما يواجهه، حينما أمر الله عز وجل موسى أن يذهب إلى فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴿45﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 45-46].

18- دعوة التوحيد هي دعوة جميع الأنبياء. فذكر هؤلاء توحيد الربوبية والألوهية: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾. إنها دعوة واحدة وهي دعوة جميع الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وما أرسل الله عز وجل من رسول إلا أوحى إليه تبارك وتعالى بهذه الكلمة، أوحى إليه: إني لا إله إلا أنا فاعبدون. قيل أن حال هؤلاء يشبه حال الناس حينما يقومون لرب العالمين: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45]، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿112﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: 112-113]، إذن: فالدنيا كلها بما فيها ستتحول يوم القيامة إلى ساعة من نهار، وستتحول إلى يوم أو بعض يوم كما حصل تمامًا لأهل الكهف حين استيقظوا صارت الثلاثة القرون كيوم أو بعض يوم.

19- المراء في أمر لا فائدة فيه لا حاجة إليه. وقت المسلم ثمين، وحديثه موزون، ولن يزيده علما وفهمًا أن يخوض فيما لا طائل له، فماذا يزيده لو عرف عدد الفتية أو أسماءهم، أو أعمارهم؟ أو أعمالهم؟ الفائدة المرجوة يجدها في أفعالهم وثباتهم على المبدأ

وفرارهم بدينهم يحافظون عليه وحذرهم في تصرفاتهم، وأخوّتهم في الله تعالى.

20- تعليق الأمر بمشيئة الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم على قوله للكفار حين سألوه عن الفتية والروح وذي القرنين: غدًا أخبركم بجواب أسئلتكم. ولم يستثنِ في ذلك، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يومًا حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار به. فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة، وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور: إني أفعل غدًا كذا وكذا إلا أن يعلق الأمر بمشيئة الله تعالى. وقال العلماء: المشيئة تكون في الأمور المستقبلية القادمة، لا الماضية.

21- قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ في هذه الآية دليل على ضرب الأمثلة.. وهي طريقة مثالية ونافعة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

22- قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ فالحوار والجدال مطلوب، وهو من أنفع الوسائل التي يستخدمها الداعية في طريق دعوته، قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل 125]. ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. فالجدال نوعان: جدال من أجل طلب الحق.. فهذا لا شيء فيه، بل هو مشروع. وجدال من أجل اتباع الهوى.. وهذا هو الذي ينبغي تركه.

23- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. استدل العلماء بهذه الآية على أن كل من دخل بيتًا أو رأى نعمة أن يعترف بفضل الله وأن يقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

24- قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾. فسَّر العلماء هذه الآية أنها تشمل جميع الحسنات وأعمال الخير والبر.

25- معرفة حقيقة الدنيا: في قوله تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾.

26- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود الملائكة لآدم ليس سجود عبادة وإنما سجود طاعة لله سبحانه وتعالى تشريفًا وتكريمًا لآدم.

27- إبليس ليس من الملائكة.. وهذا الذي رجحه جمع من أهل العلم والدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. ولأن الملائكة خلقوا من نور والشيطان خلق من نار.

28- قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ العبد: هو الخضر عليه السلام. وسبب تسميته بذلك: قال صلى الله عليه وسلم: "إنَّما سُمِّيَ الخضِرَ لأنهُ جلسَ على فروةٍ بيضاءَ فاهتزَّت تحتَهُ خَضراءَ"[426].

29- إذا وقعت الخوارق على يد رجل صالح تقي فهذه كرامة، وإن وقعت للسحرة والدجالين ومنحرفي العقيدة فهي فتنة وبلاء واستدراج.

30- قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ بهذه الآية استدل العلماء على نبوة الخضر عليه السلام.. والدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

31- قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ سعى موسى للقاء الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فعلينا أن نطلب العلم المُزَكَّى النافع في الدنيا والآخرة، وعلم الشريعة هو

426- الراوي: أبو هريرة - المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الترمذي - الصفحة أو الرقم: 3151 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الذي زكاه رب العزة. كما يستفاد من هذه الآية: تلطف طالب العلم بشيخه ورفقه به.

32- التواضع: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ يستفاد من ذلك: استحباب ذكر المشيئة في الأعمال المستقبلية.

33- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ يستفاد من هذه الآية: أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. فكفر الأبوين بالله جل شأنه أعظم من موت هذا الغلام.

34- قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ استدل العلماء بهذه الآية على أن صلاح الآباء صلاحٌ للأبناء. قال سعيد بن المسيب: إني لأزيد في الصلاة من أجل ابني، بركة صلاح الآباء تظهر على الأبناء. ﴿احفظ الله يحفظك﴾ يحفظك في دينك وأهلك ومالك.

35- استعمال الأدب مع الله في الألفاظ، فالخضر أضاف عيب السفينة لنفسه ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأضاف الخير لله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ وهذا من تأدب الخضر عليه السلام مع ربه.. حيث نسب الفعل إلى نفسه مع أن الله هو الذي أمره بذلك وهذا زيادة أدب مع الله جل شأنه.

36- الرحلة في طلب العلم. وقد حثَّ العلماء على هذا، واستحبوا أن يرحل الطالب إلى العلماء لملاقاتهم والجلوس بين أيديهم، وقد كان بعض السلف يرحل من أجل حديث واحد.

37- على العالم أن يخفض جناحه لطلابه، فلا يُرى إلا متواضعا ليبلغ إليه كل أحد، وإذا سئل عن علمه يرد الفضل إلى الله ولا يرى من نفسه أنه أعلم الناس.

38- من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم والثبات على ذلك، يفوته كثير من العلم. فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن صبر أدرك.

39- فقد الحوت كان أمرا مكروها ليوشع، لكنه علامة لقاء العبد الصالح، فقد يكون فيما يكره الإنسان خيرا كثيرا. فالإنسان لا يعلم والله يعلم.

40- قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أجمع العلماء على أن من استهزأ بشيء من الدين فقد خرج من الملة وكفر بالله سبحانه وتعالى سواء كان ذلك ذاكرًا أم ناسيًا، قاصدًا أم لم يقصد.

41- استحباب العناية بأولاد الصالحين وتفقدهم وحل مشاكلهم لا سيما إن كانوا يتامى، كما أقام الخضر الجدار لليتيمين إكراما لصلاح والداهما.

42- نرى في هذه السورة العظيمة قصة رجل آتاه الله إمكانات فماذا فعل بها؟ فقد آتى الله ذا القرنين من كل شيء سببا، فسخرها في الدعوة إلى الله، وسار بجيشه ينشر الإسلام في الأرض. وهذه الأرض ملكها مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان فهما: سليمان وذو القرنين، وأما الكافران: فبخت نصر والنمرود على ما ذكر في كتب التاريخ.

43- ترفع ذو القرنين عن أموال الناس بقوله ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، ما امتدت يده إليهم ليأخذ شيئًا، ولسان حاله: "بعثت هاديًا ولم أبعث جابيا"، وسار في الأرض وكان عنده من العفة والثقة بالله.

44- ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ تحذير لكل مكلف ألا يستصغر ذنبا فيتجرأ على محارم

الله. قال الفضيل: "يا ويلتاه.. ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر".

45- التذكير بنار جهنم والجنة، فالمؤمن يحرص على نيل الجنة والنجاة من النار.

46- الإخلاص: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ في هذه الآية رد على غلاة الصوفية الذين بالغوا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ووصفه بأوصافٍ لا تليق.

47- كل الأحاديث التي جاء فيها الوصف الخِلْقِي ليأجوج ومأجوج لا يصح منها شيء.

الحمد لله الذي وفقني لإكمال هذه السورة، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. أن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان وإن أصبت فمن فضل الله وحده. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات اللهم اجعل عملي خالصا لوجهك الكريم ولا تجعل لأحد شيئا منه سواك. اللهم إني أعوذ بك من عمل أعمله وألتمس فيه أحدًا سواك.

تم بفضل الله تعالى بتاريخ 1428/3/20 الموافق 2007/3/1

المصادر

1- [**تفسير القرآن العظيم**] المشهور "**بتفسير ابن كثير**"، للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير المتوفى 774 هـ.
2- [**الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان**] المشهور "**بتفسير القرطبي**" للإمام: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة 671 هـ.
3- [**جامع البيان في تفسير القرآن**] أو [جامع البيان عن تأويل آي القرآن] أو [جامع البيان في تأويل القرآن] المعروف "**بتفسير الطبري**" للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، المعروف "بالطبري".
4- [**التفسير الوسيط للقرآن الكريم**] للمؤلف: محمد سيد طنطاوي.
5- [**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**] المعروف "**بتفسير السعدي**" لمؤلفه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، المتوفى: 1376هـ.
6- [**البحر المحيط**] لمؤلفه: أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المتوفى: 745هـ.
7- [**التفسير الميسر**] تأليف: مجموعة من كبار العلماء بمجمع الملك فهد.
8- [**معالم التنزيل في تفسير القرآن**]، المعروف "**بتفسير البغوي**" لمؤلفه محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى: 510 هـ.
9- [**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**] المعروف "**بتفسير الشنقيطي**".
10- [**تفسير القرآن**] لمؤلفه: محمد متولي الشعراوي، المتوفى: 1418هـ.
11- [**تفسير النابلسي**] للدكتور محمد راتب النابلسي.

12- [**تفسير فتح القدير**] لمؤلفه: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، المتوفى: 1250هـ.
13- [**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**] لمؤلفه: البقاعي.
14- [**التحرير والتنوير**] لمؤلفه: محمد الطاهر بن عاشور، المتوفى 13 رَجَب 1393 هـ = 12 أغسطس 1973م.
15- [**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**] لمؤلفه: أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المتوفى: 542 هـ.
16- [**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**] المعروف "بتفسير الزمخشري" لمؤلفه: أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، المتوفى: 538 هـ.
17- [**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**] المعروف "بتفسير البيضاوي" لمؤلفه: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المتوفى: 685 هـ.
18- [**إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**] لمؤلفه: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، المتوفى: 982 هـ.
19- [**النكت والعيون**] المعروف "بتفسير الماوردي" لمؤلفه: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، المتوفى: 450 هـ.
20- [**تفسير المراغي**] لمؤلفه: أحمد مصطفى المراغي، المتوفى: 1371 هـ.
21- [**المفردات في غريب القرآن**] لمؤلفه: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المتوفى: 502 هـ.
22- [**التسهيل لعلوم التنزيل**] لابن جزي الغرناطي، المتوفى: 741 هـ.
23- [**السراج المنير**] المعروف "بتفسير الشربيني للمؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، المتوفى: 977 هـ.
24- [**معاني القرآن**] لمؤلفه: أبو الحسن المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، المتوفى: 215 هـ.

25- [**لباب التأويل في معاني التنزيل**] لمؤلفه: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، المتوفى: 741 هـ.

26- [**اللباب في علوم الكتاب**] تفسير ابن عادل لمؤلفه: عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي أبو حفص.

27- [**أحكام القرآن**] لمؤلفه: علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي، المتوفى: 504 هـ.



كتب أخرى للمؤلفة

- تبصرة أولي الألباب في تفسير فاتحة الكتاب
- لماذا نحفظ القرآن؟
- إلى من أدركت رمضان (مطوية)
- إليكِ يا أختاه (مطوية)

الإصدار الأول 2021